سلسلة تفسير القرآن الكريم (٣)



التفسير المنهجي

سورة آل عمران

تأليف
الأستاذ الدكتور فضل عبّاس

إشراف
الأستاذ عمر خليل يوسف

المراجعة العلمية
الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار المنهل
ناشرون وموزعون
هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن
http:\www.dmanhal.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٩٢٤ / ٤ / ٢٠٠٦)

٢٢٢,٦
عباس، فضل حسن
التفسير المنهجي: سورة آل عمران / فضل حسن
عباس. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦

(٢١٣) ص (سلسلة القرآن الكريم؛ ٣)
ر.إ: (٩٢٤/ ٤/ ٢٠٠٦).
الواصفات: / تفاسير القرآن// القرآن / / سور القرآن/ / الآيات القرآنية/

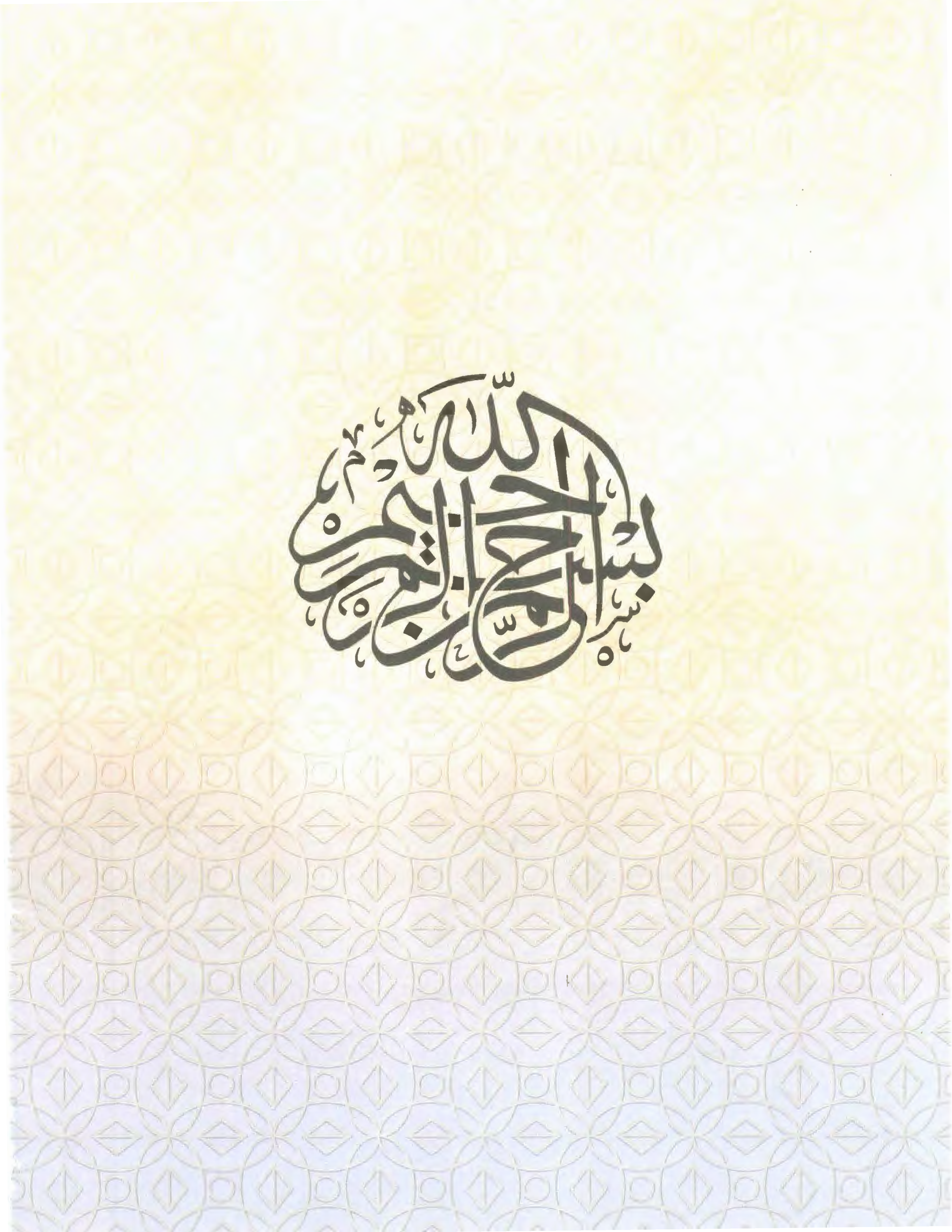
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف

الطبعة الأولى
2006

رقم الإجازة: 1029 / 4 / 2006
رقم الإيداع: 924 / 4 / 2006
التصنيف الدولي: 1-513-08-9957

مؤلفو السلسلة

- الأستاذ الدكتور فضل عباس
- الدكتور أحمد نوفل
- الدكتور صلاح الخالدي
- الأستاذ الدكتور أحمد شكري
- الدكتور جمال أبو حسّان


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ ، وَالصّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأَنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبهِ ومن سارَ على دربهِ إلى يوم الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نَبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .
وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأَحاديثِ الحثُّ على تعلُّم القرآنِ ومُدارَسَتِهِ ، ومِنْ ذَلِكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : خيْرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ[1] ، وَقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينهَم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائكةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[2] .

وقد بَذلَ المُسْلِمُونَ على مرِّ العُصور جُهوداً كثيرة مُتَوالِيَةً في خِدْمة هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَلّقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسيرها ، وكان لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

وميزةُ هذا التفسير أنَّه أُعِدَّ ليكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريس في المَدارسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبةِ تفسيرَ القرآنِ الكريم كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .

* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .

* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تَخْريجُ الأحاديثِ النَّبَويَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَبَّلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ آلِ عِمرانَ هِيَ السُّورةُ الثّالِثةُ في القرآنِ الكَريمِ ، وتَبلُغُ آياتُها مائتَي آيةٍ ، وهِيَ مَدَنِيَّةٌ ، باتِّفاقِ العُلَماءِ .

وسُمِّيَتْ (آلِ عِمْرانَ) ، لِورودِ قِصَّةِ آلِ عِمْرانَ مُفَصَّلَةً ، حيثُ لم تُفَصَّلْ قِصَّتُهم في غَيْرِ هذهِ السُّورةِ ، وقَدْ حَوَتِ السّورةُ الكَريمَةُ مقاصِدَ عِدَّةً :

الأولُ : اهتمَّتِ السُّورةُ بإِثْباتِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وأنَّ الدّينَ الإسلاميَّ حَقٌّ وما سِواهُ باطِلٌ .

الثّاني : فصَّلَتِ الحَديثَ عَنْ أَحْوالِ أَهْلِ الكِتابِ بأُسلوبٍ مُقْنِعٍ حَكيمٍ .

الثّالِثُ : اهتمَّتِ السُّورةُ بِتَرْبِيَةِ المُؤْمِنينَ تَرْبِيةً يَنالونَ باتِّباعِها النَّصْرَ والسَّعادةَ في الدُّنْيا والفَوْزَ في الآخِرَةِ .

الرّابِعُ : عَرَضَتِ السُّورةُ أَحْداثَ غَزْوةِ أُحُدٍ عَرْضاً مُؤَثِّراً ، مُبْرِزةً العِظاتِ والعِبَرَ مِنَ الغَزْوةِ .

مَعاني المُفْرَداتِ :

الم	: حروفٌ افْتَتَحَ اللهُ بها بَعْضَ السُّوَرِ عَلى سبيلِ التَّنْبيهِ والتَّحَدّي للعَرَبِ .
القيُّومُ	: الدَّائِمُ القيَام بِتَدْبيرِ أَمْرِ الخَلْقِ .
مُحكماتٌ	: مُتقَناتٌ ذواتُ معانٍ واضحةٍ .
مُتشابهاتٌ	: يَشْتَبهُ مَعْناها عَلى النّاسِ .
زَيْغٌ	: ميلٌ .
الرَّاسِخونَ	: الثّابتونَ والمتَمَكِّنونَ .
الألبابِ	: العُقولِ .

التَّفسيرُ :

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾

افْتُتِحَتِ السّورةُ الكَريمةُ بالأَحْرُفِ المُقطَعةِ الّتي جاءَتْ لِتَنْبيهِ المُشْرِكينَ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ نَزَلَ بنفسِ اللُّغةِ والأَحْرُفِ الّتي تتكلَّمونَ بها ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّكُمْ لا تَسْتَطيعونَ الإتْيانَ بمثلِهِ ، ثُمَّ جاءتِ الآياتُ لِتَقْريرِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المُتَفَرِّدُ بالأُلوهِيَّةِ ، وهُوَ الحَيُّ الّذي يَقومُ بِتَدْبيرِ شُؤونِ الخَلْقِ ورعايتِهِمْ .

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾ .

وَبَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ أَوْحى بهذا القُرْآنِ المَكْتوبِ إلى النَّبيِّ ﷺ بالتَّدريجِ ، ويَدُلُّ عَلى التَّدريجِ كَلِمَةُ (نَزَّلَ) بالتَّضعيفِ ، وقدْ نَزَلَ هذا القُرآنُ مُلْتَبِساً بالحَقِّ وأَنَّ فيهِ ما يُحقِّقُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، فَلا يَحْتاجُ إلى دليلٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وجاءَ هذا القُرْآنُ كذلكَ ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أيْ : مُبَيِّناً صِدْقَ ما تَقدَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ على الأَنْبياءِ ، وأَنَّها وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ۝٤ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، قَدْ أَنْزَلَ التَّوْراةَ عَلى موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِنْ قَبْلِ تَنْزيلِ القُرْآنِ الكَريمِ لِهدايةِ النّاسِ ، وقَدِ اشْتَمَلَتِ التَّوْراةُ والإنجيلُ عَلى البِشارةِ بالنَّبيِّ ﷺ ، والحَضِّ عَلى طاعَتِهِ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ والفُرْقانُ مَصْدرٌ كالغُفرانِ ، وهُوَ هُنا

مَا يُفرِّقُ ويَفْصِلُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ ، والحلالِ والحرام ، ولا يُقْصَدُ بالفُرْقانِ هُنا القُرْآنُ ، إذْ إنَّهُ ذَكَرَ القُرْآنَ في قولِهِ : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، أمّا الفُرْقانُ فَهُوَ الدَّلائِلُ والبَراهينُ الّتي بَثّها اللهُ تعالى ، والّتي تُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ في كُلِّ أَمْرٍ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ سوءَ عاقِبَةِ الّذينَ كَفَروا وانْحَرَفوا عَنِ الحَقِّ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الّتي أَنْزَلَها سُبْحانَهُ وتَعالى لِهِدايةِ عِبادِهِ وإرْشادِهم إلى ما فيه خَيْرُهُمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ ، هؤلاءِ الّذينَ كفروا بآياتِ اللهِ الّتي تدلُّ عَلى وحدانيّتِهِ تَعالى ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بسَبَبِ كُفْرِهِمُ الّذي حَمَلَهُمْ عَلى التَّصْديقِ بالخُرافاتِ والأَباطيلِ ، وجَعَلَهم يَقْتَرِفونَ المعاصِيَ الّتي أَفْسَدَتْ نُفوسَهُمْ وعُقولَهُمْ ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ غالِبٌ عَلى أمْرِهِ ، يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ ، وهُوَ بعِزَّتِهِ يُنَفِّذُ فيهِمْ سُنَّتَهُ فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ خالَفَ هذهِ السُّنَنَ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآيَةُ لِتُبَيِّنَ شُمولَ عِلْمِ اللهِ تَعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فَهُوَ المُطَّلِعُ عَلى كُلِّ صَغيرةٍ وكَبيرةٍ في هذا الكَوْنِ ، وَهوَ سُبْحانَهُ يُنَزِّلُ لِعبادِهِ الكُتُبَ الّتي يَعْلَمُ أَنَّ فيها صلاحَهُمْ ، وهُوَ يَعْلَمُ حَقيقةَ أمْرِهِمْ في سرِّهِم وَجَهْرِهِمْ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ أَمْرُ المُؤْمِنِ الصّادِقِ وأَمْرُ الكافِرِ والمُنافِقِ . وذَكَرَ سُبْحانَهُ (السَّماءَ) و(الأرضَ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ عِلْمَهُ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، وذُكِرَتْ كَلِمَةُ (لا) هُنا مَرّتينِ ، لِيُبيِّنَ عِلْمَ اللهِ بكُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ أَوّلا لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ ، وهُوَ ثانياً لا يَخْفى عليهِ شيءٌ في السّماءِ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ الكُلّيّاتِ ، ويَعْلَمُ الجُزْئياتِ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآيَةُ دَليلاً عَلى عِلْمِ اللهِ تعالى الشّامِلِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ والأَرْحامُ : جَمْعُ رَحِمٍ ، وهُوَ مُسْتَوْدَعُ الجنينِ مِنَ المرأةِ ، وفي تَصويرِ الأَجِنَّةِ في الرَّحِمِ مِنَ الحِكَمِ البَديعةِ والنِّظامِ الدَّقيقِ ، الّذي يَدُلُّ على قُدْرَةِ اللهِ تَعالى العليمِ الخبيرِ بالدَّقائقِ ، الحَكيمِ الّذي يَسْتَحيلُ عَلَيهِ العَبَثُ ، العَزيزِ الّذي لا يُغْلَبُ عَلى ما قَضى بِهِ عِلْمُهُ . لَقَدْ صوَّرَكُمْ في الأَرْحامِ ، فَجَعَلَ مِنْكُمُ الأَبْيَضَ ومِنْكُمُ الأَسْوَدَ ، ومِنْكُمْ ما بينَ ذَلِكَ ، وجَعَلَ بَعْضَكُمْ طويلاً وبَعْضَكُمْ قَصيراً .

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تَأْكيدٌ لِما وَرَدَ مِنَ انْفِرادِهِ سُبْحانَهُ بالأُلوهِيَّةِ ، وأَحقيَّتِهِ بالعُبوديَّةِ ، بَعْدَ أَنْ أَقامَ الأَدِلَّةَ الواضِحَةَ عَلى ذَلِكَ .

المُحْكَمُ والمَتَشابهُ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ .

لَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى أَنْ يَشْتَمِلَ هذا الكِتابُ ـ القُرآنُ الكريمُ ـ عَلى المُحْكَم ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ أَيْ : واضحاتُ المعاني والدّلالةِ ، هُنَّ أُمُّ الكِتابِ ، بِمعنى : أَصْلُهُ وجُلُّه والّذي يُرْجَعُ إِليهِ في التَّمييزِ بينَ الحلالِ والحرام . وأُخَرُ مُتَشابهاتٌ ، وهِيَ لُغَةً : الّتي يُشبهُ بَعْضُها بَعْضاً في الهدايةِ والبَلاغةِ ، وسَلامتِهِ مِنَ التَّناقُضِ والتَّفاوُتِ ، وشَرْعاً : هِيَ الآياتُ الّتي تَشْتَبهُ عَلى المفسِّرِ ، فلا يَصِلُ إلى مَعْناها إلاّ بَعْدَ طولِ فِكْرٍ وإجالةِ نَظَرٍ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ مَوْقِفَ الّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ المُتَشابِهِ ، وهُمُ الّذينَ انْحَرفوا عَنِ الحَقِّ . إنَّ هؤلاءِ الفاسِقينَ الّذينَ مالوا وانْحَرفوا عَنْ مَنْهَجِ اللهِ تَعالى القَويمِ ، يَتَّبعونَ ما تَشابَهَ مِنَ القُرْآنِ ، وهُوَ الّذي لا يُمْكِنُ أنْ نَصِلَ إلى تَفْسيرِهِ إلاّ بَعْدَ تَفْكيرٍ وتَدبُّرٍ ، يَتَّبعونَ المُتشابِهَ وهُمْ يَقْصِدونَ مِنْ وراءِ ذَلِكَ أَمْرَيْنِ :

الأَوَّلُ : ابْتِغاءُ الفِتْنَةِ : أيْ أنّهم يَتَّبعونَهُ بالإنْكارِ والتَّنفيرِ مُسْتَغلِّينَ ما في أَنْفُسِ النّاسِ مِنْ إنْكارِ ما لَمْ يَصِلْ إليهِ عِلْمُهُمْ ، فَيَفْتِنونَ النّاسَ عَنْ دينِهِمْ .

الثاني : ابْتِغاءُ تَأْويلِهِ : أيْ أنّهم يُرْجِعونَهُ إلى أَهْوائِهِمْ وتَقاليدِهِمْ ، ولَيْسَ إلى الأَصْلِ المُحْكَمِ الّذي بُنِيَ عَلَيْهِ الاعْتِقادُ ، فَيُفَسِّرونَها حَسَبَ أهوائِهِمْ .

وبَيَّنَتِ الآياتُ أنَّ تأويلَ المُتَشابِهِ لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، والرّاسِخونَ في العِلْمِ ، والرُّسوخُ بِمعْنى الثَّباتِ والتَّمكُّنِ . إنّ هَذا دَليلٌ عَلى أنَّ هُناكَ مَنِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالرُّسوخِ في العِلْمِ ، ومِنْ هؤلاءِ حَبْرُ الأُمَّةِ عبدُاللهِ بنُ عباسٍ ـ رضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ الّذي دَعا لَهُ النَّبيُّ ﷺ بِأَنْ يُعلِّمَهُ اللهُ التَّأْويلَ ويُفَقِّهَهُ في الدّينِ . إنّ الرّاسخينَ في العِلْمِ يَعْلَمونَ تَأْويلَ المُتَشابِهِ وحالُهمُ يَقولُ آمنّا بِكَ يا ربّ ، وصدّقنا بما أنزلْتَ وأذعَنّا لِما أَمَرْتَنا ، وكُلُّ ما في الكِتابِ مِنْ عِنْدِكَ لا شَكَّ في ذَلِكَ ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ فإنَّهُ لا يَعْقِلُ آياتِ اللهِ ويَفْقَهُ حِكْمَتَهُ إلاّ أَرْبابُ القُلوبِ النَّيِّرةِ والعُقولِ الكَبيرةِ ، وهؤلاءِ الرّاسِخونَ لَمْ يَكونوا راسِخينَ إلاّ بالتَّعقُّلِ والتَّدبُّرِ لِجَميعِ الآياتِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القُرآنُ الكَريمُ مُعْجِزٌ أنْزَلَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، يَجِبُ الإيمانُ بِكُلِّ ما جاءَ فيهِ مِنْ آياتٍ ودَلائِلَ .

٢ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ للعُبوديَّةِ والأُلوهيَّةِ .

٣ـ إنَّ الرّاسِخينَ في العِلْمِ يَعْلَمونَ ما يُوَفِّقُهُمُ اللهُ تَعالى لِمَعْرِفَتِهِ ، ويُؤْمِنونَ بأنَّ القُرْآنَ مِنْ عِندِ اللهِ .

٤ـ إنَّ القُرْآنَ الكَريمَ كِتابٌ هادٍ للحقِّ لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بينِ يَدَيهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .

٥ـ الخيرُ كلُّهُ فيما يَختارُهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَهَبَ العُلَماءُ مَذاهبَ شَتّى في تَفْسيرِ الأَحْرُفِ المُقَطَّعةِ ، اذْكرِ التَّفْسيرَ الصَّحيحَ لها .

٢ـ لِمَ ذُكِرَ حَرْفُ النَّفي (لا) مَرَّتَيْنِ في قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؟

٣ـ وَضِّحْ مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ، وعلامَ تَدُلُّ الآيةُ ؟

٤ـ وضِّح الفَرْقَ بَيْنَ المُحْكَمِ والمُتَشابِهِ .

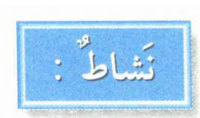
٥ـ هَلْ يُمْكِنُ لأحَدٍ أَنْ يَتوصَّلَ لِمَعرِفَةِ المُتَشابِهِ ؟ بَيِّنْ ذلِكَ .

٦ـ مَنْ هُمُ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ ؟

٧ـ يَقْصُدُ متَّبعو المُتَشابِهِ مِنْ فِعْلِهِمْ هذا أمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

٨ـ فسِّرْ مَعنى : الفُرْقانَ ، زيغٌ ، الألباب .

٩ـ النّاسُ بالنِّسْبَةِ للمُتَشابِهِ فَريقانِ ، اذْكُرْهُما ، وبَيِّنْ مَوْقِفَ كُلٍّ مِنْهُما مَعَ الدَّليلِ .



نَشاطٌ :

١ـ وَرَدَتْ آيةٌ في سورةِ الأَنْعامِ تُبَيِّنُ أنَّ اللهُ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ ؛ الجُزئياتِ ، والكُليّاتِ ، اكتُبِ الآيَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ اللُّغويَّةِ ، واسْتَخْرِجْ أَصْلَ كَلِمَتيْ : التَّوراةِ والإنْجيلِ .

* * *

الدَّرْسُ الثّاني

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثّاني

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تُزِغْ	: الزَّيغُ : المَيْلُ عَنِ الاسْتِقامةِ أو الانْحرافُ .
وَقودُ النّارِ	: بِفَتْحِ الواوِ ، ما تُوقَدُ بِهِ النّارُ كالحَطَبِ .
دأبِ	: أصلُهُ الدّوامُ والاسْتِمرارُ .
آلِ فِرعونَ	: هُمْ أعوانُهُ ونُصراؤُهُ .
أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوبِهِمْ	: عذَّبَهُمْ وعاقَبَهُمْ .
المِهادُ	: المَقامُ والمُسْتَقرُّ ، والمكانُ المُمَهَّدُ الّذي يُنامُ عَلَيْهِ كالفراشِ .

التَّفسيرُ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) ﴾ .

اشْتَمَلَتِ الآيةُ الأُولى والثّانِيَةُ على دَعَواتٍ طَيِّبةٍ . ويَرى بَعْضُ العُلَماءِ أنَّ هَذِهِ الدّعواتِ مِنْ مَقولِ الرّاسِخينَ في العِلْمِ ، فَهُمْ يَقولونَ : (آمنّا بِهِ) ، ويَقولونَ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ ويَرى بَعْضُهُمْ أنَّ

هذا كَلامٌ جَديدٌ ، وهُوَ تَعليمٌ مِنَ اللهِ لِعبادِهِ لِيُكْثِروا مِنَ التَّضرُّعِ إليهِ بِهذِهِ الدَّعواتِ .

والمعْنى : نَسْأَلُك يا ربَّنا ونَضْرَعُ إليْكَ ألاّ تُميلَ قُلوبَنا عَنِ الهُدى بَعْدَ إذْ ثَبَّتَنا عَلَيْهِ ، وأنْ تُباعِدَ بَيْنَنا وبَيْنَ الزَّيغِ والانْحرافِ ، وامنحْنا مِنْ عِندِكَ إنْعاماً وإحْساناً تَشْرَحُ بِهِما صُدورَنا ، إنَّكَ أنتَ الوهّابُ لا غيرُكَ ، فأنتَ مالكُ المُلْكِ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

ثُمَّ حكى سُبْحانَهُ ضَراعةً أخرى ، تَضَرَّعَ بِها المُؤْمِنونَ ، فقالَ تَعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ ﴾ أيْ : ربّنا ، إنّكَ جامعُ النّاسِ أي : في يومِ القيامةِ لِتُجازيَ الّذينَ أَساءُوا بما عَمِلوا ، وتُجازِيَ الّذينَ أحسَنوا بالحُسْنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ جاءَتِ الآيَةُ لِتَنْفِيَ الرَّيْبَ في وقوعِ يومِ القِيامَةِ وما سَيَكونُ فيهِ مِنْ ثوابٍ وعِقابٍ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

إنَّ الّذينَ كَفَروا بالحَقِّ لمّا جاءَهُمْ لَنْ تَنفعَهُمْ أموالُهمْ وَلا أولادُهُمْ يومَ القيامةِ ، ولَنْ تَدْفَعَ عنهُمْ شيئاً مِنْ عذابِ اللهِ الّذي استحقُّوهُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ واغْتِرارِهِمْ بكثرةِ المالِ ، والإشارةُ في قوْله : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ لأولئِكَ الكافِرينَ الّذينَ اغْتَرّوا بأموالِهِم وأولادِهِمْ ولَمْ يسمَعوا للحقِّ ، فَهُمْ وَقودُ النّارِ ؛ أيْ : حَطَبُها .

وجاءَ باسْمِ الإشارةِ (أولئكَ) للإشارةِ إلى كُفْرِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وانْغِماسِهِمْ في الكُفْرِ ، ولِذلِكَ كانَتِ العُقوبَةُ شَديدةً .

﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ ، أنَّ حالَ الكافِرينَ بالحَقِّ كَحالِ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الأَقْوامِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ﴾ أَيْ : حالُ هؤلاءِ الكافِرينَ الّذينَ كَفَروا بالحَقِّ الّذي جِئْتَ بِهِ يا مُحَمَّدُ كَحالِ آلِ فِرْعونَ والذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الضّلالِ ، كفَروا بآياتِ اللهِ وكَذَّبوا بما جاءَتْ بِهِ الآياتُ فَكانَتْ نَتيجةُ ذلكَ أنْ أخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدرٍ ، حَيْثُ أهْلَكَهُمْ إهْلاكاً شَديداً . وخَصَّ القُرْآنُ آلَ فِرْعونَ بالذِّكْرِ ، لأَنَّ فِرْعونَ كانَ أَشَدَّهُمْ طُغْياناً وأَكْبَرَهُمْ غُروراً ، وأَكْثَرَهُمْ اسْتِهانةً بِقَوْمِهِ ، واحْتِقاراً لَهُمْ .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

ثُمَّ أَنْذَرَ اللهُ تَعالى الكافِرينَ بسوءِ المَصيرِ ، وَبَشَّرَ المُؤْمنينَ بِحُسْنِ العاقِبَةِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ ﴾ قِيلَ في سَبَبِ نُزولِ هذهِ الآيَةِ ما ذَكَرَهُ ابنُ إسْحاقَ عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ

قَتادةَ : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا أصابَ مِنْ قُرَيشٍ ما أصابَ في غَزْوةِ بَدْرٍ ، ورَجعَ إلى المدينةِ ، جَمعَ اليَهودَ في سوقِ بَني قَيْنُقاعَ ، وقالَ : « يا مَعْشَرَ اليهودِ احْذروا مِنَ اللهِ مِثْلَ ما نَزلَ بقُرَيْشٍ يومَ بَدْرٍ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ما نَزلَ بهِمْ ، فَقدْ عَرَفْتُم أنّي نَبيٌّ مُرْسَلٌ تَجدونَ ذلكَ في كِتابِكُمْ وعَهْدِ اللهِ إليْكُم » فقالوا : يا مُحَمَّدُ لا يَغُرَّنَّكَ أنَّكَ قَتَلْتَ نَفَراً مِنْ قريشٍ كانوا أَغْماراً لا عِلْمَ لَهُمْ بالحَرْبِ فأَصَبْتَ فيهِمْ فُرْصَةً ، إنّكَ واللهِ لَوْ قاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنّا نَحْنُ النّاسُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ .

والمَعْنى : قلْ يا مُحمَّدُ لِهؤلاءِ اليَهودِ وأَمْثالِهِمْ مِنَ المُشْرِكينَ الّذينَ يُدْلُّونَ بِقُوَّتِهِمْ ، ويَغْتَرّونَ بِأَمْوالِهِمْ وأَوْلادِهِم ، قُلْ لَهُمْ سَتُغْلَبونَ وتُهْزَمونَ في الدُّنْيا عَلى أَيْدي المُؤْمِنينَ ، وتُحْشَرونَ يَوْمَ القِيامةِ ، ثُمَّ تُساقونَ إلى نارِ جَهنَّمَ لِتَلْقَوْا فيها مَصيرَكُمْ المُؤْلِمَ ، وبِئْسَ المِهادُ ، أيْ : بِئْسَ المكانُ الّذي هَيئُوهُ لأَنْفُسِهِمْ في الآخِرَةِ بِسَبَبِ سوءِ فِعْلِهِمْ . وقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ أَنْ يَتَولّى الرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، وأنْ يُواجِهَهُمْ بِهذا الخِطابِ المشتملِ عَلى التهديدِ والوعيدِ ، لأَنَّهُم كانوا يَتَفاخَرونَ عليهِ بأموالِهِمْ وقُوَّتِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُؤْمِنينَ أنْ يُكثِروا مِنَ التَّضرُّعِ إلى اللهِ سُبْحانَهُ وسُؤالِهِ أَنْ يُثبِّتَ قُلوبَهُمْ عَلى الإيمانِ .

٢ـ كانَ الرَّسولُ يُكْثِرُ مِنْ دُعائِهِ : ثَبِّتْ قُلوبَنا عَلى دينِكَ .

٣ـ لَنْ تَنْفَعَ الكافِرينَ أَمْوالُهُمْ وأَوْلادُهُمْ يَوْمَ القِيامةِ .

٤ـ النَّصْرُ سَيَكونُ للنَّبيِّ ولأَصْحابِهِ ، وأنَّ الدّائِرةَ سَتدورُ عَلى الجاحِدينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ فسِّرْ مَعْنى : تُزِغْ ، الميعادَ ، المهادُ .

٢ـ فَسّرَ العُلَماءُ الدَّعَواتِ في آخِرِ الآيَتَيْنِ : الثّامنةِ والتّاسعةِ تَفْسيرَيْنِ ، هاتِ ما ذَهبوا إليهِ .

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ .

٤ـ بِمَ شَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الكافِرينَ في قَوْلِهِ : ﴿وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ ؟

٥ـ لِمَ خصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى آلَ فِرْعونَ بالذِّكْرِ في الآيةِ الكَريمةِ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ؟

٦ـ لِمَنْ يَكونُ الخِطابُ المُوجَّهُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ مِنْ سورةِ التَّحْريمِ الّتي تُشيرُ إلى وَقودِ النّارِ .

٢ـ عُدْ إلى أَحَدِ كُتُبِ أَسْبابِ النُّزولِ ، وهاتِ روايةً أُخْرى عَنْ سَبَبِ نُزولِ الآيةِ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ .

٣ـ عُدْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ واسْتَخْرِجْ مَعْنى لَفظةِ « أغْمارٍ » الواردةِ في سَبَبِ النُّزولِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

آيةٌ : علامةٌ ودَليلٌ .

الشَّهواتِ : رَغَباتِ النَّفْسِ في الحُصولِ على الشّيءِ .

الأَنْعامِ : واحِدُها نَعَمٌ ، وهِيَ الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ .

الخَيْلِ المُسَوَّمةِ : الخَيْلِ المُعلَّمةِ ، وهي الأَصيلةُ .

الحَرْثِ : الزَّرْعِ والنَّباتِ .

أؤُنَبِّئُكُمْ : أأُخْبِرُكُمْ .



﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

تُحَذِّرُ الآياتُ الكَريمَةُ أُولئِكَ اليَهودَ الّذينَ تَحدَّثَتْ عَنْهُمْ مِنْ قَبْلُ ، أو الكافِرينَ عَلى العُمومِ بِألاّ يَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ فَيقولُ سُبْحانَهُ لِنَبيِّهِ ﷺ : قُلْ لأُولئِكَ اليَهودِ الّذينَ غَرَّتْهُمْ أَمْوالُهُمْ ، واغْتَرّوا بِأَوْلادِهِمْ وأَنْصارِهِمْ ، لا تَغُرَّنَّكُمُ الكَثْرَةُ ، ولا المالُ والوَلَدُ ، فَلَيْسَ هذا هُوَ طَريقُ النَّصْرِ وَوَسيلَتُهُ ، وما يَجْري في الكَوْنِ أَعْظَمُ دَليلٍ عَلى ذَلِكَ ، وانْظُروا إلى الفِئَتَيْنِ اللّتَيْنِ التَقَتا يَوْمَ بَدْرٍ ، حَيْثُ كانَتْ فِئَةُ المُؤْمِنينَ قَليلَةً ، ولكِنَّها كانَتْ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ ، فَكَتَبَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى النَّصْرَ والغَلَبَةَ عَلى الفِئَةِ المُشْرِكَةِ ، مَعَ أَنَّ عَدَدَهُمْ كانَ أَضْعافَ أضْعافِ المُؤْمِنينَ ، وفي هذا عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ ، إذْ إنَّ هُناكَ قُوَّةً فَوْقَ جَميعِ القُوى البَشَرِيَّةِ ، تُؤَيِّدُ الفِئَةَ المُؤْمِنَةَ عَلى قِلَّتِها ، مادامَتْ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ ، لِحِمايَةِ الحَقِّ والدِّفاعِ عَنِ الدِّينِ والأَهْلِ .

وقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ يَعْني : إنَّ المُشْرِكينَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ ضِعْفَي المُسْلِمينَ لِيَسْتَهينوا ، والمُسْلِمونَ يَرَوْنَ المُشْرِكينَ ضِعْفَيْهِمْ لِيَشْحَذوا عَزْمَهُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، إلاّ أَنَّهُمْ كانوا يَرَوْنَ المُسْلِمينَ ضِعْفَي عَدَدِهِمْ ، وهذا ما أَرادَهُ سُبْحانَهُ لِيَسْتَرْخِيَ المُشْرِكونَ في قِتالِ المُسْلِمينَ ، وأَيَّدَ اللهُ تَعالى المُسْلِمينَ بِالملائِكَةِ يُقاتِلونَ مَعَهُمْ .

﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ وهذا تَأْكيدٌ لِما سَبَقَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُقَوّي بِمَعونَتِهِ مَنْ يَشاءُ ، كَما أَيَّدَ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وفي كُلِّ ذَلِكَ عِبْرَةٌ وعِظَةٌ لِمَنْ عَقَلَ وتَدَبَّرَ .

إنَّ أُولي الأَبْصارِ هُمُ الّذينَ اسْتَعْمَلوا عُقولَهُمْ فيما هُوَ خَيْرٌ ، أَمّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الظّالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ ، وَمِنْ هُنا جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ تِلْكَ المُغْرياتِ الّتي أَنْعَمَ بِها سُبْحانَهُ عَلى النّاسِ ، ولكِنَّ صاحِبَ العَقْلِ وُجْهَتُهُ نَحْوَ الخَيْرِ ، أَمّا غَيْرُهُ فَقَدْ تَكونُ وُجْهَتُهُ نَحْوَ الشَّرِّ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الزِّينَةُ هِيَ تَحْسينُ الشَّيْءِ ، وهَذِهِ الزِّينَةُ قَدْ تَكونُ تامَّةً حَقيقِيَّةً وذَلِكَ كالإيمانِ والعِلْمِ والأَخْلاقِ الحَميدَةِ ، وقَدْ تَكونُ زينَةً ناقِصَةً إذا ظَهَرَ فيها جانِبُ الخَيْرِ ، وذَلِكَ مِثْلُ

المالِ ، والأَثاثِ والثِّيابِ وغيْرِها ، وهذِهِ الزِّينةُ تَرْجِعُ كُلُّها إلى أُصولٍ ثلاثةٍ :

١ـ زينةٍ نفْسيةٍ : كالعِلْمِ والإيمانِ والأَخْلاقِ .

٢ـ زينةٍ بَدنيَّةٍ : كالقُوَّةِ والطّولِ والجَمالِ .

٣ـ زينةٍ خارجيَّةٍ : كالجاهِ والمالِ .

والقِسْمانِ : الثّاني والثّالثُ ، قَدْ يَغْلبُ فيهما جانِبُ الخَيْرِ ، إذا كانا سَبَباً لِشُكْرِ اللهِ ، وقَدْ يَكونانِ شَرّاً وَوبالاً إذا كانا سَبَباً للطُّغيانِ ، ومِنْ هُنا جاءَ الفعلُ (زُيِّنَ) مبنياً للمَجْهولِ ، لأَنَّ المُزَيِّنَ قَدْ يكونُ هُوَ اللهُ تَعالى ، وذَلِكَ إذا تَمتَّعَ الإنْسانُ بهذِهِ المُشْتَهياتِ في دائِرَةِ المُباحِ الّذي أحلَّهُ اللهُ ، وقَدْ يكونُ المُزَيِّنُ هَوَ الشَّيْطانْ ، وذَلِكَ إذا خَرَجَ الإنْسانُ عَنِ الطّريقِ الصَّحيحِ ولمْ يُبالِ بالحَلالِ والحَرام .

أمّا الشَّهواتُ ، فَهِيَ الّتي تُوجِّهُ النَّفْسَ الإنْسانيّةَ ، وهَذِهِ الشَّهْوَةُ قَدْ تَكونُ أمْراً لابُدَّ مِنهُ ؛ كالطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِها ، وقدْ لا تكونُ أمْراً ضروريّاً حينَما تَسْتَقيمُ الحياةُ بدونِها ، واللهُ سُبْحانَهُ أودعَ في الإنْسانِ الشَّهواتِ ، ولَكنَّهُ أرْسَلَ إليهِ الرُّسُلَ ، ليُحذِّروهُ حتّى لا تَطْغَى هَذِهِ الشَّهْوةُ فَيَنْجَرِفَ وَيَنْزَلِقَ ، وَقَدْ ذَكَرتِ الآيةُ مِنَ الشهواتِ الّتي زُيِنَتْ للنّاسِ :

الزِّينَةُ الأُولى : النِّساءُ ، وهَذِهِ تَشْمَلُ النِّساءَ والرِّجالَ ، وحُبَّ الشَّهْوَةِ مِنَ النِّساءِ ، وحُبَّها مِنَ الرِّجالِ ، ولَكنَّ القُرْآنَ مبنيٌّ عَلى الإيجازِ ، فاكْتَفى بِذِكْرِ جانِبِ الرَّجُلِ الّذي يُحِبُّ الشَّهَواتِ أكْثَرَ مِنَ النِّساءِ .

لَقَدْ بَدأتِ الآيةُ بِهذِهِ الشَّهْوَةِ ، لأنَّ هذِهِ الشَّهْوةَ تَشتَرِكُ فيها الغَريزةُ والعاطِفَةُ عَلى حدٍّ سواءٍ ، وقدَ ذَكَرَ لنا النَّبيُّ ﷺ أنَّه لَيْسَ هُناكَ فِتنةٌ أَشَدَّ عَلى الرِّجالِ مِنْ فتنةِ النِّساءِ ، وأنَّ أوَّلَ فِتْنةِ بَنى إسْرائيلَ كانَتْ في النِّساءِ[1] .

وهذِهِ الزِّينةُ قَدْ تَجُرُّ صاحِبَها وتَحْمِلُهُ عَلى فِعْلِ شيءٍ ممّا يلي أوْ جَميعِهِ :

١ـ الفاحشةِ .

٢ـ قَطيعةِ الرَّحِمِ .

٣ـ عَدمِ تحرّي الحَلالِ في الرِّزقِ .

٤ـ تَرْكِ الواجباتِ .

وَلِذا حذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ أنْ يَنْساقَ الرِّجالُ في طاعةِ النِّساءِ فَتُزيِّنَ لَهُمُ الشَّهواتِ فَيَعُقَّ أبَاهُ ويَعُقَّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب : الذكر ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، حديث رقم ٢٧٤١ وحديث رقم ٢٧٤٢ .

أُمَّهُ . وَهَذِهِ الزِّينةُ لِها جانِبٌ خَيِّرٌ ؛ فَيكونُ في هَذِهِ الشَّهْوةِ عِفَّةُ فَرْجٍ وغَضُّ بَصَرٍ وطَهارةُ لِسانٍ ونَظافةُ قَلْبٍ .

الزِّينَةُ الثّانِيةُ : البنونَ ، وهذِهِ زينةٌ طَبيعيَّةٌ فُطِرَ الإنْسانُ عَلى حُبِّها والمَيْلِ إليْها ، لأَنَّ الإنْسانَ يَجِدُ في البَنينَ امْتدادَ أَثَرِهِ ، وهَؤلاءِ الأَوْلادُ قَدْ يكونونَ سَبَباً في ارْتِكابِ المُحرَّمِ وتَرْكِ الواجِبِ ، حَيْثُ يَحولونَ بَيْنَ الأَبِ والجِهادِ ، ويَمْنَعونَهُ مِنْ قَوْلِ الحَقِّ ، ويَجْمَعُ لَهُمُ المالَ الحرامَ ، ويَشْغَلونَهُ في دُنياهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، وقَدْ يَكونونَ سَبَباً لِلْخَيْرِ ، فَهُمُ في الدُّنيا أداةُ شُكْرٍ وبِرٍّ ، حَيْثُ يَبِرّونَ آباءَهُمْ ، ويَجِدُ الأَبُ فيهِمْ نِعْمَةً يَشْكُرُ اللهَ عَلَيْها ، وهُمْ في الآخِرَةِ مَصْدرُ إكْرامٍ لآبائِهِمْ ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وعَمِلَ بِما فيهِ أَلْبَسَ والِداهُ تاجاً يَوْمَ القِيامَةِ[1] .

الزِّينَةُ الثّالِثَةُ : القناطيرُ المُقَنْطَرةُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، ونَحْنُ إذا اسْتَخْدَمْنا المالَ فيما هُوَ حَلالٌ ، فَنَصِلُ بِهِ رَحِمَنا ، ونُنَفِّسُ عَنْ صاحِبِ كُرْبَةٍ ، بارَكَ اللهُ لَنا فيهِ ، ورتَّبَ عَلى ذَلِكَ الأَجْرَ والثَّوابَ الحَسَنَ ، ولَكِنْ إذا كُنِزَ هَذا المالُ ولَمْ تُؤَدَّ زَكاتُهُ ، واسْتُخْدِمَ في طَريقِ حَرامٍ كانَ وَبالاً عَلى صاحِبِهِ .

الزِّينَةُ الرّابِعَةُ : الخَيْلُ المُسوَّمَةُ ، فَهِيَ مُحَبَّبَةٌ طَيِّبَةٌ إذا كانَتْ غايَتُها إعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ والجِهادَ في سَبيلِهِ ، أمّا إذا كانَتْ غايَتُها الفَخْرَ الكاذِبَ ، والاخْتِيالَ عَلى الخَلْقِ ، والبَغْيَ في الأَرْضِ ، فَتِلْكَ زينةٌ فاسِدَةٌ .

الزِّينَةُ الخامِسَةُ : الأنعامُ والحَرْثُ ، والأَنْعامُ هِيَ المَواشي ، وتُطْلَقُ عَلى الإبِلِ والغَنَمِ والبَقَرِ ، والحَرْثُ تُطْلَقُ عَلى الزَّرْعِ والنَّباتِ والثِّمارِ ، وهذِهِ إنْ أُدِّيَ حَقُّ اللهِ فيها ، وكانَتْ وَسيلةً مِنْ وسائِلِ الشُّكْرِ كانَتْ مِنَ الزِّينةِ الطَّيِّبةِ ، وإنْ شَغَلَتْ صاحِبَها عَنْ حُقوقِ اللهِ تَعالى كانَتْ عَلى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ .

ويقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فمتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ ، لَوَ أُعْطِيَ الإنْسانُ الدُّنْيا كُلَّها ، فَكَيْفَ بِهِ إذا لَمْ يَأْخُذْ منها إلاّ قَليلاً ، واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ ، أي : حُسْنُ المَرْجِعِ في الحياةِ الآخِرَةِ الَّتي تَكونُ بَعْدَ مَوْتِ النّاسِ ، وبَعْثِهِمْ فلا يَنْبَغي أنْ يَجْعَلوا كُلَّ هَمِّهِمْ في هذا المتاعِ القريبِ العاجِلِ ، بِحَيْثُ يَشْغَلُهُمْ عَنِ الاسْتِعْدادِ لِما هُوَ خَيْرٌ .

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ثُمَّ جاءتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ وتُفَصِّلَ ما أُجْمِلَ هُنا ، وبَدأَتْ بالاسْتِفهامِ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب : في ثواب قراءة القرآن .

أيْ : بِخَيْرٍ مِنْ تِلْكَ الشَّهواتِ ، وهذا دَليلٌ على أنَّ هذهِ خَيْرٌ في ذاتِها ، وجَوابُ الاسْتِفْهام : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فَقَدْ أعَدَّ اللهُ سُبْحانَهُ للمُتَّقينَ جَزاءً على تَقْواهُمْ :

١ـ الجَزاءُ الماديُّ : وهُوَ الجَنّاتُ وَما فيها مِنْ خَيْراتٍ كالأَزْواجِ المُطَهَّرَةِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ ورِجْسٍ .

٢ـ الجَزاءُ المَعْنَويُّ : رِضوانُ اللهِ تَعالى .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادّعى التَّقوى كانَ تَقِيّاً ، فالمُتَّقي مَنْ عَلِمَ اللهُ ذلِكَ مِنْهُ ، فَكانَ باطِنُهُ طاهِراً ، وظاهِرُهُ طاهِراً ، وفي هذا تَنبيهٌ للنّاسِ لِمُحاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْصُرَ عِبادَهُ المُتَّقينَ ، الّذينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ ، ولَوْ كانوا قِلَّةً وعَدوُّهُمْ كَبيرُ العَدَدِ .

٢ـ فَطَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى البَشَرَ عَلى حُبِّ الشَّهواتِ وزَيَّنَها في نُفوسِهِمْ .

٣ـ المُؤْمِنُ المتَّقي هُوَ الّذي لا تَفْتِنْهُ الشَّهواتُ ، ولا يَجْعلُها أكْبَرَ هَمّهِ ، والشّاغِلَ لَهُ عَنْ آخِرَتِهِ .

٤ـ عِلْمُ اللهِ تَعالى بالمُتَّقينَ ، يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلى مُحاسَبَةِ نَفْسِهِ ، دائِماً ، ورَدِّها عَنِ الضّلالِ إلى الحَقِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ الفِئَتانِ اللَّتانِ ذَكَرَتْهُما الآيةُ وضُرِبَ بِهِما المَثَلُ ؟

٢ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ ؟

٣ـ عَرِّفِ الزّينةَ ، مُبيِّناً الجوانبَ الّتي تَظْهَرُ فيها ، والأُصولَ الّتي تَرْجِعُ إليْها .

٤ـ لِماذا جاءَ الفِعْلُ « زُيِّنَ » مَبْنِيّاً لِلْمَجْهولِ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَتِ النِّساءُ مِنَ المُزَيَّناتِ ؟ وما مَظاهِرُ هذهِ الزّينةِ ؟

٦ـ الأَولادُ قَدْ يكونونَ سَبَباً في ارْتكابِ المُحرَّم ، وضّحْ ذلِكَ .

٧ـ هاتِ ما يَدُلُّ عَليْهِ قوْلُهُ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ .

٨ـ ما الجزاءُ الّذي أعدَّهُ اللهُ تعالى للمُتَّقينَ ؟

٩ـ اذْكُرِ الشَّهواتِ الّتي تَميلُ لَها النُّفوسُ ، مُرَتَّبَةً حَسَبَ وُرودِها في الآيةِ الكَريمةِ .

نَشاطٌ :

١ـ كَمْ كانَ عَدَدُ المُؤْمنينَ وعَدَدُ المُشْركينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هُناكَ سورةٌ قُرْآنيَةٌ تَحدَّثَتْ عَنْ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، أيُّ سورَةٍ تِلْكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الفَجْرِ الدَّالّةَ عَلى حُبِّ المالِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الرَّابعُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الرّابعُ

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

القانِتينَ : المُداوِمينَ عَلى طاعةِ اللهِ في طُمَأْنينةٍ وخُشوعٍ .

بالأَسْحارِ : في أواخِرِ اللَّيلِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ .

قائِماً بالقِسْطِ : مُقيماً لِلعَدْلِ .

الإسْلامُ : الإقْرارُ بالتَّوْحيدِ مَعَ التَّصْديقِ والعَمَلِ بِشَريعَتِهِ تَعالى .

بَغْياً : تَجاوُزاً لِلْحَدِّ .

التَّفسيرُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السّابقَةُ أَنَّ المُتَّقينَ لَهُمْ جَزاءٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وجاءتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ شَأْناً مِنْ شُؤونِ هؤلاءِ المُتَّقينَ ، فَهُمْ لِتَأَثُّرِ قُلوبِهِمْ بِتِلْكَ التَّقوى ، تَعْتَرِفُ أَلْسِنَتُهُمْ بهذا الإيمانِ باللهِ تَعالى ، فَجاءتِ الجُمْلَةُ اسْتِئْنافاً بَيانِيّاً ، أَيْ : إجابَةً عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في ذِهْنِ السّامِعِ ، فَكأَنَّ سائِلاً سَأَلَ : مَنْ هُمْ أُولئِكَ المُتَّقونَ الّذينَ لَهُمْ هَذا الجَزاءُ الحَسَنُ ؟ فَقيلَ : هُمُ الّذينَ يَقولونَ :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ ثُمَّ طَلَبوا المَغْفِرَةَ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ أَقَرّوا أَوّلاً بالإيمانِ ، ثُمَّ طَلَبوا المَغْفِرَةَ ، وهِيَ سِتْرُ ذُنوبِهِمْ وتَخْليصُهُمْ مِنْها ، وأنْ يَقيَهُمْ عَذابَ النّارِ .

﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ثُمَّ وَصَفَتِ الآياتُ هَؤلاءِ المُتَّقينَ بِخَمْسِ صِفاتٍ ؛ لابُدَّ أنْ يَتَحصَّنَ بِها المُسْلِمُ وَيَتَسلَّحَ ، لِتَمْنَحَهُ القُدْرَةَ والقُوَّةَ ، وتَمْنَعَهُ مِنْ أنْ يَضْعُفَ أمامَ المُزيَّناتِ الّتي ذَكَرَتْها الآيَةُ السّابِقَةُ ، وهَذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ « الصّابِرينَ » : وقَدْ بَدَأَتْ بِهذِهِ الصِّفةِ ، لأنَّ مُقاوِمَةَ ما لا يَحِلُّ مِنَ المُزيَّناتِ المَذْكورةِ سابِقاً لا بُدَّ لَهُ أوّلاً وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الصَّبْرِ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ مَثَلاً أنْ تُقاوَمَ شَهْوةٌ مِنْ هذهِ الشَّهواتِ إذا لَمْ يَكُنِ المُسْلِمُ مَتَحَصِّناً بالصَّبْرِ ؟ ، لِذا وَجَدْنا الآيَةَ هُنا تَبْدأُ بِهذِهِ الصِّفَةِ ، والصَّبْرُ : حَبْسُ النَّفْسِ عَلى ما يَقْتَضيهِ الشَّرْعُ ، فَهُوَ أَصْلٌ لِفَضائِلَ كَثيرةٍ ، ولِعِظَمِ الصَّبْرِ لم يَخصَّهُ اللهُ بِجزاءٍ مُقَدَّرٍ ، وإنّما جَعَلَ أجْرَهُ لا يُحصى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

٢ـ « الصّادِقينَ » : إنَّ صِفَةَ الإيمانِ لابُدَّ لَها مِنْ صِدْقٍ ، فَكثيرونَ هُمْ أُولئكَ الّذينَ يَدّعونَ الزُّهْدَ والعِفَّةَ والتَّواضُعَ والقَناعةَ ، ومَعَ ذَلِكَ لا يَكونونَ صادِقينَ . والصِّدقُ لَيْسَ صِدْقَ الحديثِ فَحَسْبُ ، إنّما الصِّدْقُ أنْ تَصْدُقَ مَعَ نَفْسِكَ ومَعَ النّاسِ بَعْدَ أنْ تَصْدُقَ مَعَ اللهِ تَعالى . الصِّدْقُ هُوَ أنْ يَكونَ ظاهِرُكَ وباطِنُكَ سواءً ، كُلٌّ مِنْهُما يُصَدِّقُ الآخَرَ . وقَدْ يَتَنوَّعُ الصِّدْقُ فَيَكونُ في القَوْلِ والعَمَلِ والمَشاعِرِ . والصِّدِّيقُ : هُوَ الّذي يَتَحرَّى الصِّدْقَ في كُلِّ شَيْءٍ ، في قَوْلِهِ وعَمَلِهِ ، ونِيَّتِهِ وظَنِّهِ ، فَلا يَكْذِبُ ولا يُرائي ولا يَفْخَرُ بما يَعْمَلُ ، ولا يُسيءُ الظَّنَ بالآخَرينَ .

٣ـ « القانِتينَ » : القُنوتُ هُوَ الطّاعَةُ والخُضوعُ للهِ تَعالى ، ولَهُ أثَرٌ كَبيرٌ ووظيفةٌ عَظيمةٌ في مُحارَبةِ المُزيَّناتِ وعَدَمِ الاغْتِرارِ بِها ، ذَلِكَ لأنَّ الصَّبْرَ حَبْسُ النَّفْسِ ، فَهُوَ في الحَقيقةِ قَهْرٌ لِهذِهِ النَّفْسِ وحَمْلُها عَلى تَحمُّلِ ما تَكْرَهُ ، وأمّا الصِّدْقُ ، فَفيهِ حمْلُ النَّفسِ عَلى أنْ تَكونَ صادِقَةً مَعَ واقِعِها ، وأمّا القُنوتُ فَهُوَ يَشْغَلُ الإنْسانَ ، ويملأُ عَلَيْهِ تَفْكيرَهُ ، فإذا هَيْمَنَتْ صِفَةُ القُنوتِ عَلى صاحِبِها ، وَبَدأَ يَتَذوَّقُ حَلاوةَ العِبادةِ والطّاعةِ ، كانَ ذَلِكَ خَيْرَ عَوْنٍ لَهُ عَلى طَرْحِ كلِّ ما تَعَلَّقَتْ بِهِ النَّفْسُ مِنْ حُبِّ الشَّهواتِ .

٤ـ « المنْفِقينَ » : الإنْفاقُ مِنْ أبْرَزِ الصِّفاتِ الّتي تُمْتَحَنُ بِها النُّفوسُ ، ويُخْتَبَرُ بِها النّاسُ ، وقَدْ جاءَتْ هذِهِ الصِّفَةُ في المَرْتَبةِ الرّابِعةِ ، ذَلِكَ أنَّ الصِّفاتِ الثّلاثَ الأُولى لَيْسَتْ لِفئةٍ دونَ فِئةٍ مِنَ النّاسِ ، أمّا الإنْفاقُ ، فإنَّما هوَ للقادِرينَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إنَّ حُبَّ الشَّهواتِ قَدْ يَحْمِلُ كَثيراً مِنَ النّاسِ عَلى إنْفاقِ المالِ دونَ حِسابٍ ، فَجاءَتْ صِفَةُ الإنْفاقِ ، ومِنْ ذَلِكَ أنَّ الإنْفاقَ قَدْ يَكونُ رياءً إذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ المُنْفِقِ صَبْرٌ وصِدْقٌ وقُنوتٌ .

الإنْفاقُ إذا كانَ ناشِئاً عَنْ صِدْقٍ وعِبادَةٍ ، فإنَّهُ يُعينُ عَلى انْتِزاعِ حُبِّ الدّنْيا مِنْ قِبَلِ المُنْفِقِ ، لِيَطْمَعَ فيما عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وبِذلِكَ تَخِفُّ حِدَّةُ الشَّهْوَةِ في نَفْسِهِ .

٥ـ « والمستغفِرينَ بالأسْحار » : جاءَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ في المَرْتَبَةِ الأَخيرةِ ، لأنّها كالسِّياجِ لِما تَقدَّمَها مِنْ صِفاتٍ ، والسَّحَرُ هُوَ آخِرُ اللَّيلِ ، وقَدْ أثْنى اللهُ سُبْحانَهُ عَلى المُتَّقينَ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ـ١٨] .

إنّ الاسْتِغْفارَ لَهُ فوائِدُهُ وهِيَ مَحْوُ الذُّنوبِ ، ولا شَكَّ في أنَّ في هذا جَلاءً لِلْقَلْبِ ، وتَفريجاً لِلْكَرْبِ ، وسِتْراً لِلْعَيْبِ .

وبَعْدَ أنْ تَحدَّثتِ الآياتُ عَمّا أعدَّهُ اللهُ للمُتَّقينَ ، بيَّنَتْ أساسَ هذِهِ التَّقوى ، وهُوَ عقيدةُ التَّوْحيدِ ، وبَيَّنَتْ أنَّ الإسلامَ هُوَ الدِّينُ الّذي ارْتَضاهُ اللهُ للنّاسِ .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

والمَعْنى : إنَّ اللهَ تَعالى أخْبَرَ عِبادَهُ وأعْلَمَهُمْ عَنْ طَريقِ الآياتِ القُرْآنيَّةِ والآياتِ الكَوْنيَّةِ ، وغَيْرِها مِنَ الأدلَّةِ الّتي تَشْهَدُ عَلى وَحْدانيَّتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وأنَّهُ المَعْبودُ بِحَقٍّ ، وهُوَ المُتَفَرِّدُ بالأُلوهيَّةِ ، وشَهِدَ بِذَلِكَ الملائِكَةُ بأنْ أقَرُّوا بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وأُولوا العِلْمِ اعْتَرَفوا لَهُ بالوَحْدانيَّةِ ، وصَدَّقوا بما جاءَهُمْ بِهِ الرَّسولُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ في أَفْعالِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُقيمٌ لِلْعَدْلِ في تَدْبيرِ أَمْرِ خَلْقِهِ وفي أَحْكامِهِ ، وفيما يُقيمُ بَيْنَهُمْ مِنَ الأَرْزاقِ والآجالِ ، وفيما يَأْمُرُ بِهِ ويَنْهى عَنْهُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ والعِزَّةُ إشارَةٌ إلى كَمالِ القُدْرَةِ ، والحِكْمَةُ إشارةٌ إلى كَمالِ العِلْمِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مطَّلِعٌ عَلى مَصالِحِ عبادِهِ وأحْوالِهِمْ ، لا يَغْلِبُهُ أحَدٌ على إقامَةِ العَدْلِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، ولا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنَ الخَلْقِ عَنْ حِكْمَتِهِ البالِغَةِ .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ الدُّسْتورَ الّذي يَقومُ عَلَيْهِ الدِّينُ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ إنَّ جَميعَ المِلَلِ والشَّرائِعِ الّتي جاءَ بِها الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ تَقومُ على الانْقِيادِ والخُضُوعِ للهِ تَعالى . والمُرادُ بالإسْلامِ هُنا : شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ ، والإقْرارُ بما جاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وهُوَ دينُ اللهِ الّذي شَرَعَهُ بِنَفْسِهِ ، وبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ ، ودَلَّ عليهِ أولياؤُهُ ، لا يَقْبَلُ غَيْرَهُ ، ولا يَجْزي بالإحْسانِ إلاّ بِهِ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ اخْتِلافَ أَهْلِ الكِتابِ في شَأْنِ الدِّينِ الحَقِّ ، لَمْ يَكُنْ عَنْ جَهْلٍ مِنْهُمْ

بالحَقائِقِ ، وإنَّما كانَ سَبَبُهُ البَغْيَ والحَسَدَ ، وطَلَبَ الدُّنْيا .

وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ بأنَّهُمْ أُوتوا الكِتابَ ، وقالَ : ﴿ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ وَهَذا فيهِ ما فيهِ مِنْ زِيادةِ التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ ، فالاخْتِلافُ بَعْدَ إتْيانِ الكِتابِ ومَجيءِ العِلْمِ ، فاحِشٌ قَبيحٌ ، إذِ الأَصْلُ أنْ يَحْمِلَهُمُ الكِتابُ والعَمَلُ عَلى الإيمانِ ولَيْسَ عَلى الاخْتِلافِ .

لَقَدْ جاءتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ (وفْدِ نَجْرانَ) وهُمْ مِنَ النَّصارَى الّذينَ جاءوا لِيُحاجّوا النَّبيَّ ﷺ في أُمورِ الدِّينِ .

إنَّ المُلوكَ والأَحْبارَ هُمُ الّذينَ جَعَلوا الدِّينَ المَسيحيَّ مَذاهِبَ شَتَّى يَتناقَضُ بَعْضُها مَعَ بَعْضِها الآخَرِ ، وجَعَلوا أهلَهُ شِيَعاً يَفْتِكُ بَعْضُهُمْ بِبَعضٍ .

وَخُتِمَتِ الآياتُ الكَريمةُ بالتَّهْديدِ والوَعيدِ لأُولئِك الّذينَ اخْتَلَفوا في أُمورِ الدِّينِ :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ مَنْ يَكْفُرْ بالآياتِ الدَّالَّةِ عَلى وَحْدانيّتِهِ وعَلى وُجوبِ الاعْتِصامِ بدينِهِ سُبْحانَهُ ، والتي تُحرِّمُ الاخْتِلافَ والتَّفرُّقَ ، فإنَّ اللهَ تَعالى مُحاسِبُهُ ومُعاقِبُهُ . وسُرْعَةُ الحِسابِ تَدُلُّ عَلى العِقابِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الاتِّصافُ بِالصِّفاتِ المُحبَّبَةِ إلى اللهِ تَعالى ، مِنْ صَبْرٍ وصِدْقٍ وقُنوتٍ وإنْفاقٍ واسْتِغفارٍ بالأَسْحارِ ، يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلى تَقوى اللهِ تَعالى وعَدَمِ الوُقوعِ فيما هُوَ حَرامٌ .

٢ـ عَدْلُ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى يَظْهَرُ في تَدبيرِ أَمْرِ خَلْقِهِ ، وفي أحْكامِهِ ، وفي تَدْبيرِ أمْرِ الرِّزْقِ والآجالِ .

٣ـ شَرَفُ العِلْمِ والعُلَماءِ ، ولِفَضْلِ العُلماءِ ومَكانَتِهِمْ رَفَعَ اللهُ مِنْ شَأْنِهِمْ وذَكَرَهُمْ مَعَ مَلائِكَتِهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .

٤ـ وُجوبُ الابْتِعادِ عَنِ الخِلافِ في الدِّينِ والتَّفرُّقِ فيهِ إلى شِيَعٍ ومَذاهِبَ ، حتّى لا تُصابَ الأُمَّةُ بالذُّلِّ والخِذْلانِ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المتّقونَ الّذينَ أعدَّ اللهُ لَهُمْ جزاءً حَسَناً ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِلْمُتَّقينَ ، اذْكُرْ هَذهِ الصِّفاتِ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ هذِهِ الصِّفاتِ هُنا وِفْقَ هذا التَّرْتيبِ ؟

٤ـ لِماذا ذُكِرَتْ صِفَةُ الصَّبْرِ أوّلاً ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بالصِّدْقِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ ؟ وَمَنْ هُوَ الصِّدِّيقُ ؟

٦ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ صِفَةِ القُنوتِ في مُقابِلِ المُزيِّناتِ الّتي ذُكِرَتْ سابِقاً ؟

٧ـ ما العَلاقَةُ بَيْنَ حُبِّ الشَّهواتِ والإنْفاقِ ؟

٨ـ بَيِّنْ فوائِدَ الاسْتِغْفارِ في الأَسْحارِ .

٩ـ ذَكَرتِ الآياتُ الدُّسْتورَ الّذي يَقومُ عَلَيْهِ الدِّينُ ، بَيِّنْ هذا الدُّسْتورَ .

١٠ـ عَمَّنْ تَحدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الصِّفَةَ المُضادَّةَ لِكُلٍّ مِنْ الصِّفاتِ الوارِدَةِ في الآيَةِ (١٧) مُبَيِّناً الصِّفَةَ وضِدَّها .

٢ـ تَفرَّقَ النَّصارى فِرَقاً كَثيرة ، سَمِّ أرْبَعَةَ فِرَقٍ مِنْهُم ، واكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الخامِسُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حاجُّوكَ : جادَلوكَ .

أَسْلَمْتُ : اسْتَسْلَمْتُ وخَضَعْتُ .

الأُمِّيِّينَ : مُشرِكي العَرَبِ ، واحدُهُمْ أُمِّيٌّ ، سُمُّوا كَذلِكَ لِجَهْلِهِمْ في الكِتابَةِ والقِراءَةِ .

فَبَشِّرْهُمْ : فَخَبِّرْهُم خَبَراً سارّاً .

حَبِطَتْ : بَطَلَتْ .

التَّفْسيرُ :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

تَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ أُولئِكَ الّذينَ اخْتَلَفوا في الكِتابِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمْ ، ويُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أيْ : إنْ جادَلَكَ أَهْلُ الكِتابِ وَمَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ

جِئْتَهُمْ بالحَقِّ المُبين ، وبَعْدَ أنْ قامَتِ الحُجَجُ والبَيِّناتُ والبَراهينُ عَلى ذَلِكَ الحَقِّ ، ودَمَغَتِ الباطِلَ بالآياتِ والدَّلائِلِ ، بَعْدَ هذا كُلِّهُ إنْ جادَلَكَ أهْلُ الكِتابِ ، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إنّي قَدْ أخْلَصْتُ عِبادَتي للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ ، وأطَعْتُهُ وخَضَعْتُ لَهُ سُبْحانَهُ ، وكَذلِكَ مَنِ اتَّبَعَني مِنَ المُؤْمِنينَ أَخْلَصوا للهِ عِبادَتَهُمْ .

وأَهْلُ الكِتابِ هُمُ اليَهودُ والنَّصارى ، والأُميّونَ هُمُ العَرَبُ الذينَ سُمّوا كَذلِكَ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بالكِتابَةِ والقِراءَةِ ، وَقَدْ خَصَّهَمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّ الآيَةَ عامَّةٌ ، وذَلِكَ أنَّهُمْ هُمُ الّذينَ خاطَبَهُمْ الرَّسولُ ﷺ بالدَّعْوَةِ مُباشَرَةً .

يَقولُ سُبْحانَهُ : قُلْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاءِ ﴿أَأَسْلَمْتُم﴾ والهَمْزَةُ للاسْتِفْهام ، وقَدْ جاءَ تَقْريعاً وتَوْبيخاً لأُولَئِكَ المُعْرِضينَ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى . والمَقْصودُ بالإسْلام : الخُضوعُ التّامُّ للهِ تَعالى ، والانْقيادُ لَهُ فيما يَأْمُرُ ويَنْهَى عَنْهُ ﴿فإنْ أَسْلَمُوا﴾ وُجوهَهُم للهِ تَعالى ، وصَدَّقوا بالحَقِّ ، وكانَ إسْلامُهُمْ كإسْلامِ الرَسولِ ﷺ والمُؤْمنينَ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا إلى طَريقِ الحَقِّ ، ولَكِنَّهُمْ إنْ تَوَلَّوْا مُعْرِضينَ عَنِ الاعْتِرافِ بِصِحَّةِ ما جِئْتَ بِهِ يا مَحمَّدُ مِنَ الحَقِّ ، فإنَّ إعْراضَهُمْ هذا لَنْ يَضُرَّكَ ـ أيُّها الرَّسولُ ـ لأَنَّ كُلَّ الّذي عَلَيْكَ هُوَ تَبْليغُ هذِهِ الدَّعْوةِ للنّاسِ ، ولَسْتَ مُحاسَباً عَلى عَدَمِ إيمانِهِمْ .

وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ قَصْرٌ ، فَقَدْ قَصَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ عَلى تَبْليغَ الدَّعْوةِ ، أمّا الحِسابُ فَهُوَ عَلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ ، أَعْلَمُ بِمَنْ طَمَسَ عَلى قَلْبِهِ فَكانَ في شَقاءٍ دامِسٍ ، وأَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى فوَفَّقَهُ اللهُ تَعالى إلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ أنَّ الإسْلامَ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ الّذي ارْتَضاهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعبادِهِ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، ولَكِنَّ كَثيراً مِنَ النّاسِ بَدّلوا وَحَرَّفوا وأَعْرَضوا عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ، ومِنْ هَؤلاءِ أَهْلُ الكِتابِ الّذينَ كَفَروا بآياتِ اللهِ تَعالى ، قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ هَؤلاءِ الكافِرينَ ومِنْهُمْ اليَهودَ ، بِحَيْثُ لَوْ فَكَّرَ فيها كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ لَنَفَرَ مِنْهُمْ ، واتَّجَهَ إلى طَريقِ الحَقِّ ، وهذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ يَكفُرونَ بآياتِ اللهِ : هَؤلاءِ يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ تَعالى الّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ تَعالى ، واليَهودُ مِنْ عَهْدِ موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، حَتّى عَهْدِ محمَّدٍ ﷺ اعْتادوا عَلى الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تَعالى الواضِحَةِ البَيِّنَةِ ، ولا أَدَلَّ عَلى ذَلِكَ مِنْ عِبادَتِهِمُ العِجْلَ بَعْدَ أنْ نَجّاهُمُ اللهُ مِنْ فِرْعَونَ وقَوْمِهِ .

٢ـ وَيقتُلونَ النَّبيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ : وَقَتْلُ الأنبياءِ فيه ما فيهِ مِنَ البَشاعَةِ ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أيُّ عُذْرٍ في قَتْلِهِمْ ، فَهذا القَتْلُ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ بحقٍّ أبداً ، وقَدْ عَبَّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ (يَكْفُرونَ) ، (يَقتُلونَ) لِيَدُلَّ عَلى الاسْتِمرارِ والتَّجدُّدِ ، فَهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلى هذا الفِعْلِ .

٣ـ ويَقتُلونَ الّذينَ يَأْمُرونَ بالقِسْطِ مِنَ النّاسِ : إنَّهُمْ لا يَكْتَفونَ بِقَتْلِ الأَنْبياءِ الّذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعالى لِهدايَتِهِمْ وإسْعادِهِمْ ، لكِنَّهُمْ يَقْتُلونَ كَذلِكَ الحُكَماءَ والمُصْلِحينَ والدُّعاة إلى اللهِ الّذينَ يُرْشِدونَهُمْ إلى العَدالةِ في كُلِّ شَيْءٍ ، هذهِ بَعْضُ أفْعالِهِمْ وجَرائِمِهِمْ ، فَما هِيَ نَتيجَةُ هذهِ الجرائِمِ ؟

يَقولُ تَعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إنّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُخبرُهُمْ بِمَصيرِهِمْ اسْتِهْزاءً بِهِمْ بِأَنَّ بِشارَتَهُمْ هِيَ العَذابُ الأَليمُ ، فَهُمْ قَدْ كانوا في الدُّنْيا يَدَّعونَ أنَّهُمْ أَبناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ ، فَأَخْبَرَهُمْ سُبْحانَهُ بِهذِهِ النَّتيجَةِ .

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ قَدْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُم ، فَلا يَنْتَفِعونَ بِشَيْءٍ مِنْها ، لأنَّ العَمَلَ الصّالِحَ ، يَنْفَعُ مَنْ كانَتْ نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةً بالإيمانِ ، أمّا هَؤلاءِ فإنَّ نُفوسَهُمْ قَدْ أَوْغَلَ فيها الفَسادُ ، وَقَسَتْ قُلوبُهُمْ ، فَهُمْ مَهْما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ يَرَوْنَهُ صالِحاً ، فإنَّهُ لَنْ يَنْفَعَهُمْ يَوْمَ القِيامةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، ولِذا لَنْ يَجِدوا لَهُمْ ناصِراً يَنْصُرُهُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى لا في الدُّنْيا ولا في الآخِرَةِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأَفْعالِهِمُ القَبيحَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ لَيْسَ مُجرّدَ حَرَكاتٍ نَقومُ بها ، أوْ مُجرّدَ كَلِمَةٍ نَتَفوّهُ بِها ، ولَكِنَّ الإسْلامَ خُضوعٌ واسْتِسْلامٌ للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى في كُلِّ ما يَأْمُرُ بِهِ وتركٌ لما نَهى عنهُ .

٢ـ وَظيفَةُ الرَّسولِ هِيَ التَّبْليغُ فَقط ، فَهُوَ لَيْسَ مُسَيْطِراً عَلى النّاسِ ، ولا جَبّاراً ولا مُكْرِهاً لَهُمْ عَلى الدُّخولِ في الإسْلامِ .

٣ـ أَحَقُّ النّاسِ بالعَذابِ الأَليمِ الّذينَ طَغَوْا وأسْرَفوا في الشَّرِ ، وبَعُدوا عَنِ الحَقِّ ، وحارَبوا كلَّ مَنْ يَدعو إلى دينِ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ الكَلِماتِ التّاليةِ :

حاجُّوكَ ، الأُميِّينَ ، حَبطَتْ أعْمالُهُمْ .

٢ـ مَنِ الذينَ حاجّوا النَّبيَّ ﷺ ؟

٣ـ بِمَ أَمَرَ اللهُ تَعالى الرَّسولَ ﷺ أنْ يَرُدَّ عَليْهِمْ ؟

٤ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بالإسْلامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ ؟

٦ـ هَلْ يَضُرُّ النَّبيَّ ﷺ إعْراضُ الكافِرينَ عَنِ الحَقِّ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِلْيَهودِ تَنْفيراً مِنْهُم ، هاتِ هذِهِ الصِّفاتِ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

٨ـ بَيِّنِ النَّتيجَةَ الّتي أعَدَّها اللهُ تَعالى لِهؤلاءِ الكافِرينَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ عَلى عُمومِ بَعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ .

٢ـ اذْكُرِ اسْمَ نَبيٍّ قَتَلَهُ اليَهودُ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ السَّادِسُ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نصيباً : حظّاً .

الكِتابِ : التَّوراةِ .

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم : لِيَفْصِلَ بَيْنَهُمْ .

يَتولّى : يُعْرِضُ .

يَفْتَرونَ : يُكذِّبونَ .

كَسَبَتْ : عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ .

المُلْكِ : السُّلطةِ والتَّصرُّفِ في الأَمْرِ .

تُولِجُ : تُدْخِلُ .



لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بَعْضَ الأَوْصافِ الّتي اتَّصَفَ بِها أَهْلُ الكُفْرِ ومِنْهُمُ اليَهودُ ، وما زالتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ لِنَبِيِّه ﷺ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

سَبَبُ النّزولِ :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : دَخَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ المِدراسِ عَلى جَماعةٍ مِنَ اليَهودِ، أيْ : مَكانٌ يَتَدارسونَ فيهِ ـ فَدَعاهُمْ إلى اللهِ ، فَقالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : عَلى أيِّ دينٍ أَنْتَ يا مُحَمَّدُ ؟ فَقالَ : إنّي عَلى مِلَّةِ إبْراهيمَ ودينِهِ ، قالوا : فإنَّ إبْراهيمَ كانَ يَهودِيّاً ، فَقالَ النَّبِيُّ فَهَلُمّوا إلى التَّوراةِ فَهِيَ بيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، فأبَوْا عَليهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هذهِ الآياتِ .

فَهَذِهِ الآياتُ تُخْبِرُ عَنْ طائِفَةٍ مِنَ اليَهودِ المُعاصِرينَ للنَّبِيِّ أَنَّهُمْ دُعوا إلى التَّوْراةِ لِلتَّحاكُمِ إلَيْها في بَعْضِ ما تَنازَعوا فيهِ مَعَ رَسولِ اللهِ فَأَبَوْا ، ويَجوزُ أَنْ يكونَ هَذا التَّنازُعُ في أَمْرِ نُبوَّتِهِ ، أَوْ في أَمْرِ نُبوَّةِ إبْراهيمَ ودينِهِ ، أوْ في حدٍّ مِنَ الحُدودِ ، فإنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمّا نازَعوا فيهِ الرَّسولَ ﷺ .

بَدَأَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بهذا الاسْتِفهامِ الّذي يُفيدُ التَّعجُّبَ مِنْ شَأْنِ اليَهودِ ومِنْ سوءِ صُنْعِهِمْ . ومَعْنَى الآيَةِ : أَلَمْ تَرَ يا مُحَمَّدُ إلى هَؤلاءِ الّذينَ تَعْجَبُ لِعدمِ إيمانِهِمْ بِكَ ، إذْ إنَّهم يُعْرِضونَ عَنِ العَمَلِ بالكِتابِ الّذي أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ والّذي يُؤْمِنونَ بِه كما يَدَّعونَ لأَنَّهُ لا يُوافِقُ أَهْواءَهُمْ ، فإذا لَمْ يَعْمَلوا بما في كتابِهِمْ ، فَهُمْ لَنْ يَعْمَلوا كَذلِكَ بما أُنْزِلَ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ في القُرْآنِ الكَريمِ ، لأَنَّ شَأْنَهُمْ ودَأْبَهُمُ الإِعْراضُ عَنِ الحَقِّ والصّوابِ دائِماً .

إنَّ عِلْمَهُمْ بالكِتابِ كانَ أَنْ يَتَّبعوهُ ويَعْمَلوا بِأَحْكامِهِ ، ولَكِنَّهُمْ أبَوْا ذَلِكَ لِفَسادِ نُفوسِهِمْ . ويُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى الافْتِراءاتِ الّتي صَرَفَتْهُمْ عَنِ الحَقِّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أيْ : ذلكَ التولّي والإعْراضُ عَنِ الحَقِّ الّذي صَدَرَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ اليَهودِ سَبَبُهُ أَنَّهُمْ تَوَهَّموا أَنَّ العَذابَ لَنْ يَمسَّهُمْ طويلاً ، فَلَنْ يُعذَّبوا إلاّ أياماً مَعْدوداتٍ في نارِ جَهنَّمَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُخْرَجونَ مِنها لأَنَّهُم أبناءُ اللهِ وأحبّاؤُهُ ، ولأَنَّ آباءَهُمْ سَيَشْفَعونَ لَهُمْ في زَعْمِهِمْ .

﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ لَقَدْ حَدَّدوا المُدَّةَ الّتي سَيُعاقَبونَ فيها . وهذا مِنَ الافْتِراءِ الّذي يَنْشأُ عَنْ غُرورِهِمْ في دينِهِمْ ، فَقَدْ سَهَّلوا الأُمورَ على أَنْفُسِهِمْ ، ولَمْ يُبالوا بِالمعاصي والذُّنوبِ . والغُرورُ هُوَ أَكْبَرُ الشُّرورِ الّتي تُبْعِدُ الإِنْسانَ عَنْ دينِه .

ويُحدِّثُنا القُرْآنُ عَنْ حالِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

كَيْفَ يَكونُ حالُهُمْ إذا حَشَرَهُمُ اللهُ وجازاهُمْ بِما اكْتَسَبوهُ مِنْ أَعْمالِهِمُ القَبيحَةِ ؟ والاسْتِفْهامُ هُنا لاسْتِعْظامِ ما أُعِدَّ لَهُم ، وتَهويلِهِ ، فَهُمْ سَوْفَ يَقَعونَ فيما لا حيلَةَ لَهُمْ في دَفْعِهِ والخَلاصِ مِنْهُ .

لَقَدْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ مُنْكِرينَ لِنُبوَّةِ النَّبيِّ ، فَهُمْ يُنْكِرونَ أَنْ يَكونَ نَبيٌّ مِنْ غَيْرِ بَني إِسْرائيلَ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ تُسَلّي النَّبيَّ ﷺ ، وتُذَكِّرُهُ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى نُصْرَةِ وإعلاءِ كَلِمَتِهِ ، فَقالَ لَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

إنَّكَ يا اللهُ صاحِبُ السُّلْطانِ المُطْلَقِ في هذا الوُجودِ ، تَتَصرَّفُ فيهِ كَما تَشاءُ ، وفي هذه الجُمْلَةِ تَحقيقٌ لِمَعْنى العُبوديَّةِ والتَّنزيهِ والتَّقديسِ للهِ تعالى ، ومِنْ مَظاهِرِ هذا السُّلطانِ المُطْلَقِ :

١ـ ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ : والمُلْكُ يُحْمَلُ عَلى جَميعِ أَنْواعِهِ : مُلْكِ النُّبوَّةِ ، والعِلْمِ والعَقْلِ والصِّحَّةِ والأَخْلاقِ ، والسُّلْطانِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُؤتي هذا المُلْكَ لِمَنْ يَشاءُ أَنْ يُؤْتِيَهُ إيّاهُ ، ويَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشاءُ أَنْ يَنْزِعَهُ مِنْهُ .

٢ـ ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُعِزُّ مَنْ يَشاءُ إعْزازَهُ بالنَّصْرِ والتَّوفيقِ ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ إذْلالَهُ بالهَزيمَةِ والخِذْلانِ .

٣ـ ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : فأَنْتَ وَحْدَكَ يا ربُّ الّذي تَمْلِكُ الخيْرَ كُلَّهُ والشَّرَّ كُلَّهُ ، وتَتصرَّفُ فيهِ حَسَبَ إرادَتِكَ ومَشيئَتِكَ ، لأَنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ .

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٤ـ ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أيْ : بِقُدْرَتِكَ يا ربُّ تُدْخِلُ جُزْءاً مِنَ اللَّيْلِ في النَّهارِ ، فَيَقْصُرُ اللَّيلُ ويَطولُ النَّهارُ ، وتُدْخِلُ جُزْءاً مِنَ النَّهارِ في اللَّيلِ ، فَيَقْصُرُ النَّهارُ ويَطولُ اللَّيلُ ، وتَجْعَلُ اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَيْنِ .

د ـ ﴿ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ أيْ : بقُدْرَتِكَ يا ربُّ تُخْرِجُ الحَيوانَ الحيَّ مِنَ النُّطْفَةِ وهِيَ مَيتةٌ ، وتُخْرِجُ النَّبْتَةَ الحيَّةَ مِنَ الحبَّةِ المَيتةِ ، والحبَّةَ الميتةَ مِنَ النَّبتةِ الحيَّةِ .

٦ ـ ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ فأَنْتَ يا ربّ ترْزُقُ مَنْ تشاءُ أنْ ترْزُقَهُ رِزْقاً واسِعاً عَظيماً ، فَأَنْتَ صاحِبُ الجودِ والكرَمِ ، تُعْطي دونَ أنْ يكونَ هُناكَ مُحاسِبٌ يُحاسِبُكَ ، ودونَ مُحاسَبةِ مَنْ تُعطيهِ ، لأنَّ خزائِنَ مُلْكِكَ لا يُنْقِصُها العَطاءُ مَهْما كَثُرَ .

هذهِ هِيَ مظاهِرُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وسُلْطانِهِ المُطْلَقِ ، ورَحْمَتِهِ الواسِعَةِ ، يَنْبَغي أنْ تَحْمِلَ كُلَّ مَنْ عِنْدَهُ عقْلٌ عَلى إخْلاصِ العِبادَةِ للهِ تعالى وَحْدَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ عَلى المُؤْمِنِ أنْ يَرْجِعَ في جَميعِ أمورِهِ إلى كِتابِ اللهِ تَعالى ، فَلا يَحْتَكِمُ إلاّ إليْهِ .

٢ ـ افْتِراءُ اليَهودِ الكَذِبَ وغُرورُهُمْ ، بِسَبَبِ ادِّعائِهِمْ أنَّهُمْ أحْبابُ اللهِ تَعالى ، وأنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدودَةً .

٣ ـ المالِكُ والمُتَصَرِّفُ والمُعْطي والمانِعُ في الكَوْنِ هُوَ اللهُ تَعالى ، والمُؤْمِنُ يَقْنَعُ بِما أَعْطاهُ سُبْحانَهُ وتعالى .

٤ ـ المَغْرورُ والجاهِلُ الّذي يَعْتَزُّ بِغَيْرِ اللهِ ، ويَلْجَأُ إلى غَيْرِ اللهِ ويَذِلُّ لِغَيْرِهِ .

٥ ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى غالِبٌ على أمْرِهِ ، قادِرٌ على نَصْرِ أوْليائِهِ وَعِبادِهِ الصّالِحينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم تَرَ الَّذينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ .

٢ ـ لَقَدْ دعا النَّبيُّ ﷺ اليهودَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فيما تَنازَعوا فيهِ ، ما الأُمورُ الّتي تَنازَعوا فيها ؟

٣ ـ ما المَقْصودُ بالاسْتِفهامِ ﴿أَلَم تَرَ﴾ ؟

٤ ـ هاتِ حادِثَةً تَدُلُّ عَلى أنَّ أهْلَ الكِتابِ مُعْرِضونَ عَنِ الحَقِّ ، ولا يَعْمَلونَ بِما في كِتابِهِمْ .

٥ ـ ما الأَسْبابُ الّتي صَرَفَتْ أَهْلَ الكِتابِ عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ ؟

٦ـ كَيْفَ سَيَكونُ حالُ أَهْلِ الكِتابِ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ المَظاهِرِ لِقُدْرَةِ اللهِ وسُلْطانِهِ المُطْلَقِ . هاتِ هذهِ المَظاهِرَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ آيةً قُرْآنِيَّةً تَدُلُّ عَلى أنَّ العِزَّةَ للهِ ولِرَسولِهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الوَقْتَ الّذي يَكونُ فيهِ اللّيلُ أَطْوَلَ مِنَ النَّهارِ ، والنَّهارُ أَطْوَلَ مِنَ اللَّيلِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ السّابِعُ

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَولياءَ : بِطانَةً وأَعْواناً .

تتّقوا مِنْهُمْ تُقاةً : تَخافوا مِنْ شرِّهِمْ ومَكْرِهِمْ .

يُحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ : يُخوِّفُكمُ اللهُ غَضَبَهُ وعِقابَهُ .

مُحْضَراً : مُشاهَداً في صُحُفِ الأَعْمالِ .

أَمَداً : مَسافَةً .

التَّفسيرُ :

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

تَتَحَدَّثُ الآياتُ عَنِ العَلاقةِ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَكونَ بَيْنَ الكافِرينَ والمُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ أَنَّه لا يَحِلُّ

للمُؤْمنينَ أنْ يتَّخِذوا الكافِرينَ أَوْلياءَ ونُصراءَ ، ولَكنْ عَلَيْهِمْ أن يُراعوا ما فيهِ مَصْلَحةُ الإِسْلام ، ومَصْلَحَةُ المُسْلمينَ ، وعَلَيْهِمْ أنْ يُقَدِّموا مَصْلَحَةَ الدِّينِ عَلى ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الكُفّارِ مِنْ قَرابَةٍ أَوْ صَداقةٍ أَوْ أيِّ صِلَةٍ أُخْرى ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ ﴾ أيْ : مِنْ مَكانٍ دونَ مَكانِ المُؤْمنينَ ، وهُوَ مَكانُ الكافِرينَ .

إنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَتَّخِذُ لَهُ أَوْلياءَ مِنَ الكافِرينَ ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أيْ : لَيْسَ مِنْ وِلايةِ اللهِ في شَيْءٍ . وَوِلايةُ اللهِ مِنَ العَبْدِ طاعَتُهُ وَنَصْرُ دينِهِ ، ومِنَ اللهِ مَثوبَتُهُ ورِضْوانُهُ ، ومَعْنى الآيةِ : أنَّهُ تَنْقَطِعُ الصِّلَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ ، فَيَكونُ مِنَ الكافِرينَ ، فإنَّ مَنْ تَولّى الكافِرينَ كانَ مِنْهُم وكانَ عَدُوّاً للهِ .

﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ ﴾ اسْتِثْناءٌ مَعْناهُ : لا تَتَّخِذوا أيُّها المُؤْمنونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ في أيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ إلاّ في حالِ اتِّقائِكُمْ مِنْهُم ، أي : إلاّ أنْ تَخافوا مِنْهُم مَخافةً ، أَوْ إلاّ أنْ تَخافوا مِنْ جِهَتِهِمْ أمْراً يَجِبُ إتِّقاؤُهُ مِنَ الضَّررِ في النَّفْسِ أوِ المالِ أوِ العِرْضِ .

وإذا جازَ لِلْمُسْلِمينَ أنْ يتَّقوا ضَرَرَ الكافِرينَ ، فَيَجوزُ لَهُمْ ـ إذَنْ ـ أنْ يُوالوهُمْ لأَجْلِ مَصْلَحَتِهِمْ . وعَلَيْهِ ، يَجوزُ للحُكّامِ المُسْلِمينَ أنْ يُحالِفوا الدُّوَلَ غَيْرَ المُسْلِمَةِ لأَجْلِ فائِدَةِ المُؤْمنينَ بِدَفْعِ الضُّرِّ أَوْ جَلْبِ المَصْلَحةِ ، ولَيْسَ لَهُمْ أنْ يوالوهُمْ في شَيْءٍ يَضُرُّ بِالمُسْلِمينَ كَما هُوَ حالُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ وللأَسَفِ ، فهم يُوالونَ غَيْرَ المُسْلِمينَ مِنْ أَجْلِ إيْقاعِ الضَّرَرِ بالمُسْلِمينَ .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ تَهْديدٌ وتَخْويفٌ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، أيْ : يُحَذِّرُكُمْ اللهُ مِنْ عِقابِهِ وانْتِقامِهِ ، وذَكَرَ سُبْحانَهُ كَلِمَةَ ﴿نَفْسَهُ﴾ لِيَعْلَمَ كُلُّ مَنِ اتَّخَذَ الكافِرينَ أَوْلياءَ أنَّ الوَعيدَ والعِقابَ صادِرٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى إنفاذِ أَمْرِهِ ، لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السّماواتِ ، إليهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ المَرْجِعُ والمَآلُ ، وسَيُجازيهِمْ عَلى أعْمالِهِمْ بِما يَسْتَحِقّونَ .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ عَليمٌ بِظَواهِرِ النّاسِ وبواطِنِهِمْ ، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ ﴾ قُلْ يا مُحَمَّدُ لِمَنْ يَتَّخِذُ الكافِرينَ أَوْلياءَ مِنْ دونِ المُؤْمنينَ مُرْشِداً لَهُمْ ومُحَذِّراً : إنَّ تُخفوا ما في صُدورِكُمْ مِنْ وِلايةِ الكُفّارِ أَوْ أيِّ أَمْرٍ آخَرَ مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ فإنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُهُ ، فَهُوَ يَعْلَمُ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُكُمْ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، أَوْ كُرْهِكُمْ لَهُمْ ونُفورِكُمْ مِنْهُمْ ، إنَّه سُبْحانَهُ وتَعالى يُجازيكُمْ عَلى حَسَبِ عِلْمِهِ الّذي يُحيطُ بِما في السّماواتِ والأَرْضِ ، فَهُوَ الخالِقُ لَهُما ، وهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، فلا يُمْكِنُ أنْ يَفْلِتَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَحَدٌ ، ولا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : احْذَروا يوماً تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَمَلَها مِنَ الخَيْرِ مُحْضَراً ، ومَعْنى ذلِكَ : أنَّ عَمَلَهُ في الدُّنْيا عادَ عَلَيْهِ بالنَّفْعِ والفائِدَةِ يَوْمَ القِيامَةِ ، وكَذلِكَ كُلُّ نَفْسٍ عَمِلَتِ السُّوءَ تَجِدُهُ أمامَها ، فَتَودُّ كُلُّ نَفْسٍ اقْتَرَفَتْ هذا السُّوءَ لَوْ أنَّهُ كانَ بَعيداً عَنْها ولَمْ تَرَهُ وَلَمْ تُحاسَبْ عَلَيْهِ .

إنَّ النَّفْسَ الّتي عَمِلَتْ خَيْراً سَتَجِدُ ما عَمِلَتْهُ مُحْضَراً فَتَتَنَعَّمُ بِسَبَبِ إحْسانِها ، ولكنَّ النَّفْسَ المُسيئَةَ سَوْفَ تَبْتَئِسُ وتَغْتَمُّ بِما أساءَتْ في الدُّنْيا ، وتَودُّ لَوْ كانَ بَيْنَها وبَيْنَ عَمَلِها بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ . ويُحذِّرُكُمُ اللهُ عِقابَهُ في الآخِرَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُحيطٌ بِأعْمالِكُمْ ، وهُوَ رَؤوفٌ في إنْذارِهِ إيّاكُمْ حَيْثُ حذَّرَكُمْ مِنْ عِقابِهِ ، وعرَّفَكُمْ كَمالَ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ ، وأنَّهُ يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ ورغَّبَكُمْ في رَحْمَتِهِ ، وحَذَّرَكُمْ مِنَ اسْتِحقاقِ غَضَبِهِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ الطّريقَ الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِمْ أنْ يَسْلُكوهُ ، لِيَكونوا ممّنْ يُحبُّهُمُ اللهُ تَعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ .

يُروى في سَبَبِ نُزولِ هذِهِ الآيَةِ أنَّ وفدَ نَجْرانَ وهُمْ مِنَ النَّصارى قالوا : إنّما نُعَظِّمُ المَسيحَ عيسى ونَعبُدُهُ حبّاً للهِ تَعالى وتَعْظيماً لَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآيةَ ردّاً عَلَيْهِمْ . ومَعنى الآيَةِ : قُلْ يا مُحمَّدُ مُرْشِداً ومُبيِّناً لأهْلِ الكِتابِ وللنّاسِ أجْمَعينَ : إنْ كُنْتُم تُحبُّونَ اللهَ تَعالى كَما تَدَّعونَ فاتَّبعوني ، إذْ إنَّ اتِّباعَكُمْ لي يُؤَدّي إلى مَحبَّةِ اللهِ تَعالى لَكُمْ ، وإلى غُفْرانِهِ لِذُنوبِكُمْ ، وذَلِكَ لأنَّ مَحبَّةَ اللهِ تَعالى لَيْسَتْ مُجرّدَ دَعوى باللِّسانِ ، ولَكنَّ مَحبَّةَ اللهِ تَتَحقَّقُ باتِّباعِ كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، واجْتِنابِ كُلِّ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، قالَ الشّاعِرُ :

تَعْصي الإلـهَ وأنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ	هـذا لَعَمْري في القِياسِ بَديعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأطَعْتَهُ	إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

ويُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ عَلى الأَمْرِ بإطاعتِهِ وذَلِكَ باتِّباعِ كِتابِهِ ، وإطاعةِ الرّسولِ ﷺ باتِّباعِ سُنَّتِهِ والاهْتِداءِ بِهَدْيِهِ فإنْ تَوَلَّوْا وأَعْرَضوا ولَمْ يُجيبوا دَعْوَتَكَ يا مُحَمَّدُ ، فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافِرينَ الّذينَ تَصْرِفُهُمْ أَهْواؤُهُمْ عَنِ النَّظَرِ الصَّحيحِ في آياتِ اللهِ ، واتِّباعِ سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، وَيَتَمسَّكونَ بِالشِّرْكِ والضَّلالِ ، هَؤلاءِ كافِرونَ ، وإنِ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُؤْمِنونَ يُحبُّونَ اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَحْرُمُ عَلى المُؤْمنينَ مُوالاةُ الكافِرينَ إلاّ إنْ خافوا ضَرَراً عَلى دينِهِمْ .

٢ـ المُؤْمِنُ هُو الّذي يَحْذَرُ عِقابَ اللهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، فلا يَعْمَلُ إلاّ خَيْراً، وَيَتَجنَّبُ عَمَلَ السُّوءِ .

٣ـ مَنْ يدَّعي مَحَبَّةَ اللهِ تَعالى ، ولا يَسيرُ عَلى طريقِ الحقِّ الّذي شَرَعَهُ اللهُ ، كاذبٌ في مَحبَّتِهِ ، فالدّعوى لابدَّ وأنْ يُصَدِّقَها العَمَلُ .

٤ـ مَحبَّةُ اللهِ تَكونُ بإخْلاصِ العِبادةِ لَهُ ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدودِهِ ، والاسْتِجابةِ لِتَعاليمِ رَسولِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي يَنْبَغي لِلْمُسْلِمِ أنْ يُراعِيَهُ مِنْ صِفاتٍ فيمَنْ يَتَّخِذُهُ وليّاً ؟

٢ـ كَيْفَ يَنْبَغي أنْ تَكونَ العَلاقةُ بَيْنَ الكافِرينَ والمُؤْمنينَ ؟

٣ـ بِماذا تَوعَّدَ اللهُ تَعالى مَنْ يَتّخِذُ الكافِرينَ أَوْلياءَ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إلاّ أَنْ تَتَّقوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ ؟

٥ـ ما مَعْنى : ويُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ ؟

٦ـ مِمَّ حَذَّرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى النّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الطَّريقَ الّتي يَنْبَغي عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَسْلُكوها لِيَكونوا مِمَّنْ يُحِبُّهُمُ اللهُ تَعالى ، وَضِّحْها .

٨ـ ما الدَّليلُ عَلى مَحبَّةِ العَبْدِ للهِ تَعالى ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما فَعَلَهُ عَمّارُ بنُ ياسرٍ عِنْدَما عَذَّبَهُ الكُفّارُ ، لِيَنْجوَ بِنَفْسِهِ ، وعَلامَ يَدُلُّ فِعْلُهُ .

٢ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ اللُّغويةِ واسْتَخْرِجِ الفَرْقَ بَيْنَ الأَمَدِ والأَبَدِ والزَّمانِ .

الدَّرسُ الثَّامِنُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اصْطَفى	: اخْتارَ .
آلَ عِمْرانَ	: عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ وأُمَّهُ عَليها السَّلامُ ، وعِمْرانَ وامْرأةَ عِمْرانَ .
مُحرَّراً	: مُعْتَقاً مِنْ شَواغِلِ الدُّنيا ، ومُفرَّغاً لِعبادةِ اللهِ .
أُعيذُها	: أُحَصِّنُها بِكَ .
كَفَّلَها زكريّا	: جَعَلَهُ كافِلاً لَها وضامِناً لِمصالِحِها .
المِحْرابَ	: غُرْفَةَ العِبادةِ في بَيْتِ المَقْدِسِ .
أنّى لكِ هذا	: مِنْ أينَ لكِ هذا .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَ سُبْحانَهُ أنَّ مَحبَّتَهُ مُرْتَبطَةٌ باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ ، فَمَنْ كانَ صادِقاً في حُبِّهِ ، وكَذلِكَ مَن اتَّبَعَ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فإنَّهُ يَصِلُ إلى مَحبَّةِ اللهِ تَعالى ، فَقَدِ اصْطَفى اللهُ تعالى الرُّسُلَ

وبعثَهُمْ لِلنّاسِ ، لِيُبيِّنَ لَهُمْ طريقَ الحَقِّ مِنْ طُرُقِ الضَّلالِ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لَقَدِ اخْتارَهُمُ اللهُ تَعالى وجَعَلَهُمْ صَفْوَةَ العالَمينَ وخِيارَهُمْ ، وذَلِكَ بأَنْ جَعَلَ الرِّسالةَ والنُّبوَّةَ فيهم ، فَقَدِ اخْتارَ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أباً لِلْبَشَرِ ، وجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَتِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلينَ ، ونُوحاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أرْسَلَهُ لِقَوْمِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُم إلاّ القَليلُ ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ ، وكانَ مِنْ سُلالَتِهِ الأَنْبياءُ والمُرْسَلونَ ، وتَتابَعَ المُخْتارونَ بَعْدَهُ ، وكانَ مِنْ أرْفَعِهِمْ قَدْراً آلُ عِمرانَ الّذينَ مِنْهُمْ مَريمُ عَلَيْها السّلامُ وابنُها عيسى عَلَيْهِ السّلامُ .

وتَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ آلِ عِمرانَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى كانَ سَميعاً لِقَوْلِ امْرَأَةِ عِمْرانَ ، عَليماً بِنيَّتِها وَقْتَ مُناجاتِها لِرَبِّها سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَقَدْ نَذَرَتْ للهِ نَذْراً .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

اذْكُرْ يا مُحمَّدُ ويا مَنْ تَقرأُ كِتابَ اللهِ مُتَدبِّراً وقتَ أنْ قالتِ امْرأةُ عِمرانَ : رَبِّ إنّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحرَّراً ، لَقَدْ نَذَرَتْ أنْ يَكونَ ما في بَطْنِها مُعتَقاً للهِ تَعالى ، وخِدْمَةِ بَيْتِهِ ومُخْلِصاً لِهذِهِ العِبادَةِ والخِدْمَةِ لا يَشْتَغِلُ بأيِّ شَيْءٍ آخَرَ ، وقَدْ نَذَرَتْ هَذا النَّذْرَ لأنَّها كانَتْ تعتقدُ أنَّ ما في بطنِها ذَكَرٌ ، وأَثْنَتْ عَلى اللهِ تَعالى بأنَّهُ سَميعُ الدُّعاءِ ، عَليمٌ بما في أنْفُسِ الدّاعينَ .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ . هَذِهِ الجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ تُفيدُ التَّحسُّرَ والاعْتِذارَ ، لَقَدْ كانَتْ تَعتقدُ أنّ ما في بَطْنِها ذَكَرٌ ، ولَكنَّهُ جاءَ أُنْثى ، فَأَكّدَتْ بِهذا المُؤكِّدِ (إنِّي) لِتُزيلَ كُلَّ ما عَلِقَ في نَفْسِها مِنْ كَوْنِ ما في بَطْنِها ذَكراً ، واللهُ أَعْلَمُ بما وَضَعَتْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ أعْلَمُ بأنَّها وَضَعَتْ أنْثى وأنَّ هذِهِ الأُنْثى لَها مَكانَتُها العَظيمةُ ، وهِيَ خَيْرٌ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الذُّكورِ ، ثُمَّ قالَتْ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ لأنَّ الأُنْثى لا تَصْلُحُ لِما يَصْلُحُ الذَّكرُ لَهُ ، فَقَدْ كانوا يُجيزُونَ تَحريرَ الذُّكورِ لِخِدْمَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، ولا يُجيزونَ ذَلِكَ للإناثِ ، لأنَّ الأُنْثى تَحيضُ .

﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ . لَقَدْ سَمَّتِ ابْنَتَها مَرْيَمَ ، وطَلَبَتْ مِنَ اللهِ أنْ يَعْصِمَها وذُرِّيَتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم . عَنْ أبي هُريرةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ما مِنْ مَولودٍ يُولدُ إلاّ والشَّيْطانُ يمسُّهُ حينَ يُولدُ ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطانِ إيّاهُ إلاّ مَرْيَمَ وابْنَها » ،

قالَ أبو هُريرةَ : « واقرأُوا إنْ شئتُمْ : وإنّي أعيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ[1] » .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وطَمْأنَ اللهُ تعالى الأُمَّ بأنَّهُ قَدْ قَبِلَ ابنتَها : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أيْ : تقبَّلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّها ، وَرَضِيَ أنْ تكونَ مُحرَّرَةً للانْقطاعِ لِعبادَتِه ، وخِدْمَةِ بَيْتِهِ وفاءً بنَذرِ الأُمِّ التَّقيَّةِ ، وفي الجُمْلَةِ مُبالغةٌ ، فَلَمْ يَقُلْ سُبْحانَهُ : فقبِلَها ، ولكنَّهُ قالَ : فتقبَّلَها ، ثُمَّ أكَّدَ هذا الأَمْرَ بأنْ وَصفَ القَبولَ بأنَّهُ حَسَنٌ ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أيْ : ربّاها ونَمّاها في خَيْرِه سُبْحانَهُ ، ورِزْقِهِ وعِنايَتِهِ وتَوْفيقهِ تَربيةً حَسَنَةً ، شَمِلَتْ روحَها وجَسَدَها ، كما تُرَبّى الشَّجَرةُ في الأَرْضِ الصّالِحَةِ حتّى تَنْمو وتُثْمِرَ الثِّمارَ الصّالِحَةَ .

وَمِنْ مَظاهِرِ عِنايةِ اللهِ بها أنْ كَفَّلَها زَكَرِيّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَكانَ هُوَ الكَفيلُ بِمصالِحِها والمَسؤولُ عَنْ إحْضارِ الطَّعامِ والشَّرابِ لَها إلى المِحْرابِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ عِنايةِ اللهِ بها أنْ تَكَفَّلَ هُوَ سُبْحانَهُ بطَعامِها وشَرابِها ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ لَقَدْ كانَ زَكريّا يَدْخُلُ عَلَيْها في مَكانِ عِبادَتِها وخَلْوَتِها لِيأْتيَها بالطَّعامِ والشَّرابِ ، ولكنَّهُ كانَ يَجِدُ عِنْدَها الرِّزْقَ ، ، فَيَجِدُ عِنْدَها طعاماً وشَراباً ، فيَتعجَّبُ مِنْ ذَلكَ ، إذْ إنَّهُ لا يَدْخُلُ عَلَيْها أحَدٌ إلاّ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِذا قالَ لَها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ مِنَ أيْنَ لَكِ هذا الطَّعامُ ، فقالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى رازِقِ النّاسِ ، فَهُوَ يَسوقُ إلى مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ رِزْقَهُ بغَيْرِ إحْصاءٍ ولا عَدٍّ يُحاسِبُ عَلَيْهِ عَبْدَهُ .

إنّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسِعَةٌ فَهُوَ لا يَنْسى عِبادَهُ ، فَقَدْ كانَتْ حِكْمَتُهُ أنْ يَكونَ ما في بَطْنِ امْرأةِ عِمْرانَ أُنْثى ، وشاءَ بِحِكْمَتِهِ أنْ يَتَكفَّلَها زَكريّا ويَرْعاها ويَمُنَّ عَلَيْها بالرِّزْقِ ، لِيُهيِّئَها لأَمْرٍ عَظيمٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

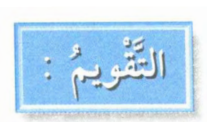
١ـ إثْباتُ نُبوَّةِ النَّبيِّ مُحمّدٍ ورَدُّ شُبُهاتِ أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ جَعلوا النُّبُوَّةَ خاصَّةً بِبَني إسْرائيلَ .

٢ـ الذَّكَرُ والأُنْثى كِلاهُما هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، ولا فَرْقَ بَيْنَهُما مِنْ حَيْثُ الكَرامةُ ، وقَدْ تكونُ الأُنثى أَفْضَلَ مِنَ الذَّكَرِ .

٣ـ اللهُ تَعالى يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، حديث رقم ٤٢٧٤ .



التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذكَرَتِ الآياتُ أسماءَ بَعْضِ الأَنْبياءِ ، مَنْ هُمْ ؟

٢ـ ما الّذي فَعَلَتْهُ امْرأةُ عِمْرانَ عِنْدَما عَلِمَتْ بِحَمْلِها ؟

٣ـ ما الّذي كانَتْ تَعتقدُهُ في جنْسِ الجَنينِ الّذي في بَطْنِها ؟

٤ـ لِمَ قالَتِ امْرَأةُ عِمرانَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ؟

٥ـ بَيِّنِ المَقْصودَ مِنْ قَوْلِها : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾

٦ـ بِمَ طَمْأَنَ اللهُ تَعالى امْرأةَ عِمْرانَ بَعْدَ وِلادَتِها مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ؟

٧ـ مَنِ الّذي كَفِلَ السَّيدةَ مَرْيَمَ ؟

٨ـ ما مَظاهِرُ عِنايةِ اللهِ تَعالى بِمريمَ عَلَيْها السَّلامُ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ ، واسْتَخْرِجْ مِنْهُ مَعْنى : مَرْيَمَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ التَّاسِعُ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هُنالِكَ : ظَرْفٌ يُسْتَعْمَلُ للزَّمانِ والمَكانِ ، وأَصْلُهُ لِلْمَكانِ .

حَصوراً : أَصْلُ الحَصْرِ المَنْعُ والحَبْسُ ، أيْ : يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنِ الوُقوعِ في المُنْكَراتِ .

عاقِرٌ : عقيمٌ لا تَلِدُ .

آيتُكَ : علامَتُكَ .

رَمْزاً : أَصْلُ الرَّمْزِ الحَرَكَةُ ، وأُطْلِقَ عَلى الإشارةِ .

العَشيِّ : جَمْعُ عَشيَّةٍ ، وهُوَ حينَ تَزولُ الشَّمسُ إلى أنْ تَغيبَ .

الإِبْكارِ : مَصْدرُ أَبْكَرَ ؛ إذا خَرَجَ لأَمْرٍ في أوّلِ النَّهارِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ رَأَى زَكَرِيّا عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قُدْرَةَ اللهِ تَعالى بِأُمِّ عَيْنَيْهِ ، لَقَدْ رأَى ما عِنْدَ مَرْيَمَ مِنْ رِزْقِ اللهِ وفَضْلِهِ الّذي آتاها ، وعَرَفَ مَكانَتَها عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وكَيْفَ تَقبَّلَها ربُّها قَبولاً حَسَناً وجَعَلَها مِنَ

الصّالِحاتِ ، عِنْدَها طَمِعَ في طَلَبِ الوَلَدِ مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ ، وقَوِيَ رَجائِهِ في ذلك .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

هُنالِكَ دَعا زكريّا رَبَّهُ ، فقالَ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ في ذَلِكَ المَكانِ الطّاهِرِ الّذي كانَتْ تَجلِسُ فيهُ السَّيِّدةُ مَرْيمُ ـ المحراب ـ تَحرَّكَتْ في نَفْسِ زَكريّا عَلَيهْ السَّلامُ مَشاعِرُ الأُبُوَّةِ ، وهُوَ الشَّيْخُ الكَبيرُ ، فَدَعا ربَّهُ بِقَلْبٍ مُنيبٍ ونَفْسٍ صافِيَةٍ ، وبِجوارِحَ خاشِعَةٍ للهِ تَعالى أنْ يَرْزُقَهُ الذُّرِّيَّةَ الصّالِحةَ ، لَقَدْ تَوَجَّهَ إلى ربِّهِ مُناجِياً : ربِّ ، أنتَ خَلقتَني ، وأَرَيْتَني شَيْئاً مِنْ قُدْرَتِكَ الّتي لا يَقِفُ أمامَها شَيْءٌ ، أسْأَلُكَ يا خالِقي أنْ تَهبَ لي مِنْ عِنْدكَ ذُرِّيَّةً صالِحةً ، تَقرُّ عَيْني بِها ، وتَكونُ خَلَفاً مِنْ بَعْدي إنَّكَ سَميعُ الدُّعاءِ ، فَأَنْتَ يا رَبِّ عَليمٌ بدُعائِي عِلْمَ مَنْ يَسْمَعُ ، قَريبُ الإجابةِ لِمَنْ يَدْعوكَ ، فإنّي يا ربِّ ما التَجأتُ إلَيْكَ إلاّ لأنّكَ مُجيبُ الدُّعاءِ .

ولَكِنْ ماذا كانَتْ نَتيجةُ هذا الدُّعاءِ الخاشِعِ والتَّضرُّعِ الخالِصِ ؟ لَقدْ كانَتْ نَتيجَتُهُ أنْ أجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَ زَكَريّا عَلَيْهِ السَّلامُ :

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ . لَقَدْ نادتِ الملائكةُ زَكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَهُوَ قائِمٌ يَدْعو اللهَ تَعالى في ذلِكَ المَكانِ المُبارِكِ ، مُخْبِرَةً إيّاهُ بأنَّ اللهَ تَعالى قدِ اسْتَجابَ دُعاءَهُ ، وهُوَ سُبْحانَهُ يُبَشِّرُكَ بغلامٍ اسْمُهُ يَحيَى لِكَيْ تَقرَّ بِهِ عَينُكَ ، ويُسَرَّ بِهِ قلبُكَ . وهَذا الاسْمُ يُشعِرُ بأنّ هذا الغُلامَ سَيَحْيا حَياةً طَيِّبَةً بأنْ يَكونَ وارِثاً لِوالِدِهِ ، ومِنْ آلِ يَعقوبَ ما كانَ فيهِمْ مِنَ النُّبوَّةِ والفَضْلِ ، وبذلِكَ يحيا اسْمُهُ وذِكْرُهُ بَعْدَ موتِهِ ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هذا الغُلامَ بِصفاتٍ عِدّةٍ :

١ـ ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أيْ أنَّهُ مُصَدِّقٌ بعيسى الّذي يُبَشِّرُ اللهُ بِهِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، فَهُوَ سَيُؤْمِنُ بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بأنَّهُ رَسولٌ مِنَ اللهِ ، وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيمَ وروحٌ مِنْهُ .

٢ـ ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ والسَّيدُ هُوَ مَنْ يَسودُ قومَهُ ، بِأَنْ يَكونَ مالِكاً لِزِمامِهِمْ ومُسَيْطِراً عَلى أهْوائِهِمْ .

٣ـ ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أيْ أنَّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَيَكونُ حابِساً نَفْسَهُ عَنِ الشَّهواتِ ، وقَدْ قيلَ : إنّه امْتَنَعَ مِنَ الزَّواجِ زَهادةً مِنْهُ واسْتِعْفافاً مَعَ أنَّه قادِرٌ عَلَيْهِ .

٤ـ ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ وفي هذا بِشارةٌ لِزَكريّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ ابْنَهُ سَيَكونُ مِنَ الأَنْبياءِ الّذينَ اصْطَفاهُمُ اللهُ تَعالى لِتَبْليغِ دَعْوَتِهِ إلى النّاسِ ، وهذهِ أَسْمى وأعلى الصِّفاتِ ، لأنَّ مَنْزِلَةَ النُّبُوَّةِ لا تَعْدِلُها مَنْزِلةٌ .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

ويَسْتَعْظِمُ زكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ قُدْرَةَ اللهِ تعالى ، فها هُوَ يَقولُ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ إنَّهُ يَسْأَلُ مُعظِّماً لِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، ومُتَشوِّقاً إلى مَعْرِفَةِ الكَيفيَّةِ ، فَهُوَ قَدْ أصابَهُ الكِبَرُ وأدْرَكَهُ الضَّعْفُ ، وامْرأتُهُ كذَلكَ عاقِرٌ لا تَلِدُ إمّا لِكِبَرِ سِنِّها أوْ لأنَّها أصْلاً مُنْذُ صِغَرِها كانَتْ عاقِراً ، ويُجيبُهُ سُبْحانَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أيْ : مِثْلُ ذَلِكَ الفِعْلِ العَجيبِ والصُّنْعِ البَديعِ الّذي رَأيتَهُ وَهُوَ أنْ يَكونَ لَكَ وَلَدٌ وأَنْتَ شَيْخٌ كَبيرٌ وامْرأتُكَ عاقِرٌ ، مثلَ ذَلِكَ الفِعْلِ يَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ أنْ يَفْعَلَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ متى شاءَ أمْراً أوْجَدَ لَهُ سَبَباً ، أوْ خَلَقَه بِغَيْرِ الأَسْبابِ المَعْروفَةِ ، لا يَحولُ دونَ مَشيئتِهِ شَيءٌ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إنَّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ يَتلهّفُ لِحُصولِ الحَمْلِ عِنْدَ زَوْجِهِ ، ومَجيءِ الوَلَدِ ، ولِذا فَقَدْ طَلَبَ مِنَ اللهِ تَعالى أنْ يُكْرِمَهُ بِمَعْرِفَةِ الزَّمَنِ الّذي يَنالُ بِهِ تِلْكَ المِنْحَةَ الإلهيَّةَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، ويُبشِّرَ بِهِ أهْلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ سُبْحانَهُ أنَّ علامَتَكَ ألاّ تَقْدِرَ عَلى كَلامِ النّاسِ مِنْ غَيْرِ آفةٍ ولا مَرَضٍ في لِسانِكَ لِمُدَّةِ ثَلاثةِ أيام ، إلاّ عَنْ طَريقِ الإيحاءِ والإشارةِ . لَقَدْ أمَرَهُ اللهُ أنْ لا يُكلِّمَ النّاسَ هذِهِ الأيامَ الثّلاثةَ ، بَلْ يَنقطِعُ للذِّكْرِ والتَّسبيحِ صَباحاً ومَساءً ، فإذا احْتاجَ إلى خِطابِ النّاسِ أوْمأَ إليهِمْ إيماءً .

لَقَدْ أمَرَهُ اللهُ تَعالى أنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهِ ومِنْ تَسْبيحِهِ في أوّلِ النَّهارِ وآخِرِهِ ، وفي كُلِّ وَقْتٍ لا سيَّما هذِهِ الأيامُ الثّلاثةُ شُكْراً للهِ تَعالى عَلى ما أعْطاهُ مِنْ نِعَمٍ جَليلةٍ لا تُحْصى ، حَيْثُ وَهَبَهُ الذُّرّيَّةَ بَعْدَ أنْ بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ مَبْلَغاً ، وجَعَلَ هذا المَوْلودَ نبيّاً صالِحاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنَ السُّنَّةِ أنْ يَطْلُبَ الإنْسانُ الوَلَدَ ، لِما يَرْجوهُ مِنْ نفعِهِ في حَياتِهِ وبَعْدَ مَماتِهِ .

٢ـ الحِرْصُ عَلى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ تَعالى ، وتَوخّي الوَقْتِ المُناسبِ والمَكانِ المُناسِبِ للدُّعاءِ .

٣ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى موجِدُ الأَسْبابِ ، وقَدْ يوجِدُ سُبْحانَهُ أشْياءَ بِغَيْرِ أَسْبابِها المَعروفَةِ ، لا يَحولُ دونَ مَشيئتِهِ شيْءٌ .

٤ـ الإكْثارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى ، لأنَّ ذِكْرَ اللهِ تَطْمَئِنُّ بِهِ القُلوبُ ، وتَسْكُنُ النُّفوسُ ، وتُغْفَرُ بِهِ الخَطايا والذُّنوبُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التَّاليةِ :

حَصوراً ، رَمْزاً ، العَشيِّ ، الإبْكارِ ، عاقِرٌ .

٢ـ ما الّذي جَعَلَ زَكَرِيّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَتَوجَّهُ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ؟

٣ـ في أيِّ مَكانٍ تَوجَّهَ زَكَرِيّا بالدُّعاءِ إلى اللهِ ؟

٤ـ هَلِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لِزَكَرِيّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ هذا الاسْمُ للغُلامِ (يحيى) ؟

٦ـ ما صِفاتُ هذا الغلامِ الّذي رَزَقَهُ اللهُ لِزَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٧ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَولِهِ تَعالى : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ؟

٨ـ لَقَدْ طَلَبَ سيِّدُنا زَكَرِيّا مِنْ ربِّه علامَةً ، ما تِلْكَ الآيةُ والعَلامَةُ ؟

نَشاطٌ :

١ ـ اقرأ الآياتِ مِنْ سورةِ مَرْيمَ عَلَيْها السَّلامُ الّتي تَحدَّثَتْ عَنْ سُؤالِ زَكَرِيا عَلَيْهِ السَّلامُ الوَلَدَ ، وتَدبَّرْ كَيْفَ فصَّلَتْ سورةُ مريمَ هذِهِ القَضيَّةَ .

٢ـ هاتِ ثَلاثَ آياتٍ مِنْ كِتابِ اللهِ تَحُثُّ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ العاشِرُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الْعاشِرُ

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **اصْطَفاكِ** : اخْتارَكِ .
- **طَهَّرَكِ** : نَظَّفَكِ مِنَ الأَدْناسِ والرَّذائِلِ والأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ .
- **اقنُتي** : أَخْلِصي العِبادَةَ للهِ وأديمي الطّاعَةَ لَهُ .
- **أَقْلامَهُم** : سِهامَهُمُ الّتي يَقْتَرِعونَ بِها .
- **وَجيهاً** : ذا جاهٍ وشَرَفٍ وقَدْرٍ في الدّارَيْنِ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ مَظْهرٍ مِنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في وِلادةِ يحيى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وتَتَحدَّثُ الآياتُ هُنا عَنْ وِلادةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الّذي هُوَ مِنْ أَدلِّ الدَّلائِلِ عَلى قُدْرةِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : اذْكُرْ يا محمَّدُ وَقْتَ أنْ قالتِ الملائِكَةُ لِمريمَ : إنّ اللهَ ﴿اصْطَفَاكِ﴾ أيْ : اخْتارَكِ واجْتَباكِ لِطاعتِهِ وقبلَكِ لِخدْمَةِ بيْتِهِ ﴿وطهَّرك﴾ مِنَ الأدْناسِ والأقْذارِ ومِنْ كُلِّ ما يَتنافى مَعَ الخُلُقِ الحَميدِ ، والطِّباعِ السَّليمةِ ﴿واصْطَفَاكِ﴾ وهذا الاصْطِفاءُ الثّاني هُوَ ما خَصَّها بِهِ مِنْ خِطابِ الملائِكَةِ لها ، واصْطِفاءٌ مِنْ أجْلِ وِلادةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِذا قالَ ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيْ : فضَّلَها على النِّساءِ بما اخْتَصَّها بِهِ مِنْ وِلادَةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ دونَ أبٍ ، ولم تُشارِكْها في ذَلِكَ امْرَأةٌ قطُّ في أيّ زمانٍ أوْ مكانٍ ، وقَدْ يكونُ المَقْصودُ تَفْضيلُها مِنْ حيثُ قوةُ إيمانِها وصَلاحُ أعمالِها ، عَلى النِّساءِ في زَمانِها ، حَيْثُ كانَتْ أفْضَلَهنَّ مِنْ هذهِ الناحيةِ .

عَنْ عَليٍّ بنْ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (خيرُ نِسائِهِمْ مريمُ بنتُ عِمرانَ ، وخيرُ نِسائِنا خَديجةُ بنتُ خُوَيْلدٍ)[١] .

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وَأَمرتِ المَلائِكَةُ مَرْيَمَ بالقُنوتِ ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أيْ : الْزَمي طاعَةَ اللهِ ، مَعَ الخُضوعِ لَهُ ، ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ، وَما ذُكِرَ هُنا مِنْ هيئاتِ الصَّلاةِ ، القُنوتُ والسُّجودُ والرُّكوعِ . فَقَدْ طَلبَتْ مِنْها الملائِكَةُ أنْ تُخْلِصَ العِبادَةَ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأنْ تُداوِمَ عَلَيْها ، وأنْ تُكْثِرَ مِنَ السُّجودِ للهِ ومِنَ الرُّكوعِ معَ الرّاكِعينَ ، لأنَّ مُلازَمَةَ الطّاعاتِ والصَّلواتِ مِنْ شَأْنِها أنْ تَحْفَظَ النِّعَمَ وأنْ تَزيدَ الإنْسانَ قُرْباً وحُبّاً مِنْ خالِقِهِ عَزَّ وجلَّ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّ هذِهِ القَصصَ الّتي يَقُصُّها عَلَيْنا هِيَ مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ : أي : ذلك الّذي قَصَصْناهُ عَلَيْكَ يا مُحمَّدُ مِنْ أخْبارِ مَرْيَمَ وزكريا مِنْ أنباءِ الغَيْبِ ، إذْ لَمْ تَشْهَدْهُ أنْتَ ولا أحَدٌ مِنْ قَوْمِكَ ، ولَمْ تطَّلِعْ عَلى شَيْءٍ منهُ مِنْ أيِّ مَصْدَرٍ ، وإنَّما نَحْنُ الّذينَ أوْحَيناهُ إلَيْكَ ، وذَلِكَ بإنْزالِ الرُّوحِ الأَمينِ عَلى قَلْبِكَ ، لِيَكونَ دَليلاً عَلى صِدْقِكَ فيما تُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّكَ ، ولِتَكونَ عِبْرَةً وذِكرى لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ، وقَدْ أكَّدَ سُبْحانَهُ أنَّ هذِهِ مِنْ أُمورِ الغَيْبِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي : ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ عِنْدَهُمْ وَقْتَ أنْ أجْرَوْا القُرْعَةَ بَيْنَهُمْ لِيَعْرِفوا مَنْ يَكْفُلُ السَّيدةَ مريمَ عَلَيْها السَّلامُ ، وما كُنْتَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٤٣٠ باب : فضائل خديجة رضي الله عنها .

حاضراً عِنْدَهُمْ كذلِكَ وهُمْ يَخْتَصِمونَ ويتنازعون فيما بَيْنَهُمْ ، إذْ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُريدُ أنْ يَكْفُلَ مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ويَفوزَ بِهذا الشَّرفِ ، ولَكِنْ شاءَ اللهُ تعالى ، أنْ يَكونَ الكافِلُ سَيِّدَنا زَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلامُ .

التَّبْشيرُ بعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ : اذْكُرْ يا مُحمَّدُ وَقْتَ أنْ جاءَ جبْريلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للسَّيِّدةِ مَريمَ عَلَيْها الصَّلاةُ والسَّلامُ وبَشَّرها بكَلِمَةٍ مِنْهُ ، أيْ بمولودٍ يَحْصُلُ بكَلِمَةٍ مِنْهُ سُبْحانَهُ . وسُمِّيَ هذا المَوْلودُ كَلِمَةً لأنَّهُ وُجدَ بكَلِمَةِ (كُنْ) ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وُجِدَ مِنْ غَيْرِ مَأْلوفِ النّاسِ ، وذَلِكَ أنّ غَيْرَهُ مِنَ البَشَرِ وإنْ وُجِدوا بِتِلْكَ الكَلِمَةِ ، ولكِنْ بواسِطَةِ أبٍ ، وهذا المَولودُ اسمُهُ المَسيحُ عيسى ابنُ مَرْيَمَ ، والمَسيحُ لَقَبٌ مِنَ الألْقابِ المُشرَّفةِ يعْني المُبارَكَ ، وعيسى اسمٌ يَدلُّ عَلى البَياضِ والصَّفاءِ والنّقاءِ ، ومَرْيمُ أمُّهُ ، وهذا يدُلُّ عَلى أنّ نسبَهُ ثابتٌ لأمِّهِ ، ولَيْسَ لأحَدٍ سِواها كما يدّعي النَّصارى .

وذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِسَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تَدُلُّ عَلى فَضْلِهِ وعُلوِّ مَنْزِلَتِهِ ، وهذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : أنَّهُ ذو جاهٍ وشَرَفٍ ومَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ في الدُّنيا والآخِرَةِ .

٢ـ ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : هُوَ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى المقرَّبينَ إليهِ .

٣ـ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : أنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَوْفَ يُكلِّمُ النّاسَ في حالِ كَوْنِهِ صَغيراً ، أي : قَبْلَ أنْ يَحينَ مَوْعِدُ الكَلامِ للصِّغارِ ، كَما يُكلِّمُهُمْ في حالِ كُهولَتِهِ ، واكْتِمالِ شَبابِهِ ، وقَدْ كَلَّمَ النّاسَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهُوَ في المَهْدِ صَغيراً .

٤ـ ﴿ وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أي : مِنْ عِبادِ اللهِ الّذينَ أنْعَمَ عَلَيْهِمْ وأصْلَحَ حالَهُمْ ، واخْتارَهُمْ لِحَمْلِ رِسالَتِهِ وتَبْليغِها للنّاسِ .

هذا ما ذَكَرَتْهُ الملائِكَةُ لِمريمَ عَلَيْها السَّلامُ ، ولكِنْ ماذا كانَ مَوْقِفُها ؟ لَقَدْ تَعجَّبَتْ ودُهِشتْ ممّا يُقالُ لَها :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ . لَقَدْ قالَتْ عَلى سَبيلِ التَّعجُبِ والاسْتِغرابِ : كَيْفَ

يكونُ لي وَلَدٌ يا ربِّ والحالُ أنَّني لمْ أتزوَّجْ ، ولمْ يَحْصُلْ مِنّى ما يَكونُ بَيْنَ الرَّجلِ والمَرأةِ حتّى يَكونَ عِنْدي وَلَدٌ ؟

وَهُنا يُزالُ عَجَبُ مَرْيَمَ واسْتِغْرابُها ويُقالُ لَها : ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إلاّ أنَّها قِيلَ لَها هُنا : (يَخْلُقُ) ، وهِيَ تَدُلُّ عَلى الإبْداعِ والإيجادِ ، ولَوْ لَمْ يَجْرِ عَلى قوانينِ الأَسْبابِ المَعْروفةِ ، وذَلِكَ أنَّ يحيى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وُجِدَ بواسِطَةِ زَوْجَينِ وهذا كإيجادِ سائِرِ البَشَرِ فَعَبَّرَ سُبْحانَهُ بالفِعْلِ ، أمّا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَوُجِدَ مِنْ أمٍّ دونَ أبٍ فَعَبَّرَ بالخَلْقِ .

قيلَ لِمَريمَ إنَّ اللهَ تَعالى يَخْلُقُ ما يشاءُ كَهذا الخَلْقِ الّذي تَجدينَهُ بأنْ يَكونَ لَكِ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ أنْ يَمَسَّكِ بَشَرٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُبْدِعُ ما يشاءُ لا رادَّ لِمَشيئَتِهِ ، وإنّما يَقولُ للشَّيءِ الّذي يُريدُهُ (كُنْ) فَيكونُ مِنْ غَيْرِ تأخُّرٍ ومنْ غيرِ وُجودِ أسْبابٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعْجِزُهُ أنْ يَخْلُقَ وَلَداً مِنْ غيرِ أبٍ ، وهُوَ أوْجَدَ آدمَ عليهِ السّلامُ بَشَراً مِنْ غَيْرِ أمٍّ ولا أبٍ كذلِكَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ خَيْرُ النِّساءِ في الدُّنيا والآخِرَةِ السَّيِّدةُ مَرْيمُ عَلَيْها السَّلامُ .

٢ـ المُحافَظَةُ عَلى أداءِ العِباداتِ مَعَ اسْتِشْعارِ الخُشوعِ والتَّذلُّلِ والتَّواضُعِ للهِ تَعالى .

٣ـ القَصصُ القُرآنيُّ أكْبرُ دَليلٍ عَلى صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ وعلى أنَّ هذا القُرْآنَ كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

٤ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى اصْطَفاهُ وكَرَّمَهُ بالرِّسالَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي قالَتْهُ الملائكَةُ لِمَرْيَمَ عَليها السّلامُ ؟

٢ـ فَرِّقْ بَيْنَ الاصْطِفاءِ الأَوّلِ والاصْطِفاءِ الثّاني في قَوْلِهِ تَعالى ﴿اصْطَفَاكِ﴾ و﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ .

٣ـ مِمَّ طُهِّرَتِ السَّيِّدةُ مريمُ عَلَيْها السَّلامُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ مِنَ اصْطِفائِها عَلى نِساءِ العالَمينَ ؟

٥ـ هَلْ كانتِ الصَّلاةُ الّتي أُمرَتْ بِها السَّيِّدةُ مريمُ مثل صَلاتِنا ؟

٦ـ عَلامَ يَدُلُّ قولُهُ تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ ؟

٧ـ بِمَ بُشِّرَتِ السَّيدةُ مَرْيمُ عَلَيها السّلامُ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِعيسى عَلَيْهِ السّلامُ ، اذكُرْها .

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ ؟

١٠ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ قولِهِ تعالى : ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقولِهِ تَعالى : ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أواخِرَ سورةِ التَّحريمِ الدَّالَّةَ عَلى فَضْلِ مَرْيمَ عَلَيْها السَّلامُ .

٢ـ ذَكَرَتْ سورةُ مَرْيمَ ما تَكلَّمَ بِهِ سيّدُنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهُوَ في المَهْدِ ، اكْتُبِ الآياتِ الكَريمةَ في دفْتَرِكَ .

٣ـ مَنِ الّذي أوْجَدَهُ اللهُ تَعالى مِنْ غَيْرِ أُمٍّ ولا أبٍ ؟ وَمَنِ الّذي أوْجَدَهُ مِنْ غيرِ أُمٍّ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الحادي عَشَرَ

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الكِتابَ : الكِتابَةَ والخَطَّ باليَدِ وعِلْمَ الكِتابِ السّماويّ الّذي كانَ مَوْجوداً وَقْتَهُ .

الحِكْمَةَ : الإصابَةَ في القَوْلِ والعَمَلِ .

الأَكْمَهَ : مَمْسوحَ العَيْنِ ، وهُوَ مَنْ وُلِدَ أعْمى لا يُبْصِرُ .

الأَبْرَصَ : البَرَصُ : مَرَضٌ يُصيبُ الجِلْدَ .

تَدَّخرونَ : تُخبِّئونَ للأَكْلِ فيما بَعْدُ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ صِفاتِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وعَنْ مُعْجزاتِهِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ تَكفَّلَ بِتَرْبيتِهِ ، وتَنْشئَتِهِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ علَّمَهُ الكِتابَ بالخَطِّ ، وعَلَّمَهُ الحِكْمَةَ الّتي هِيَ العِلْمُ

الصَّحيحُ الّذي يَبْعَثُ الإرادةَ إلى العَمَلِ النّافِعِ ، وعَلَّمَهُ التَّوراةَ الّتي هي الكِتابُ الإلهيُّ الّذي أُنْزِلَ عَلى سيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وقَدْ أَخَّرَ تَعليمَ التَّوراةِ عَنْ تعليمِ الخَطِّ والحِكْمَةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ أنَّهُ يُعَلِّمُهُ الإنْجيلَ كَذَلِكَ ، وهَذا الّذي عَلَّمَهُ اللهُ دَرَجَةٌ عَظيمَةٌ ومَرْتَبَةٌ عُليا خصَّ بِها نبيَّهُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقَدْ خَصَّهُ اللهُ تَعالى بِكِتابٍ يُنزِّلُهُ عَلَيْه .

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ لِمَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ هُوِيَّةَ القَوْمِ الّذينَ سُيبْعَثُ إليْهِمْ وهُمْ بَنو إسْرائيلَ ، وقَدْ أكْرَمَهُ اللهُ تَعالى بأنْ أيّدَهُ بمُعْجزاتٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِ رسالتِهِ ، وهَذِهِ الآياتُ والمُعْجزاتُ مِنْ ربِّكُمْ الّذي خَلَقَكُمْ وربّاكُمْ وتعهدكُمْ بالرِّعايةِ وَرَزَقَكُمْ ، ولِذا عَلَيْكُم أنْ تُؤْمنوا بِهِ أيُّها النّاسُ ، وهَذِهِ المُعْجزاتُ هِيَ :

١ـ ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ هَذِهِ أوّلُ مُعْجزةٍ لِسيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهِيَ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنَ الطِّينِ جِسْماً عَلى هَيْئَةِ الطَّيْرِ ، ثُمَّ إنَّهُ سَيَنْفُخُ في هذا الطَّيْرِ المَصنوعِ مِنَ الطِّينِ ، فَيَصيرُ بَعْدَ ذَلِكَ طائِراً حَقيقيّاً ذا حياةٍ بإذْنِ اللهِ تَعالى ، فهذا الّذي فَعَلَهُ إنَّما هُوَ بإذْنِ اللهِ وأمْرِهِ وإرادَتِهِ وتَيْسيرِهِ .

٢ـ ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ ويُقالُ إنَّ الأَكْمَهَ هُوَ الأَعْمَى ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّهُ الّذي خُلِقَ وهُوَ مَمْسوحُ العَيْنِ ، أي : لا عَيْنَ لَهُ أصْلاً ، فَهذِهِ لا شَكَّ مُعْجِزَةٌ ، إذْ لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ عِلاجُ الأكْمَهِ ، حتّى الطِّبُّ في وَقْتِنا هذا لا يُمْكِنُهُ ذلِكَ ، ولَكِنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، جَعَلَهُ يُبْصِرُ بأَمْرِ اللهِ تَعالى .

٣ـ إبراءُ الأَبْرَصِ ، والأَبْرَصُ هُوَ الّذي يَكونُ في جِلْدِهِ بَياضٌ مَشوبٌ بِحُمْرَةٍ ، وَهُوَ مَرَضٌ مِنَ الأَمْراضِ المُنَفِّرَةِ الّتي عَجِزَ الأطبّاءُ حتّى يَوْمِنا عَنْ شِفائِها .

٤ـ إحْياءُ المَوْتى بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، وهَذِهِ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ ، أنْ يُحيِيَ الإنْسانَ الّذي ماتَ ، وهذا الّذي يَفْعَلُهُ إنَّما هُوَ بِأَمْرِ اللهِ تَعالى وتَيْسيرِهِ وإرادَتِهِ .

٥ـ إنباؤُهُمْ بما يَأْكُلونَ ومَا يَدَّخِرُونَ ، والإنْباءُ : الإخْبارُ عَنِ الأَمْرِ العَظيمِ الشَّأْنِ ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَيُخْبِرُكُمْ بالشَّيءِ الّذي تأْكُلونَهُ ، وبالشَّيءِ الّذي تُخَبِّئُونَهُ في بيوتِكُمْ لِوَقْتِ حاجَتِكُمْ إليْهِ ، ولا شَكَّ أنَّ هذا أيْضاً يَدُلُّ عَلى صِدْقِهِ ، لأنّ الإخْبارَ عَنِ الأَمْرِ الغَيْبيِّ الّذي لَمْ يُشاهِدْهُ دَليلٌ عَلى أنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أعطاهُ عِلْمَ ما أخْبَرَ بِهِ .

هذهِ هِيَ مُعْجزاتُ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جاءَتْ صَفْعَةً لأُولئِكَ اليَهودِ الّذينَ كانوا لا يُؤْمنونَ إلاّ بالأُمورِ الماديَّةِ ، فَكانَتْ هَذِهِ المُعْجزاتُ بَعيدةً عَنِ المادةِ .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

ويُبيِّنُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أنَّهُ جاءَ كذلِكَ مُصدِّقاً لِما بَيْنَ يَديْهِ مِنَ التَّوراةِ ، أي : جئتُ مُقَرّراً لِما تَقدَّمَ قَبْلي ، ولَمْ أكُنْ ناسِخاً لِرِسالةِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بَلْ مُصدِّقاً لها ، مُقرِّراً وعامِلاً بِها ، ولكنَّ الّذي كانَ أنْ نُسِخَتْ بَعْضُ الأَحْكامِ الّتي كانَ فيها شيءٌ مِنَ الشِّدَّةِ عَلى بَني إسْرائيلَ ، فَجئْتُ مُخفِّفاً عَنْهُمْ ، وأَحلَلْتُ لَهُمْ بَعْضَ الطَّيباتِ الّتي حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ .

وحَثَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَوْمَهُ عَلى الإيمانِ بِما جاءَهُمْ بِهِ مِنْ آياتٍ لِيَسْتَجيبوا لَهُ ، ولِيَكونَ كَلامُهُ مُؤثِّراً فيهِمْ ، ثُمَّ خوَّفَهُمْ فَقالَ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ مِنْ لوازِمِ تَقوى اللهِ ، فَبيَّنَ أنَّهُ إذا لَزِمَكُمْ أنْ تتَّقوا اللهَ لَزِمَكُمْ أنْ تُطيعوني ، إنَّ هذهِ المُعْجزاتِ الّتي جِئْتُكُمْ بِها لَنْ تُخْرِجَني عَنْ كَوْني عَبْداً للهِ تَعالى ومَخْلوقاً لَهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ هذا الإلهُ هُوَ الّذي خَلَقَني وخَلَقَكُمْ ، ورَزَقَني ورَزَقَكُمْ وتَوَلاّني وتولاّكُمْ بالعِنايةِ والرِّعايَةِ ، فَهُوَ إذنْ وَحْدَهُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أنْ تُخْلِصوا لَهُ سُبْحانَهُ العِبادَةَ ، لأنَّ هذا هُوَ الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ، هُوَ وَحْدَهُ الموصِلُ إلى رِضا اللهِ تَعالى . وهكذا نَرى أنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ خَتَمَ كَلامَهُ بالدَّعْوَةِ إلى تَوْحيدِ اللهِ تَعالى ، والاعتِرافِ لَهُ وَحْدَهُ بالعُبودِيَّةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِد الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نبيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

٢ ـ الحَكيمُ هُوَ الّذي يَتَوخَّى دائماً الصَّوابَ في القَوْلِ والعَمَلِ .

٣ ـ أيَّدَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِبَعْضِ المُعْجزاتِ لِتَكونَ صَفْعَةً للماديَّةِ والمادِّيينَ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ إلاّ بِما هُوَ مَحْسوسٌ .

٤ ـ طاعةُ اللهِ تَعالى وعِبادَتُهُ هِيَ الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الموصِلُ إلى رِضا اللهِ وإلى جَنّاتِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لَقَدْ عَلَّمَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، ما المَقْصودُ بِهما ؟

٢ـ لِماذا كانَ تعلُّمُ التَّوْراةِ بَعْدَ تَعَلُّمِ الحِكْمَةِ والكِتابِ ؟

٣ـ ما المُعْجِزاتُ الّتي أيَّدَ اللهُ بها عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟ اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كما جاءَتْ في الآياتِ .

٤ـ بيِّنِ المَقْصودَ بالأَكْمَهِ والأَبْرَصِ .

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾ ؟

٦ـ لِكَيْ يَصِلَ الإِنْسانُ إلى الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، ما الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِ فِعْلُهُ ؟

نَشاطٌ :

ـ ما الأَطْعِمَةُ الّتي حَرَّمَها اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ الثّاني عَشَرَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَحَسَّ : عَلِمَ وعَرَفَ ، والإحْساسُ : الإدْراكُ .

أنْصاري : أَعْواني الّذينَ يتَّبعونَ دينَ اللهِ .

الحَواريُّونَ : المُؤْمِنونَ الأَصْفياءُ .

مَكروا : دبَّروا تَدْبيراً مُحْكَماً .

التَّفْسيرُ :

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ .

لَقَدْ بَدَأَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَدْعو قَوْمَهُ كَما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى وجاءَ قَوْمَهُ بالمُعْجِزاتِ الباهِرَةِ الّتي تَشْهَدُ بِصِدْقِهِ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ أُذُناً صاغِيَةً ، ورَأى أَنَّ بَني إسْرائيلَ مُصِرُّونَ على الكُفْرِ والعِنادِ ، وأَحَسَّ هذا الأَمْرَ مِنْهُمْ وَعَلِمَهُ عِلْماً يَقينيّاً ، وعِنْدَ ذَلِكَ تَوجَّهَ لِلْبَحْثِ عَمَّنْ يَكونُ مُسْتَعِداً

لِنُصْرَةِ دينِ اللهِ وَتبليغِ دَعْوَتِهِ ، فَقالَ : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قالَ ذَلِكَ حَضّاً لَهُمْ عَلى المُسارَعَةِ إلى نُصْرَةِ الحَقِّ ، فَهُمْ يَنْصُرونَهُ لأَنَّهُ يُدافِعُ عَنْ دينِ اللهِ ويُبَشِّرُ بِهِ .

وَكَعادَةِ الأَقْوامِ السّابِقينَ ، كانَ الكافِرونَ هُمُ الكَثْرَةُ ، ولِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ﴾ حَيْثُ نَسَبَ الكُفْرَ إِلَيْهِمْ وهُمُ الأَغْلَبُ ، أَمّا القِلَّةُ القَليلَةُ الّذينَ آمَنوا بِهِ فَقَدْ لَبّوا نِداءَ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، وهُمُ الحَوارِيّونَ فَقالوا نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ ، والحَوارِيُّونَ هُمْ أَنْصارُ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الّذينَ آمَنوا بِهِ وصَدَّقوهُ وأَخْلَصوا لَهُ ولازَموهُ ، وسُمُّوا كَذلِكَ لِشِدَّةِ إِخْلاصِهِمْ ، فَأَصْلُ الكَلِمَةِ الحَوَرُ : وَهِيَ شِدَّةُ البَياضِ أَوْ الخالِصُ مِنَ البَياضِ .

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

لَقَدْ وَقَفَ هَؤلاءِ الحَوارِيُّونَ مَعَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِنُصْرَةِ دينِهِ ، وإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وقَدْ نَطَقوا بالإيمانِ بِأَلْسِنَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَقَرُّوا بِهِ في قُلوبِهِمْ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ مُنْقادونَ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى مُخْلِصونَ لَهُ بالعِبادَةِ ، وهُمْ يَطْلُبونَ مِنْ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنْ يَكونَ شاهِداً لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، بِأَنَّهُمْ أَسْلَموا وُجوهَهُمْ للهِ ، إِنَّ هَذا كُلَّهُ يَدُلُّ عَلى قُوَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فيما يَدْعونَ ، فَهاهُمْ يَتوجَّهونَ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ والتَّضرُّعِ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ إِنَّنا يا ربِّ آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ عَلَيْنا وهُوَ الإِنْجيلُ ، وامْتَثَلْنا أَوامِرَ رَسولِنا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وقَدْ ذَكَروا الاتِّباعَ بَعْدَ الإيمانِ ، لأَنَّ العِلْمَ الصَّحيحَ وَهُوَ الإيمانُ يَسْتَلْزِمُ العَمَلَ ، فالعِلْمُ الّذي لَيْسَ لَهُ أَثَرٌ في العَمَلِ يَكونُ ناقِصاً ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ اكْتُبْنا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ مَعَ الشّاهِدينَ لِرَسولِكَ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ دَعْوَتَهُ ، ومِنَ الشّاهِدينَ عَلى قَوْمِنا بِأَنَّهم كَفَروا وجَحَدوا نَبِيَّهُمْ ، ومِنَ الشّاهِدينَ بِوَحْدانِيَّتِكَ ، العامِلينَ بِشَريعَتِكَ ، المُسْتَحِقِّينَ لِرِضاكَ وَرَحْمَتِكَ .

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ مَوْقِفِ الحَوارِيّينَ ، انْتَقَلَتْ لِتُحدِّثَنا عَنْ أُولئِكَ الّذينَ أَحَسَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ مِنهُمُ الكُفْرَ ، فَقالَ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ أي : مَكَرَ هَؤُلاءِ فَحاوَلوا قَتْلَهُ ، واتَّخَذوا كُلَّ وَسيلَةٍ حَتّى يَقْتُلوهُ ، ولَكِنَّ اللهَ تَعالى أَحْبَطَ مَكْرَهُمْ وأَبْطَلَ ما دبَّروهُ ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ أَحْكَمُ مَكْراً وأَقْدَرُ عَلى العِقابِ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، ورِعايَتِهِ لِنَبِيِّهِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ

والسَّلامُ ، بَعْدَ أنْ مَكرَ بِهِ قومُهُ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِنبيِّهِ إنّي يا عيسى قابِضُكَ مِنَ الأَرْضِ ورافِعُكَ إلى السَّماءِ بِجَسَدِكَ وروحِكَ لِتَسْتَوفِيَ حَظَّكَ مِنَ الحَياةِ هُناكَ ، والمَقْصودُ بالتوفّي هُنا أَخْذُكَ وافياً بروحِكَ وَجَسَدِكَ ، ومَعْنى : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ رافِعُكَ إلى مَحلِّ كَرامتي في السَّماءِ ، إنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَمُتْ ، فَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : ١٥٧ـ١٥٨] .

وعَنْ أبي هُريرَةَ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « يوشِكُ أنْ يَنْزِلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً يَقْتُلُ الدَّجالَ ، ويَقْتُلُ الخنزيرَ ، وَيَكْسِرُ الصَّليبَ ، وَيَضَعُ الجزْيَةَ ، وَيفيضُ المالَ ، وتَكونُ السَّجْدةُ واحدةً للهِ ربِّ العالَمينَ »[1] ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَذَلِكَ بإبْعادِكَ عَنْهُمْ ، وإنجائِكَ ممّا دبَّروهُ وخَطَّطوهُ لَكَ مِنَ القَتْلِ غيلَةً ، وتَبرِئَتِكَ ممّا أشاعوهُ عَلَيْكَ وعلى أُمِّكَ مِنْ أكاذيبَ وافْتِراءاتٍ .

﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ وَهُمُ الّذينَ آمَنوا بكَ وَصَدَّقوكَ ، فَوْقَ الّذين كَفروا بكَ وبِغَيْرِكَ مِنَ الرُّسُلِ إلى يَوْمِ القيامةِ . والمَقْصودُ بالفَوْقيَّةِ : فَوقيَّةٌ رَوْحانيَّةٌ ، وهِيَ كَوْنُهُمْ أَحْسَنَ أخْلاقاً وأَكْمَلَ أدَباً وأَقْرَبَ إلى الحَقِّ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ومَصيرُكُمْ أيُّها النّاسُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الحَكَمُ العَدْلُ ، الّذي يَحْكُمُ فيما كُنْتُمْ تَخْتَلِفونَ فيهِ في دُنياكُمْ مِنْ شُؤونٍ دينيَّةٍ ودُنيويَّةٍ ، ثُمَّ يَفصِلُ بَيْنَكُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ويُحاسِبُ كُلاًّ عَلى عَمَلِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ هُوَ دينُ اللهِ تَعالى الّذي جاءَ بِهِ كُلُّ نَبيٍّ .

٢ـ العِلْمُ الصَّحيحُ هُوَ الّذي يُثْمِرُ العَمَلَ الصّالِحَ ، ومَنِ ادّعى العِلْمَ دونَ عَمَلٍ كانَ عِلْمُهُ ناقِصاً لا جَدوى مِنْهُ .

٣ـ المَكْرُ السَّيِّءُ لا يَحيقُ إلاّ بأَهْلِهِ .

٤ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يُقْتَلْ ولمْ يُصْلَبْ ، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب : نزول عيسى عليه السلام ، حديث رقم ٣٢٦٤ .



التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ماذا كانَ مَوْقِفُ بَني إسْرائيلَ مِنْ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٢ـ ما الّذي فَعَلَهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ عِنْدَما أحَسَّ مِنْ قَوْمِهِ الكُفْرَ ؟

٣ـ مَنْ هُمُ الحَوارِيُّونَ ؟

٤ـ بِماذا أجابوا عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِ الحواريّينَ ﴿آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بالتَّوفّي والرَّفع ؟

٧ـ كَيْفَ طَهَّرَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ الّذين كَفَروا ، وجَعَلَ أَتْباعَهُ فَوْقَ الكافِرينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ لِكُلِّ نَبيٍّ حَوارِيّاً ، فَمَنْ حَوارِيُّ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورةِ الأنْفالِ الّتي تُبيِّنُ مَكْرَ قريشٍ برسولِ اللهِ ﷺ .

٣ـ بَيِّنْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ حَديثُ الرَّسولِ ﷺ الواردِ في شَرْحِ الآيةِ (٥٥) ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُمْتَرينَ : الشّاكّينَ .

حاجَّكَ : جادَلَكَ وخاصَمَكَ .

تعالَوْا : اسْمُ فِعْلِ أَمْرٍ لِطَلَبِ القُدومِ .

نَبْتَهِلْ : نَتَلاعَنْ ، وأَصْلُ الابْتِهالِ : الاجْتِهادُ في الدُّعاءِ بالنَّصِّ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى يَحْكُمُ بَيْنَ النّاسِ فيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفونَ ، ثُمَّ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ سُبْحانَهُ ، ويُحاسِبُ كُلاًّ على عَمَلِهِ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

أمّا الّذين كفروا فَسَوْفَ يُعذِّبُهُمُ اللهُ عَذاباً شَديداً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وذَلِكَ بأنْ جَعلَ العَداوةَ والبَغْضاءَ بَيْنَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ يُعانونَ مِنَ الحُروبِ والهَزائمِ والأَمراضِ ، هَذا في الدُّنْيا ، أمّا في الآخِرَةِ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ يَسوقُهُمْ إلى عَذابِ النّارِ ، وما لَهُمْ مِنْ ناصرٍ يَنصُرُهُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى .

هَذا هُوَ جَزاءُ الكافِرينَ ، أمّا جَزاءُ المُؤْمِنينَ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ سَيُعْطيهِمْ فَضْلاً مِنْهُ وإحْساناً ، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ ، وسَيُعْطيهِمْ أُجورَهُمْ كامِلَةً . وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنَّ ما كانَ مِنْ أُولئِكَ الكافِرينَ مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ ، حَيْثُ افْتَرَوْا عَلى السَّيْدةِ مَرْيم وابْنَها ، واتَّهموها بالفاحِشَةِ ، وقالوا : إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ ، وقالوا : إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

ذَلِكَ الّذي تَقدَّمَ مِنْ خَبَرِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، نَتْلوهُ عَلَيْكَ مِنَ الحُجَجِ الدّالَّةِ عَلى نُبوَّتِكَ ، والذِّكْرِ ، أي : القُرْآنِ المُحْكَمِ الّذي لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ، والّذي يُبيِّنُ وُجوهَ العِبَرِ في الأَخْبارِ ، والحِكَمَ في الأَحْكامِ ، فَيَهْدي المُؤْمِنينَ إلى لُبابِ الدّينِ وفِقْهِ الشَّريعةِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ شُبْهَةِ أُولئِكَ المَفْتونينَ المُنْكِرينَ الّذينَ يُحاجّونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ في وِلادَةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

وحالُهُ الغَريبةُ في خَلْقِ اللهِ تَعالى إيّاهُ عَلى غَيْرِ مِثالٍ سابقٍ كَشَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . وحالُهُ الغَريبةُ العَجيبةُ ، في أنَّ كِلَيْهِما قَدْ خَلَقَهُ اللهُ تَعالى مِنْ غيرِ أبٍ ، وأنَّ شَأْنَ آدمَ أشَدُّ عَجباً ، إذْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أبٍ ولا أمٍّ كَذلِكَ .

إنَّ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خَلَقَهُ اللهُ مِنْ تُرابٍ ، أيْ : كوَّنَ جِسْمَهُ مِنْ تُرابٍ مَيِّتٍ أصابَهُ الماءُ ، فَكانَ طيناً فيهِ لُزوجَةٌ ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي : كَوَّنَهُ تَكْويناً آخَرَ بِنَفْخِ الرُّوحِ فيهِ ، وعَبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَكونُ) لاسْتِحضارِ الصُّورةِ وهِيَ تَدُلُّ عَلى اسْتِمرارِ الخَلْقِ بالنِّسْبَةِ للهِ تَعالى ، إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ولَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ ولا أُمٌّ ، كَذلِكَ حالُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الّذي اخْتُصَّ بِطَرَفِ الأُمِّ دونِ طَرَفِ الأَبِ .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

إنَّ ما أخْبَرَ اللهُ بِهِ عِبادَهُ عَنْ شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هُوَ الحَقُّ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وما دامَ حقّاً لا مجالَ للشَّكِ فيهِ ، فعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أنْ تَثْبُتَ عَلى ما أنْتَ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ ، ولا تَكُنْ في ذَلِكَ مِنَ الشَّاكّينَ ، والنَّبيُّ ﷺ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ شاكّاً في الحقِّ ، فالخِطابُ لَهُ ، ولكنْ يُقْصَدُ بِهِ أمَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ لِنبيِّهِ ﷺ : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ مَنْ حاجَّكَ وجادَلَكَ بَعْدَ هَذهِ الدَّلائِلِ الواضِحَةِ والأَجْوبَةِ القاطِعَةِ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَلا تُبادِلْهُ الكَلامَ ، ولا تُجادِلْهُ كما يُجادِلُكَ ، إذْ هُوَ مُعانِدٌ لا يُقْنِعُهُ الدَّليلُ حتّى لَوْ كانَ واضِحاً أشَدَّ الوُضوحِ ، ولَكِنْ قُلْ لَهُمْ ولأَمْثالِهِمْ : ﴿ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

إنَّ هَذهِ الآياتِ تَتحدَّثُ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، ومِنْهُمْ وَفْدُ نَجْرانَ النَّصارى الّذينَ جاءوا يُحاجُّونَ النَّبيَّ ﷺ في شأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ويَزْعُمونَ أنَّهُ ابنُ اللهِ ، وأنَّهُ هُوَ اللهُ ، وكانوا ستّينَ راكِباً يتزعَّمُهُمْ ثَلاثَةٌ : الأميرُ وهُوَ مُلقَّبٌ بالعاقِبِ واسْمُهُ عَبْدُ المسيحِ ، وصاحِبُ الرَّحْلِ واسْمُهُ الأَيْهَمُ ، والحَبْرُ أبو الحارِثِ بنُ عَلْقَمةَ ، ولمّا نَزَلَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ شأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِمُلاعَنَتِهِمْ ، دَعاهُمْ إلى ذلِكَ فَقالوا لَهُ : يا أبا القاسِمِ : دَعْنا نَنْظُرْ في أمْرِنا ثُمَّ نَأْتيكَ بِما نُريدُ أنْ نَفْعَلَ فيما دَعَوْتَنا إليهِ ، فانْصَرَفوا عَنْهُ ، ثُمَّ خَلَوا بالعاقِبِ ، وكانَ ذا رَأْيٍ فيهِم ، فَقالوا : يا عبدَ المسيحِ ، ماذا تَرى ؟ فَقالَ : واللهِ يا مَعْشَرَ النَّصارى لَقَدْ عَرَفْتُمْ أنَّ مُحمّداً لَنبيٌّ مُرْسَلٌ ، ولَقَدْ جاءَكُمْ بالفَصْلِ مِنْ خَبَرِ صاحِبِكُمْ ، ولَقَدْ عَلِمْتُم ما لاعَنَ قومٌ نبيّاً قَطُّ فَبَقِيَ كَبيرُهُمْ ، ولا نَبَتَ صَغيرُهُمْ ، وإنَّه لَلاسْتِئْصالُ مِنْكُمْ إنْ فَعَلْتُم ، فإنْ كُنْتُمْ أَبيتُمْ إلاّ إلفَ دينِكُمْ ، والإقامَةَ عَلى ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ القَولِ في صاحِبِكُمْ ، فواعِدوا الرَّجُلَ ، ثُمَّ انْصَرِفوا إلى بِلادِكُمْ ، فَأَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ فَقالوا : يا أبا القاسِمِ ، قَدْ رَأَيْنا ألاّ نُلاعِنَكَ ، ونَتْرُكَكَ عَلى دِينِكَ ونَرْجِعَ عَلى دينِنا ، ولَكِنْ ابْعَثْ رَجُلاً مِنْ أصحابِكَ تَرْضاهُ لَنا يَحْكُمُ بَيْنَنا في أشْياءَ اخْتَلَفْنا فيها مِنْ أَمْوالِنا ، فإنَّكُمْ عِنْدَنا رِضا[1] .

وَعَنْ سَعيدِ بنِ أبي العاصِ قالَ : لمّا نَزَلَتْ هَذهِ الآيَةُ : ﴿تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ﴾ دَعا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٨٤) .

رسولُ اللهِ ﷺ فاطمةَ وحَسَناً وحُسَيْناً ، فقالَ : (اللّهمّ هَؤلاءِ أَهْلي)[1] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

وَيُؤكّدُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى صِدْقِ هذا القَصصِ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ فما ذَكَرْناهُ في شَأْنِ المسيحِ هُوَ الحَقُّ ، وما عَداهُ مِنْ قَوْلِ القائِلينَ عَنْهُ أَنَّهُ وَلَدُ زِنا ، وقَوْلُ الغالِينَ فيهِ إنَّهُ اللهُ أو ابنُ اللهِ ، فباطلٌ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ نَفْيٌ قاطِعٌ لأَنْ يَكونَ هُناكَ إلهٌ سِوى اللهِ تَعالى ، وإِثْباتُ أَنَّ الأُلوهِيَّةَ الحقَّةَ إنَّما هِيَ للهِ تَعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُساويهِ أَحَدٌ في عِزَّتِهِ ومُلْكِهِ ، وَلا في حِكْمَتِهِ في خَلْقِهِ ، فَيَكونُ شَريكاً لَهُ في أُلوهيَّتِهِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ وأَعْرَضُوا ولم يُجيبوا الدَّعْوَةَ إلى المُباهَلةِ ، ولمْ يَقْبَلوا عَقيدةَ التَّوْحيدِ الخالِصِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لِعقائِدِ النّاسِ بإِصْرارِهِمْ عَلى الباطِلِ ، مُقلِّدينَ في هذا الباطِلِ غَيْرَهُمْ مِنْ غَيْرِ بُرْهانٍ ولا دَليلٍ .

وَبِهذا تَكونُ الآياتُ قَدْ تحدَّثَتْ عَنْ آلِ عِمرانَ : زكريّا ، ويحيى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمَرْيَمَ وابنها عيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَبيّنَتِ القَوْلَ الحَقَّ في شَأْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ خَلْقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أعْجَبُ مِنْ خَلْقِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ .

٢ـ أَهْلُ الكِتابِ يَعْتَقِدونَ صِدْقَ الرّسولِ ، ولَكنَّهُمْ لِعنادِهِمْ وجُحودِهِمْ وتَكبرُّهِمْ يُحاجُّونَ ويُجادِلونَ .

٣ـ الحَقُّ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما أَخْبَرَتْ بِهِ الآياتُ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُاللهِ اصطَفاهُ اللهُ ، ولَيْسَ إلهاً أَوْ ابْناً للهِ كَما يَدّعي النَّصارى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ الجَزاءِ الّذي أعدَّهُ اللهُ لِلْكافِرينَ والجَزاءِ الّذي أَعَدَّهُ لَلْمُؤْمنينَ .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، آل عمران ، حديث رقم ٣٠٠٢ وقال حديث غريب صحيح .

٢ـ ما الشُّبْهَةُ الّتي يُثيرُها الكافِرونَ في شأنِ عيسى عليْهِ السَّلامُ ؟

٣ـ بِمَ ردَّتْ عَليْهِمُ الآياتُ القُرآنيّةُ ؟

٤ـ هَلْ كانَ النَّبيُّ شاكًّا في شأْنِ عيسى حتّى يُقالَ لهُ : ﴿فَلا تكُنْ مِنَ الْمُمْترِينَ﴾ ؟

٥ـ فيمَنْ نزَلَتِ الآياتُ ﴿تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ﴾ ؟

٦ـ بِمَ سُمِّيَتْ هذهِ الآياتُ ؟

٧ـ لِماذا دَعاهُمُ النَّبيُّ للمُلاعَنةِ ؟ وهَلْ أجابوا دَعْوتَهُ ؟

٨ـ علامَ يَدُلُّ عَدَمُ اسْتِجابَتِهِمْ للنَّبيِّ ومُلاعنَتِهِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورةَ المُباهَلةِ (المُلاعَنةِ) الّتي ذُكِرَتْ في الآياتِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عَشَرَ

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كَلِمَةٍ سواءٍ : كَلِمَةِ عَدْلٍ أَوْ كَلامٍ لا تَخْتَلِفُ فيهِ الشَّرائِعُ .

أَرْباباً : في مَنْزِلَةِ الرَّبِّ يُحلِّلونَ ويُحرِّمونَ .

التَّفْسيرُ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

ما زالتِ الآياتُ الكَريمةُ تَتَحدَّثُ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وتَرُدُّ عَلَيْهِمُ افْتِراءاتِهِمُ الَّتي افْتَرَوْها . فَقَدْ دَعاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلى المُباهَلَةِ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلوا خَوْفاً على أَنْفُسِهِمْ ، فَدَعاهُمْ إِلى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ عَدْلٌ بَيْنَ الفَريقَيْنِ وَوَسَطٌ ، يَقولُ سُبْحانَهُ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : هَلُمّوا وأَقْبِلوا إِلى كَلِمَةٍ عادِلَةٍ مُسْتَقيمَةٍ لَيْسَ فيها بُعْدٌ عَنِ الحَقِّ ، وبَيِّنْ لَهُمْ هذهِ الكَلِمَةَ العادِلَةَ الَّتي اتَّفَقَ عَلَيْها الأَنْبِياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جميعاً ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ هذا تَقْريرٌ لِوَحْدانِيَّةِ اللهِ

تَعالى ورُبوبيَّتِهِ ، أنْ لا يَعْبُدوا إلاّ اللهَ ، وَيَتْرُكوا عِبادَةَ غَيْرِه ، ولا يُشْرِكوا مَعَهُ أحَداً في العِبادَةِ والخُضوعِ ، ولا يُطيعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى .

إنَّ جَميعَ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ جاءوا يَدْعونَ إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى ، ولِذا فإنّنا نَحْنُ وأَنْتُمْ يا أهْلَ الكِتابِ نَعْتَقِدُ أنَّ هَذا العالَمَ مِنْ صُنْعِ إلهٍ واحِدٍ ، والمُتَصَرِّفُ فيهِ إلهٌ واحِدٌ ، فَتَعالَوْا بنا نَتَّفِقُ عَلى إقامةِ هَذِهِ الأُصولِ المُتَّفَقِ عَلَيْها ، وَنَرْفُضُ كُلَّ شُبْهَةٍ تَعْرِضُ لَها ، وما دامَ الإلهُ واحِداً فإنَّ لَهُ حَقَّ التَّشْريعِ والتَّحليلِ والتَّحْريم .

عَنْ عَديِّ بنِ حاتِمٍ قالَ : أَتَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقالَ يا عَديُّ : اطْرَحْ عَنْكَ هذا الوَثَنَ . وسَمِعْتُهُ يَقْرأُ في سورةِ بَراءةٍ : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ فَقُلْتُ لَهُ : يا رسولَ اللهِ ، لَمْ يَكونوا يَعْبُدونَهُمْ ، فَقالَ : أَلَيْسَ يُحرِّمونَ ما أحلَّ اللهُ فَيُحرِّمونَ ، ويُحلِّونَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلّونَ ؟ فقلتُ : بلى[1] .

لَقَدْ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ إلى عِبادةِ اللهِ وعَدَمِ الإشْراكِ بِهِ ، والتَّحاكُمِ إلى اللهِ تَعالى في التَّحْليلِ والتَّحْريمِ ، وأَرْشَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ إلى ما يَجِبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوْقِفُهُمْ إذا اسْتَمرَّ هَؤُلاءِ عَلى جُحودِهِمْ ، فَقالَ تَعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي : إنْ أعْرَضوا عَنْ دَعْوةِ الحَقِّ وانْصَرَفوا عَنْ مُوافَقَتِكُمْ بِسَبَبِ عِنادِهِمْ وجُحودِهِمْ ، فَلا تُجادِلوهُمْ وقولوا إنَّنا نَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ ، لا نَدْعو سِواهُ ، ولا نَتوجَّهُ إلى غَيْرِهِ في طَلَبِ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضُرٍّ ، ولا نُحِلُّ إلاّ ما أَحَلَّهُ اللهُ ، ولا نُحرِّمُ إلاّ ما حَرَّمَهُ اللهُ . وبِذلِكَ فَنَحْنُ نُلْزِمُكُمُ الحُجَّةَ ، ويَجِبُ عَلَيْكُمْ أنْ تَعْتَرِفوا وَتُسَلِّموا بأنّا مُسْلِمونَ .

إنَّ هَذِهِ الآيَةَ ذَكَرَتْ أَساسَ الدِّينِ المَتينِ ، ولِذلِكَ كانَ النَّبيُّ ﷺ يَدعو بِها أَهْلَ الكِتابِ إلى الإسْلامِ في كُتُبِهِ الّتي أَرْسَلَها لَهُمْ ، فَقَدْ كَتَبَ إلى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّوم : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيم ، مِنْ مُحمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم ، سَلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدى ، أمّا بعدُ ، فإنّي أَدْعوكَ بِدِعايَةِ الإسْلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسيِّينَ ، ويا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ ألاّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ أَحَداً » .

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

وتَوَجَّهتِ الآياتُ إلى نداءِ أهْلِ الكِتابِ مَرَّةً ثانِيَةً تَنْهاهُمْ عَنِ الجِدالِ بالباطِلِ في شَأْنِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ اللهُ تَعالى : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لِماذا تُجادِلونَ في دينِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير .

إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وشَريعتِهِ ، فتدَّعونَ أنَّهُ كانَ على اليَهوديَّةِ تارَةً ، وتارةً أُخْرى تدَّعونَ أنَّهُ كانَ عَلى النَّصرانيَّةِ ، إنَّ كلامَكُمْ لَيْسَ عَلَيْهِ أيُّ دَليلٍ ، وذَلِكَ أنَّ التَّوراةَ والإنْجيلَ ما أُنْزِلَتا إلاّ بَعْدَهُ ؟ وإذا كُنْتمْ تقولُونَ أيها اليَهودُ إنَّ الحقَّ لَيْسَ إلاّ في التَّوراةِ ، وأنتُمْ أيُّها النَّصارى إذا كُنْتُمْ تقولُونَ إنَّ الحَقَّ لَيْسَ إلاّ في الإنْجيلِ ، وهُما لَمْ يَنزِلا إلاّ بَعْدَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَكَيْفَ يَكونُ إبراهيمُ عَلى الحَقِّ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ لَوْ كانَ عِنْدَكُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ، ولَوْ أنَّكُم لَمْ تَغْفَلوا ، لَما قُلْتُمْ هذا الّذي صَدَرَ عَنْكُمْ . والاسْتِفْهامُ جاءَ لِتَوْبيخِهِمْ .

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) ﴾ .

لَوْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ يَعْقِلونَ لَما جادَلوا في أُمورٍ لا يَعْلَمُونَها ، فإذا كانوا يُحاجُّونَ ويُجادِلونَ في أُمورٍ يَعْلَمونَها ، لأنَّهُمْ وَجَدوها في كُتُبِهِمْ ، وذَلِكَ مِثْلُ جدالِهِمْ في أَمْرِ عيسى وموسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أوْ جِدالِهِمْ في بَعْضِ الأَحْكامِ المَوْجودةِ فيهما ، فَكَيْفَ يُبيحونَ لأَنْفُسِهِمْ أنْ يُجادِلوا في أُمورٍ لا يَعْلَمونَها ، وهِيَ كَوْنُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَهوديّاً أوْ نَصْرانِيّاً .

أَلَيْسَ الواجِبُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ الكِتابِ أن تَتَّبِعوا ما يُوحيهِ اللهُ تَعالى إلى عَبْدِهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؟ وذَلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُ حالَ إبْراهيمَ ودينَهُ ، ويَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ في هذا الوُجودِ ، أمّا أنْتمُ فَعِلْمُكُمْ قاصِرٌ ، ولا تَعْلَمونَ شَيْئاً مِمّا أخْبَرناكُمْ عَنْهُ .

فَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُبيِّنَ أنَّ الإسْلامَ هُوَ دينُ جَميعِ الأَنْبياءِ الذينَ يُؤْمِنُ بِهِمْ أَهْلُ الكِتابِ ، ومِنْهُمْ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ كانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَوْضِعِ إجْلالٍ مِنْ قِبَلِ اليَهودِ والنَّصارَى ، حَيْثُ كانَتْ كُتبُهُمْ تُثْني عَلَيْهِ ، وكانَتْ كَذَلِكَ قُريشٌ تُجِلُّهُ وتَدَّعي أنّها عَلى دينِهِ ، فَأرادَ اللهُ أنَّ يُبيِّنَ لَهُمْ جميعاً أنَّ هذا النَّبيَّ الكَريمَ الّذي كانوا يُجِلّونَهُ لَمْ يَكُنْ على شَيْءٍ مِنْ تَقاليدِهِمْ ، وإنَّما كانَ عَلى الإسْلامِ الّذي جاءَ يَدْعوهُمْ إليْهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ هُوَ دينُ الأَنْبياءِ جَميعاً عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ لَدُنِ آدَمَ إلى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ لا مَعبودَ بِحَقٍّ ولا رَبَّ بِصِدْقٍ إلاّ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ المُشَرِّعُ لِعبادِهِ ، ولِذا لا مُحلِّلَ ولا مُحرِّمَ إلاّ اللهُ .

٣ـ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لم يَكُنْ يَهوديّاً ولا نَصْرانيّاً ، ولَكنَّهُ كانَ مُسْلِماً .

٤ـ الإنْسانُ العاقِلُ لا يُجادِلُ إلاّ في الأُمورِ الّتي يَعْلَمُها ويُتْقِنُها ، أمّا ما لا يُتْقِنُهُ فيترُكُهُ ولا يَخوضُ فيهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ إلامَ دَعا النَّبيُّ ﷺ أَهْلَ الكِتابِ ؟

٢ـ ما الكَلِمَةُ الّتي هِيَ سواءٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ وأَهْلِ الكِتابِ ؟

٣ـ كَيْفَ يَتَّخِذُ النّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ المُسْلِمينَ مِنْ أَهْلِ الكتابِ إذا رَفَضوا دَعْوَتَهُمْ ؟

٥ـ هذهِ الآيةُ : ﴿تعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تُعَدُّ أساسَ الدّينِ المَتينِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٦ـ ناقَشَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ جادَلوا في شَأْنِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بيِّنْ ذلِك .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ رِسالةَ النَّبيِّ ﷺ إلى كِسْرَى .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الخامِسَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الباطِلِ إلى الحَقِّ .

مُسْلِماً : مُنْقاداً للهِ مُطيعاً لَهُ .

أَوْلى النّاسِ : أَحقُّهُمْ .

تَلْبِسونَ : تَخْلِطونَ .

التَّفسيرُ :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ تَرُدُّ على أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ ادَّعَوْا أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَهودِيّاً أَوْ نَصْرانِيّاً ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ رَدّاً قاطِعاً بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ وَلَكِنَّهُ كانَ حَنيفاً مائِلاً عَنِ العَقائِدِ الزّائِفَةِ الباطِلَةِ ، مُتَحَرِّياً طَريقَ الحَقِّ والاسْتِقامَةِ وكانَ مُسْتَسْلِماً للهِ تَعالى مُنْقاداً لَهُ ، مُخْلِصاً لَهُ العِبادَةَ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الّذينَ يُشْرِكونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً

أُخْرى ، فَيُسَمّونَ أَنْفُسَهُمُ الحُنَفاءَ ، وهُمْ قُرَيْشٌ ومَنْ وافَقَهُمْ مِنَ العَرَبِ ، ولَمْ يَكُنْ مِنَ المُشْرِكينَ الّذينَ يَقولونَ : إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ ، أَوْ يَقولونَ : عُزَيرٌ ابنُ اللهِ ، أَوَ يَقولونَ : المَسيحُ ابنُ اللهِ .

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ أَحَقَّ النّاسِ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَيسوا اليَهودَ ولا النَّصارى ولا المُشْرِكينَ ، ولَكِنَّ أحقَّهُمْ بالانْتِسابِ وأَقْرَبَهُمْ إليْهِ هُمْ ثَلاثةُ أَصْنافٍ :

الأولُ : ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي : الّذينَ أَجابوا دَعْوَتَهُ في حياتِهِ ، واتَّبَعوا دينَهُ وشَريعَتَهُ ، واهْتَدَوْا بِهَدْيِهِ ، ومِنْهُمْ لوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ .

الثاني : ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ والمَقصودُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ ، الّذي جاءَ يَدْعو إلى التَّوْحيدِ الخالِصِ ، وهُوَ ما دَعا إليْهِ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

الثّالِثُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي : الّذينَ آمَنوا بِمُحمَّدٍ ﷺ ، فَهُمْ أَهْلُ التَّوْحيدِ المَحْضِ ، والإخْلاصِ في الأَعْمالِ الّذي لا يُبْطِلُهُ شِرْكٌ ولا رياءٌ ، وهذا هُوَ روحُ الإسْلام ، والمَقْصودُ مِنَ الإيمانِ . فالإسْلامُ لَيْسَ مُجرَّدَ تَقاليدَ وكَلِماتٍ وحَرَكاتٍ يُؤَدّيها الإنْسانُ ، وَلَكِنَّ الإسْلامَ جاءَ لِتَنْقيةِ القُلوبِ وتَزْكيةِ النُّفوسِ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ ناصِرُ المُؤْمنينَ ومُتَوَلّي أُمورَهُمْ ، أولئِكَ الّذينَ لا يَتَوَجّهونَ إلى غَيْرِهِ سُبْحانَهُ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ ضُرّاً أَوْ يَجْلِبَ لَهُمْ نَفْعاً ، هَؤلاءِ هُمُ الّذينَ يَتَولّى أُمورَهُمْ ويُصْلِحُ شُؤونَهُمْ ، ويَتولّى إثابَتَهُمْ عَلى أعْمالِهِمْ ، نَسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنا مِنْهُم في الدُّنيا وَمَعَهُمْ في الآخِرَةِ .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

لَقَدْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ أَشَدَّ النّاسِ حِرْصاً عَلى إضْلالِ غَيْرِهِمْ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ تَمنَّتْ جَماعةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إضْلالَكُمْ عَنِ الحقِّ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وذلِكَ بأَنْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دينِ الإسْلامِ الّذي هَداكُمْ رَبُّكُمْ إليهِ ، ويَرُدّوكُمْ إلى دينِ الكُفْرِ الّذي يَعْتَنِقونَهُ هُمْ ، ولكنَّ هَؤلاءِ في الحَقيقَةِ ما يُهْلِكونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وغِوايَتِهِمْ ، واسْتيلاءِ الأَهْواءِ عَلى قُلوبِهِمْ ، وبِسَبَبِ إيثارِهِمُ العَمَى عَلى الهُدَى ، فَهُمْ يَعْبَثونَ بعُقولِهِمْ ، ويُفْسِدونَ فِطْرَتَهُمْ باخْتِيارِهِمْ ، ولكنَّهُمْ لا يَشْعرونَ بِذلِكَ ، ولا يَفْطَنونَ لَهُ ، لأَنَّ الشَّيْطانَ قَدْ زَيَّنَ لَهُمْ سوءَ عَمَلِهِمْ فرأَوْهُ حَسناً .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِنداءِ أَهْلِ الكِتابِ مُحاجَجَةً لَهُمْ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ والاسْتِفهامُ تَوْبيخِيٌّ تَعَجُّبيٌّ مِنْ شَأْنِهِمْ وحالِهِمْ ، أي : لِماذا تَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ تَعالى

الّتي يَتْلوها عَلَيْكُمْ نَبيُّهُ مُحمَّدٌ ﷺ ، والحالُ أنَكُمْ تَعْلَمونَ صِدْقَها وصِحَّتَها عِلْماً يَقينيّاً ، وتَعْلَمونَ كَذلِكَ أنَّ مُحَمّداً نبيٌّ حَقّاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ولَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْحَدونَ وتَتَعنَّتونَ .

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَعْطاكُمْ مِنَ العِلْمِ ما يَكْفيكُمْ لِتُسارِعوا إلى الإيمانِ ولَيْسَ إلى الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تَعالى .

وَوَجَّهَتْ لَهُمُ الآياتُ نِداءً آخَرَ ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ لِماذا تَخْلِطونَ الحَقَّ الّذي جاءَ بِهِ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، ونَزَلَتْ بِهِ الكُتُبُ ، وهُوَ عِبادةُ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وعَمَلُ البِرِّ والخَيْرِ ، وكَوْنُ الأَنْبياءِ بَشَّروا بِنَبيِّ اللهِ مُحمَّدٍ ﷺ ، لِمَ تَخْلِطونَ هذا الحَقَّ بالباطِلِ الّذي لَقَّنَكُمْ إيّاهُ أَحْبارُكُمْ ورُهْبانُكُمْ .

لَقَدْ نادتْهُمُ الآياتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وجاءَ الحديثُ مَعَهُمْ بِأُسْلوبِ الاسْتِفهامِ ، زيادةً في تَوْبيخِهِمْ والإنكارِ عَلَيْهِمْ والتَّعجُّبِ مِنْ شَأْنِهِمْ ، فَهُمْ قَدْ جَمَعوا أَفْحَشَ الرَّذائِلِ وعلى رَأْسِها الكُفْرُ بآياتِ اللهِ ، وخَلَطوا الحَقَّ بالباطِلِ وكَتَموا الحَقَّ ، فَهُمْ قَدْ سَلَكوا طَريقَيْنِ لإغْواءِ النّاسِ :

الأَوّلُ : خَلْطُ الحقِّ بالباطِلِ حتَّى لا يَتميَّزَ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ .

الثّاني : إخْفاءُ الحَقِّ حتَّى لا يَظْهَرَ ، فَقَدْ كَتَموا البِشاراتِ الخاصّةَ بالنَّبيِّ ﷺ ، وكَتَموا الكَثيرَ مِنَ الأَحْكامِ الّتي نَزَلَتْ بِها شَريعَتُهُمْ ، وجَعَلوا كِتابَهُمْ قَراطيسَ يُبْدونَها ، ويُخْفونَ كَثيراً مِنْها .

إنّهم يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ وهُمْ يَعْلَمونَ ؛ أي : والحالُ أنَّكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ ما أَخْفَيْتُموهُ هُوَ الحقُّ ، وهذا لَعَمْري أَشَدُّ فُحْشاً مِمَّنْ يَكْتُمُ شَيْئاً جاهِلاً بِهِ ، لا يَدْري أَهُوَ حَقٌّ أَمْ باطِلٌ !!

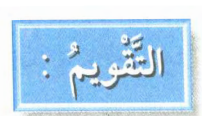
دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ لَيْسَ كَلِماتٍ وحَرَكاتٍ وتَقاليدَ يؤديِّها الإنْسانُ ، ولَكِنَّهُ انْقيادٌ وخُضوعٌ واسْتِسْلامٌ لِلْخالِقِ سُبْحانَهُ وإخْلاصٌ في الطّاعَةِ والعِبادَةِ لَهُ .

٢ـ بَراءَةُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الشِّرْكِ أوْ كَوْنِهِ يَهودِيّاً أوْ نَصْرانيّاً .

٣ـ اللهُ تَعالى هُوَ الّذي يَتولّى أُمورَ المُؤْمِنينَ ، ويُصْلِحُ شُؤونَهُمْ ويُثيبُهُمْ على أَعْمالِهِمْ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى : حَنيفاً مُسْلِماً ؟

٢ـ مَنِ المُشْرِكونَ في قَولِهِ تَعالى : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

٣ـ مَنْ أحَقُّ النّاسِ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَو يُضِلُّونَكُمْ﴾ ؟

٥ـ ما نَتيجةُ إضْلالِهِمْ لِغَيْرِهِمْ ؟

٦ـ لِمَ وُجِّهَ النِّداءُ لأهلِ الكِتابِ أكْثرَ مِنْ مَرَّةٍ ؟ ولِمَ اسْتَخْدَمَ مَعهُمْ أُسلوبَ الاسْتِفهامِ ؟

٧ـ لَقَدْ سَلَكَ أَهْلُ الكِتابِ طَريقَينِ لإِغْواءِ النّاسِ ، ما هُما ؟

نَشاطٌ :

ـ كَيْفَ نُثْبِتُ أنَّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَيْسَ يَهودِيّاً ولا نَصْرانِيّاً ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وجْهَ النَّهارِ : أوَّلَ النَّهارِ .

قنطارٍ : مالٍ كثيرٍ يُساوي زِنَةَ قنطارٍ .

قائماً : مُلازِماً لَهُ تُطالِبُهُ وتُقاضيهِ .

الأُمِّيّينَ : العَرَبُ والأُمَمُ غيرُ الإسرائيليّةِ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَكْرِ أَهْلِ الكِتابِ ، وأَساليبِهِمْ في خِداعِ المُسْلِمينَ وصَدِّ النّاسِ

عَنِ الدُّخولِ في الإسْلام ، فَقَدْ أَرادَ اليَهودُ أَنْ يَغُشّوا المُسْلِمينَ ، فَكانوا يَدَّعونَ الدُّخولَ في الإسْلام ، ثُمَّ يَخرجونَ مِنْهُ مُدَّعينَ أَنَّهُمْ دَخلوا في الإسْلامِ ، ولكنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ بُطْلانُ هذا الدِّينِ فَرَجَعوا إلى دينِهِمْ . فَعَنْ قَتادَةَ : قالَ بَعْضُ أَهْلِ الكِتابِ لِبَعْضٍ أَعْطوهُمُ الرِّضا بدينِهِمْ أَوَّلَ النَّهارِ ، واكْفُروا آخِرَهُ ، فإنَّهُ أَجْدرُ أَنْ يُصَدِّقوكُمْ ، ويعْلَموا أَنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمْ ما تَكْرَهونَهُ في دينِهِمْ ، وهُوَ أَجْدَرُ أَنْ يَرْجِعوا عَنْ دينِهِمْ .

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ لِيُبَيِّنَ خُبْثَ نَوايا هؤلاءِ ، ولِيَفْضَحَهُمْ . يَقولُ سُبْحانَهُ بأَنّ طائِفَةً مِنْ أَهْلِ الكِتابِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ : نافِقوا وأَظْهِروا أَنَّكُمْ صدَّقتُم بالإسْلام وبالنَّبيِّ مُحمَّدٍ ، وبما أُنْزِلَ عَلَيْهِ وعَلى أَصْحابِهِ مِنْ قُرْآنٍ في أَوَّلِ النَّهارِ ، وسُمِّيَ أَوَّلُ النَّهارِ وَجْهاً ؛ لأنّ أَوَّلَ ما يُواجِهُ الإنْسانَ نهارُ اليَوْمِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ اكفُروا آخِرَ النَّهارِ . وعودوا إلى دينِكُمْ ـ اليَهوديّةِ ـ حتّى يَنْخَدِعَ المُسْلِمونَ بحيلَتِكُمْ ، فَيَشُكّوا في دينِهِمْ ويَعودوا إلى الكُفْرِ . وفي بَيانِ هذا الأَمْرِ إخْبارٌ للنَّبيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ بأَخْبارِ الغَيْبِ ، ولِكَيْ لا يَتأَثَّرَ ضِعافُ الإيمانِ بما يَكونُ مِنَ اليَهودِ عَلَيْهِمُ اللَّعنَةُ .

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

وَلَمْ يَكْتَفِ اليَهودُ بهذا الأُسلوبِ الشَّيْطانِيِّ ، ولَكنَّهُمُ اتَّبعوا أَمْراً آخَرَ ، وهُوَ أَنَّهُمْ قالوا : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ فَهُمْ يَقولونَ عَلى سَبيلِ المَكْرِ والخَديعةِ لا تُقِرُّوا ولا تَعْتَرِفوا بأَنَّ أَحَداً مِنَ المُسْلِمينَ أَوْ غَيْرِهِمْ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْتى مِثْلَ ما أُوتيتُمْ مِنَ النُّبوَّةِ والكِتابِ ، وهَكذا فَقَدْ حَصَروا الثِّقَةَ فيهِمْ هُمْ ، لِزَعْمِهِمْ أَنَّ النُّبوَّةَ لا تَكونُ إلاّ فيهِمْ ، ولَقَدْ حَقَّروا جَميعَ النَّاسِ ، فَجَعَلوا كُلَّ ما يَكونُ مِنْهُمْ حَسَناً ، وَما يَكونُ مِنْ غَيْرِهِمْ قَبيحاً ، وقَدْ ردَّ سُبْحانَهُ عَلى هَؤلاءِ فَقالَ لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : قُلْ إنَّ الهُدَى مُلْكٌ للهِ تَعالى فَهُوَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ، وقَدْ هَدانا اللهُ تَعالى لِهذا الدِّينِ ولَنْ نَرْجِعَ عَنْهُ ، وقُلْ لَهُمْ كَذلِكَ عَلى سَبيلِ التَّوْبيخِ : أَتَفْعَلونَ ما تَفْعَلونَ مِنَ الكيدِ لِلْمُؤْمنينَ ، ومِنْ كِتْمانِ الحَقِّ عَنْ غَيْرِ أَبْناءِ دينِكُمْ كَراهةَ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُمْ مِنَ الكِتابِ والنُّبُوَّةِ ، أَوْ كَراهةَ أَنْ يُحاجِجَكُمُ المُسْلِمونَ عِنْدَ ربِّكُمْ يَوْمَ القِيامةِ ، حيثُ آمنوا هُمْ بالحَقِّ ، وكَفَرتُمْ بِهِ أَنتُم ، إنَّ ما حَمَلَكُمْ على مَكْرِكُمْ وخِداعِكُمْ هُوَ حَسَدُكُم لِمحمَّدٍ ﷺ ولِقَوْمِهِ .

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إنَّ الفَضْلَ ـ وَيَعني بِهِ نِعَمَ اللهِ تَعالى العَظيمةَ وأَوّلُها النُّبُوَّةُ ـ بيدِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَتَفَضَّلُ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، فَيَجْعَلُهُ نَبيّاً ، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ صاحِبُ الفَضْلِ العَظيمِ .

﴿ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ حالٍ أُخْرى مِنْ أَحْوالِ أَهْلِ الكِتابِ ، وهِيَ خيانَةُ طائِفةٍ مِنْهُمْ للأَمانةِ ، واسْتِحْلالُهُمْ أَكْلَ أَمْوالِ كُلِّ مَنْ لَيْسَ يهوديّاً ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ ﴾ لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ غُرورَ أَهْلِ الكِتابِ ، فَهُمْ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، وأَنَّ الفَضْلَ والخَيْرَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ وأَنَّهُمْ يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ باسْمِ الكِتابِ الّذي حَرَّفوهُ ، حَيْثُ زَعَموا أَنَّ كِتابَهُمْ لَمْ يَنهَهُمْ عَنْ أَكْلِ أَمْوالِ النّاسِ الّذينَ لَيْسوا مِنْهُمْ .

إنَّ مِنْ هَؤلاءِ مَنْ إِنْ أَمِنْتَهُ عَلى الكَثيرِ مِنَ الأَمْوالِ ، يُؤَدِّها إِلَيْكَ عِنْدَما تَطْلُبُ مِنْهُ إِعادةَ أموالِكَ ، لا يُنْقِصُ مِنْها شَيْئاً ، ومِنْهُمْ فَريقٌ إِنِ ائْتَمَنْتَهُ على القَليلِ مِنَ المالِ لا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ ، إلاّ إذا بَقيتَ تُلِحُّ عَلَيْهِ وتُطالِبُهُ بِمالِكَ الّذي مَعَهُ ، ولَجأْتَ إلى المَحاكِمِ لأَخْذِ حَقِّكَ مِنْهُ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ سَبَبَ جُحودِهِمْ حُقوقَ غَيْرِهِمْ وخِيانَتِهِمْ لَها ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾ ذَلِكَ الامْتِناعُ عَنْ أَداءِ الأَمانةِ سَبَبُهُ غُرورُهُمْ بِشَعْبِهِمْ ، فَهُمْ يَقولونَ : كُلُّ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَعْبِ اللهِ المُخْتارِ ، ولَيْسَ مِنَ اليَهودِ فَهُوَ ساقِطٌ مِنْ نَظَرِ اللهِ ومَبْغوضٌ عِنْدَهُ ، ولا حُقوقَ ولا حُرْمَةَ لِمالِهِ ، فَيَحِلُّ أَكْلُ مالِهِ . وقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فَذَلِكَ كَذِبٌ عَلى اللهِ تَعالى ، فَلَمْ يَرِدْ في التَّوْراةِ الّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وهُمْ يَعلَمونَ أَنَّ ذَلِكَ الأَمْرَ لَيْسَ فيها ، ولَكِنْ في الحَقيقةِ هُمْ لا يَأْخُذونَ دينَهُمْ مِنْ كِتابِهِمْ ، ولَكِنْ مِنْ أَحْبارِهِمُ الّذينَ يَأْمُرونَهُمْ بِأَوامرَ يَنْسِبونَها إلى اللهِ تَعالى .

لَقَدْ قالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [النحل : ١١٦-١١٧] .

﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ عَلى كَذِبِ هؤلاءِ اليَهودِ فَيقولُ : ﴿ بَلَىٰ ﴾ الّتي جاءَتْ لإثْباتِ ما نَفاهُ اليَهودُ في قَوْلِهِمْ فَهُوَ يَقولُ لهمُ : بلى ، عَلَيْكُمْ سَبيلٌ وأيُّ سَبيلٍ إذْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ الوَفاءَ بالعَهْدِ والتَّقْوى ، ومَنْ أوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فآمَنَ بِنَبِيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ واسْتَقامَ عَلى دينِهِ ، واتَّقى ما نَهى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الخِيانةِ والغَدْرِ وَما إلى ذَلِكَ ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُحِبُّ عِبادَهُ المُتَّقينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلامَةُ الحقِّ أنَّ مَنْ عرَفَهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَرْجِعَ عَنْهُ ويَعودَ إلى الباطِلِ .

٢ـ الفَضْلُ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ يُؤْتي فَضْلَهُ ونِعَمَهُ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ .

٣ـ التَّحْذيرُ مِنَ ائْتِمانِ اليهودِ عَلى الأَمْوالِ ، وتَخويفُ المُسْلِمينَ مِنَ الاغْتِرارِ بِهِمْ ، لأَنَّهُمْ يَسْتَحِلّونَ أَمْوالَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ بعضُ أهْلِ الكِتابِ يُؤَدّونَ ما ائْتُمِنوا عليهِ مِنَ الأَموالِ ، ولا يَكْتُمونَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هُناكَ بَعْضُ العَلاماتِ الّتي تَدُلُّ عَلى صِدْقِ الدِّينِ ، هاتِ عَلامةً مِنْها تحدَّثَتْ عَنْها الآياتُ .

٢ـ ما الّذي فَعَلَهُ اليَهودُ لِيَحْمِلوا ضِعافَ الإيمانِ عَلى تَرْكِ دينِهِمْ ؟

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ إخْبارُ اللهِ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ عَمّا يُخْفيهِ اليَهودُ في نُفوسِهِمْ ؟

٤ـ لَقَدْ حَصَرَ اليهودُ لِغُرورِهِمُ الثِّقَةَ فيهِمْ وَحْدَهُمْ ، وضِّحْ ما كانَ مِنْهُمْ مِنْ خِلالِ الآيةِ القُرْآنيَّةِ .

٥ـ كَيْفَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى القائِلينَ ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ؟

٦ـ ما مَوْقِفُ أَهْلِ الكِتابِ مِنْ أداءِ الأَمانةِ ؟

٧ـ ما السَّبَبُ الّذي يَجْعَلُ أَهْلَ الكِتابِ يُمَجِّدونَ الأَمانَةَ ؟

٨ـ عَلَّمَتْنا الآياتُ المَوْضوعيَّةَ في إصْدارِ الحُكْمِ عَلى النّاسِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السّابِعَ عَشَرَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَشتَرونَ : يَسْتَبدِلونَ ، لأَنَّ المُشْتري يَأْخُذُ شَيْئاً ويُعطي شَيْئاً .

لا خَلاقَ لَهُمْ : لا نَصيبَ لَهُمْ مِنَ الخَيْرِ .

يُزكّيهِمْ : يُطَهِّرُهُم مِنْ دَنَسِ الذُّنوبِ .

يَلوونَ أَلسِنَتَهُمْ : يُميلونَها عَنِ الصَّحيحِ إلى المُنْحَرِفِ ، ويُقْصَدُ بِذَلِكَ الكَذِبُ .

الكِتابِ : ما كَتبُوهُ بأَيْديهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

إنّ الّذينَ يُوفونَ بِعُهودِهِمْ ويَتَّقونَ اللهَ تَعالى في ما يَعْمَلونَ وكُلِّ ما يَذَرونَ ، هُمُ المتّقونَ الّذينَ يَنالونَ رِضا اللهِ وجَنّاتِهِ ، أمّا الّذينَ يَخونونَ العُهودَ ، فَقَدْ تَوَعَّدَتْهُمُ الآياتُ هُنا بِسوءِ المَصيرِ .

سَبَبُ النُّزولِ :

عَنْ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ ؛ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال : مَنْ حَلَفَ عَلى يمينٍ لِيَقْطَعَ بِها مالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَلَيْهِ غَضبانُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْديقَ ذلك ﴿إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ قالَ عبدُ اللهِ : فَدَخلَ الأشْعَثُ بنُ قيسٍ فقالَ : ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ ؟ قُلْنا : كَذا وكَذا ، فَقالَ : صَدَقَ ، فِيَّ نَزَلَتْ ، كانَ بَيْني وبَيْنَ رَجُلٍ خُصومَةٌ في بِئْرٍ ، فاخْتَصَمنا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ شاهِداكَ أو يَمينُهُ ؟ قُلْتُ : إنَّهُ إذاً يَحْلِفُ ولا يُبالي ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ حَلَفَ عَلى يَمينٍ لِيَقْطَعَ بِها مالَ امْرِىءٍ مُسْلمٍ وهُوَ فيها فاجِرٌ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ غَضْبانُ عليهِ ، ونزلَتْ : ﴿إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾(١) .

إنّ عَهْدَ اللهِ تَعالى هُوَ كُلُّ ما يَجِبُ الوَفاءُ بِهِ ، فَيَدْخُلُ بِهِ كلُّ ما أوجَبَهُ اللهُ تَعالى عَلى عِبادِهِ مِنْ تَكاليفِ عَقيدَتِهِ وهِيَ الإيمانُ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ خَيْرِ وشَرِّهِ ، ويَدْخُلُ فيهِ ما افْتَرَضَهُ اللهُ عَلَيْنا مِنْ عِباداتٍ ومُعامَلاتٍ وأَخْلاقيّاتٍ وغَيْرِها . وقَدْ عَهِدَ اللهُ تَعالى إلى جَميعِ البَشَرِ سَواءٌ أكانوا مُؤْمِنينَ أمْ أَهْلَ كِتابٍ أنْ يوفوا بِعَهْدِهِ .

وَقَدْ ذَكَرَتِ الآيَةُ أنَّ أُولئِكَ الَّذينَ يَشْتَرونَ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ، والأَيْمانِ الكاذِبَةِ الّتي يَحْلِفونَها ، الثَّمَنَ القَليلَ ، وهُوَ ما في الدُّنْيا مِنْ مَتاعٍ وشَهَواتٍ ، وقَدْ سُمِّيَ قَليلاً تَحقيراً لَهُ ، فَهُوَ في مُقابِلِ نَعيمِ الآخِرَةِ ورِضا اللهِ والوَفاءِ بِعَهْدِهِ قَليلٌ وحَقيرٌ .

إنَّ أولَئِكَ الّذينَ يَخونونَ عَهْدَ اللهِ تَعالى ولا يوفونَ بِهِ ، ويَحْلِفونَ الأَيْمانَ الكاذِبَةَ لِينالوا عَرَضَ الدُّنيا الزائِلَ أُولئِكَ :

١ـ لا نَصيبَ لَهُمْ ولا حَظَّ لَهُمْ مِنْ نَعيمِ الآخِرَةِ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبوهُ مِنْ خِيانَةٍ وافْتِراءٍ عَلى اللهِ تَعالى وعلى رَسولِهِ ﷺ .

٢ـ ولَيْسَ هذا فقط ، بَلْ إنّه تَعالى لَنْ يُكَلِّمَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وهَذا بَيانٌ لِشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ ، فإنَّ مَنْ لَمْ يُكلِّمْ شَخْصاً فإنَّما يَكونُ لِسَخَطٍ عَلَيْهِ ، أَلا تَرى أنَّ الأَبَ إذا غَضِبَ عَلى ابْنِهِ امْتَنَعَ عَنِ الكَلامِ مَعَهُ ، وهَؤُلاءِ لِشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ فَهُمْ لَيْسوا حَرِيّينَ بِأَنْ يُكَلِّمَهُمُ اللهُ أَبَداً .

٣ـ ومِنْ عِقابِهِمْ أَيْضاً وشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، أنَّهُ سُبْحانَهُ لَنْ يَنْظُرَ إلَيْهِمْ نَظَرَ عَطْفٍ ورَحْمَةٍ وإِحْسانٍ .

٤ـ وهُوَ سُبْحانَهُ لَنْ يُزَكِّيَهُمْ كَذَلِكَ ، أَيِ : لا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنوبِ بِمَغفِرَتِها ، ولَنْ يُثْني عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ كَما يُثْني عَلى الصّالِحينَ مِنْ عِبادِهِ ، ولَكِنَّهُ يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٣٨٠ .

٥ـ والنَّتيجةُ المُترتِّبَةُ عَلى كُلِّ ما ذُكِرَ ، أَنَّهُمْ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ مُوجعٌ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبوهُ مِنْ آثام .

وَلَقَدْ تَوعَّدَ اللهُ تَعالى الّذينَ يَنْكُثونَ العَهْدَ ويَخونونَ الأَمانةَ ، لأنَّ مَفاسِدَ النَّكْثِ والخِيانةِ أعْظَمُ مِنْ جَميعِ المَفاسِدِ الأُخْرى ، ولَقَدْ بَيَّنَ الرَّسولُ ﷺ آيةَ المُنافِقِ والعلاماتِ الّتي يُعْرَفُ بِها .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ بَعْضِ الرَّذائِلِ الّتي كانَتْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وأَنَّ مِنْهُمْ لَفريقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكِتاب . يَرى جُمهورُ المُفَسِّرينَ أنَّ هذهِ الآيةَ تَتحدَّثُ عَنْ بَعْضِ عُلماءِ اليَهودِ الّذينَ خَلَطوا بَيْن ما كَتبوهُ بِأَيْدِيهِمْ وما هُوَ في التَّوْراةِ ، وجَعَلوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ يُوهِمونَ النّاسَ أنَّهُ مِنَ التَّوراةِ ، وهذا يَدُلُّ عَلى فَسادِ عَقيدتِهِمْ وعَدَمِ تَمسُّكِهِمْ بِكتابِهِمْ . والمَقْصودُ بلَيِّ اللِّسانِ : فَتلُهُ وتَحْريفُهُ لِلْكَلامِ ، وذلك بِصَرْفِ الكَلامِ عَنْ مَعْناهُ إلى مَعْنىً آخَرَ ، قالَ تَعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء : ٤٦] .

لَقَدْ وَضَعوا (غيرَ مُسمَعٍ) في مَكانِ الدُّعاءِ (لا أُسْمِعْتَ مكروهاً) وهُوَ دُعاءٌ يُقالُ عندَ العَرَبِ عِنْدَ ذِكْرِ السَّماع ، وَوَضَعوا كَلِمَةَ (راعِنا) مِنَ الرُّعونةِ ، مَكانَ (راعِنا) الّتي هِيَ طَلَبٌ مِنَ اللهِ بأنْ يَنْظُرَ إليْهِمْ ويَرْحَمَهُمْ ، وكانوا يَنطِقونَ بِكَلِمةِ (السَّامُ عليكُمْ) بَدَلاً مِنَ (السَّلامُ عَلَيْكُمْ) .

ومِنْ تَحْريفِهِمْ تَسْمِيَتُهُمُ اللهَ تَعالى أباً ، وعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ابناً للهِ تَعالى . لَقَدْ فَعَلوا هَذا الفِعْلَ وتَعَمَّدوا تَحريفَ الكِتابِ ، لِتَظنُّوا أيُّها المُسْلِمونَ أنَّ هذا الّذي حَرَّفوهُ مِنَ الكِتابِ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلى أَنْبيائِهِ ، والحَقُّ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ الكِتابِ في شَيْءٍ ، وإنَّما هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ نَطَقوا بِهِ زوراً وبُهْتاناً إرْضاءً لأَهْوائِهِمْ .

ثُمَّ إنَّ هَؤلاءِ لَمْ يَكْتَفوا بالتَّحْريفِ فقط ، بَلْ إنَّهُمْ يَقولونَ إنَّ هذا الكَلامَ الذى حَرَّفوهُ ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ وَلكنَّهُ في الحَقيقةِ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، ولكنَّهُمْ قَوْمٌ ضالّونَ ، يُصَرِّحونَ بالكَذِبِ لِجُرْأَتِهِم عَلى اللهِ تَعالى وعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْه سُبْحانَهُ وتَعالى ، إنَّهم يَكذِبونَ عَلى اللهِ وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ آيةُ المُنافِقِ : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذا أؤْتُمِنَ خانَ .

٢ـ إذا خانَ النّاسُ العَهْدَ اخْتَلَّ أمْرُ الدِّينِ ، وفَسَدَتْ مَصالِحُ الدُّنْيا بِسَبَبِ انْعِدامِ الثِّقَةِ بَيْنَ النّاسِ ، فالثِّقَةُ هِيَ روحُ المُعامَلاتِ ، وأَساسُ عِمْرانِ البَشَرِيَّةِ .

٣ـ القُلوبُ الفاسِدَةُ الّتي يَسْتَولي عَلَيْها الحَسَدُ والحِقْدُ ، تَرْتَكِبُ الرَّذائِلَ العَظيمةَ دونَ تَفْكيرٍ في عَواقِبِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ الآياتِ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ . . . . ﴾ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ عَهْدِ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ ما نَتيجةُ أولئِكَ الّذينَ يَخونونَ عَهْدَ اللهِ ويَحْلِفونَ الأَيْمانَ الكاذِبَةَ ؟

٥ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ .

٦ـ هاتِ مِثالَينِ مِنْ لَيِّ اليَهودِ لأَلْسِنَتِهِمْ .

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّ لليَهودِ جَريمةً عَظيمةً غَيْرُ قَضيَّةِ تَحريفِ الكِتابِ ، ما هِيَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الحَديثَ الشَّريفَ الّذي بَيَّنَ آيةَ المُنافِقِ .

٢ـ هاتِ آيتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَدُلّانِ عَلى تَحريفِ اليَهودِ لِكِتابِ اللهِ تَعالى .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الثّامِنَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الكِتابَ : الإنْجيلَ .

الحُكْمَ : الفَهْمَ والعِلْمَ .

رَبّانِيِّينَ : عُلَماءَ معلِّمينَ ، فُقَهاءَ في الدِّينِ .

تَدْرُسونَ : تَقْرؤُونَ الكِتابَ .

ميثاقَ : عَقداً مؤكَّداً بيمينٍ وعَهْدٍ .

حِكْمَةٍ : عِلْمِ أسْرارِ الشَّريعةِ .

إِصْري : عَهْدي المؤكَّدَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ حالَ اليَهودِ وكَيْفَ فَعَلوا بدينِهِمْ وكِتابِهِمْ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ حالَ النَّصارى وما يَقولونَ في المَسيحِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتَرُدَّ عَلى أُولئِكَ الجاهِلينَ الّذينَ زَعَموا أنَّ بَعْضَ النَّبِيِّينَ يَصِحُّ لَهُ أنْ يَطْلُبَ مِنَ النَّاسِ أنْ يَعْبُدوهُ مِنْ دونِ اللهِ ، فَلا يَصِحُّ وَلا يَنْبَغي لِبَشَرٍ أَعْطاهُ اللهُ الكِتابَ الّذي يَنْطِقُ بالحَقِّ ، ويَأْمُرُ بالحَقِّ ، ويَنْهَى عَنِ الشِّرْكِ ، وآتاهُ ﴿الْحُكْمِ﴾ أي : العِلْمَ النافِعَ والعَمَلَ بِهِ ، وآتاهُ النُّبُوَّةَ ، أي : الرِّسالَةَ الّتي يُبلِّغُها عَنهُ سُبْحانَهُ إلى النّاسِ يَدْعوهُمْ فيها إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَيَدْعوهُمْ إلى التَحلِّي بِمَكارِمِ الأَخْلاقِ ، إنَّ هذا لا يَصِحُّ لَهُ وَلا يَنْبَغِي بَعْدَما أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ أنْ يَكْفُرَها ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بَعْدَ هذا العَطاءِ مِنَ اللهِ تَعالى لا يَجوزُ أنْ يَقولَ لِلنّاسِ كونوا عابِدينَ لي مِنْ دونِ اللهِ تَعالى . إنّ العِبادَةَ الصَّحيحةَ لا تَتَحقَّقُ إلاّ إذا أُخْلِصَتْ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَمَنْ دَعا إلى عِبادَةِ نَفْسِه فَقَدْ دَعا النّاسَ إلى أنْ يَكونوا عابِدينَ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، وإنْ لَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ عِبادةِ اللهِ تَعالى ، ومَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ واسِطةً في العِبادةِ كالدُّعاءِ ، فَقَدْ عَبَدَ هذهِ الواسِطَةَ مِنْ دونِ اللهِ ، لأنَّ هذهِ الوساطةَ ، تُنافي الإخْلاصَ له وَحْدَهُ ، وإذا انتَفى الإخْلاصُ انْتَفتِ العِبادةُ .

ثُمَّ إنَّ مَنْ يَتوجَّهُ بِعبادتِهِ إلى غَيْرِ اللهِ تَعالى ، وَيَتَّخِذُهُ وَسيلةً ويَعْتَقِدُ أنَّهُ يَضُرُّ ويَنْفَعُ فَفي تَوجُّهِهِ هَذا عِبادةٌ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعالى .

ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ ما يَصِحُّ للأنْبياءِ أنْ يَقولوا للنّاسِ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ والرَّبانيُّ هُوَ الإنْسانُ الّذي أَخْلَصَ للهِ تَعالى في عِبادَتِهِ ، وراقَبَهُ في كُلِّ أقْوالِهِ وأفْعالِهِ ، واتَّقاهُ حَقَّ التَّقوى ، وجَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ النّافِعِ والعَمَلِ بِهِ ، وقَضَى حَياتَه في تَعْليمِ النّاسِ وإرْشادِهِمْ إلى ما يَنْفَعُهُمْ .

إنَّهُ لا يَصِحُّ لِبَشرٍ آتاهُ اللهُ تَعالى ما آتاهُ مِنَ النِّعَمِ أنْ يَقولَ للنّاسِ اعْبُدوني مِنْ دونِ اللهِ ، ولَكِنَّ الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِ أنْ يَقولَهُ لَهُمْ : كونوا رَبّانيِّينَ مُقْبِلينَ عَلى اللهِ تَعالى وعِبادَتِهِ وَحْدَهُ بِجِدٍّ ونَشاطٍ وإخْلاصٍ مِنْ غَيْرِ واسِطَةٍ ولا وَسيلةٍ ، ويَنْبَغي أنْ يَهْدِيَهُمْ إلى الوَسيلةِ الحَقيقيَّةِ الموصلةِ إلى ذَلِكَ ، وَهِيَ تَعليمُ الكِتابِ ودِراسَتُهُ ، ومَنْ فَعَلَ هذا كانَ ربّانِيّاً مَرْضِيّاً عِنْدَ اللهِ تَعالى ، التَّقرُّبُ إلى اللهِ تَعالى إذْن لا يَكونُ إلاّ بالعِلْمِ والعَمَلِ ، والعِلْمُ الّذي لا يَبْعَثُ عَلى العَمَلِ لا يُعدُّ صَحيحاً .

إنَّ العِلْمَ والتَّعلُّمَ والدِّراسةَ تُوجِبُ أنْ يَكونَ الإنْسانُ ربّانِيّاً ، فَمَنِ اشْتَغَلَ بِهذا الأَمْرِ ولَيْسَ مَقْصدُهُ أنْ يَكونَ ربّانِيّاً ضاعَ سَعْيُهُ ، وخابَ عَمَلُهُ ، وكانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَخصٍ يَزْرَعُ شَجَرةً جَميلةً بِمَظْهرِها ، ولكنَّ ثمارَها لا نَفْعَ فيها .

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

إنَّ هَذا هو الّذي أكْرَمَهُ اللهُ تَعالى به ، وخَصَّ الملائِكَةَ والنّبِيِّينَ بالذِّكْرِ ، لأنَّ عِبادَتَهُمْ شاعَتْ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، حَيْثُ عَبدَ بَعْضُهُمْ الملائِكَةَ ، وعَبَدَ بَعْضُهُمْ الأَنْبياءَ ، فَعَبدوا المَسيحَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ للإنْكارِ الّذي يُفيدُ النَّفْيَ ، فَهؤلاءِ الرُّسُلُ لا يُمْكِنُ أنْ يَأْمُروا النّاسَ بالكُفْرِ باللهِ بَعْدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ عَنْ طريقِ هَؤلاءِ الرُّسُلِ إلى الإسْلامِ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

لَقَدْ أخَذَ اللهُ تَعالى الميثاقَ مِنَ النَّبِيِّينَ أنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وأخَذَ العَهْدَ عَلى كُلِّ نَبِيٍّ أنْ يُؤْمِنَ بِمَنْ جاءَ بَعْدَهُ مِنَ الأَنْبياءِ ، ويَنْصُرَهُ إنْ أدْرَكَهُ ، أمّا إنْ لَمْ يُدْرِكْهُ فَعَليْهِ أنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بَنَصْرِ النَّبِيِّ الّدي يَأْتي بَعْدَهُ ، وهَكذا فَقَدْ أخَذَ الميثاقَ عَلى عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فإذا كانَ الميثاقُ قدَ أُخِذَ عَلى الأَنْبياءِ ، فإنَّهُ مِنْ بابِ أوْلَى يَكونُ قَدْ أُخِذَ عَلى أتْباعِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَقَوْلَهُ تَعالى : ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ اللّامُ فيهِ المُوطِّئَةُ لِلْقَسَمِ ، لأنَّ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ بِمَعْنى القَسَمِ ، فَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ سُبْحانَهُ وتَعالى بأنَّهُ بما آتاهُمْ مِنْ كِتابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَهُمْ رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما وَرَدَ في كِتابِهِمُ الّذي أنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، لَيُؤْمِنُنَّ بهذا الرَّسولِ ولا يَكْفُرونَ بِهِ ، ولَيْسَ هَذا فقط ، بَلْ يَنْصُرونَهُ كَذلِكَ ، و﴿ما﴾ اسمُ شَرْطٍ ، وفِعْلُ الشَّرْطِ جُمْلَةُ : ﴿أتَيْتُكُم﴾ وجُمْلَةُ : ﴿ثُمَّ جاءَكُمْ﴾ .

ويُروى أنَّ المَقْصودَ بالرَّسولِ هُنا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَقَدْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ جَميعاً أنْ يُؤمِنوا بِمحمَّدٍ وَيَنْصُروهُ إنْ أدْرَكوهُ ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَأْخُذوا ذَلِكَ الميثاقَ عَلى أُمَمِهِمْ .

وَبَعْدَ أنْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الميثاقَ ، قالَ لَهُمْ : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أيْ : أأَقْرَرْتُمْ بِهذا الّذي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وقَبِلْتُمْ عَهْدي ؟ والاسْتِفْهامُ للتَقْريرِ ، وقَدْ أجابوهُ بقَوْلِهِم ﴿أَقْرَرْنا﴾ يا ربَّنا ، وقَبِلْنا عَهْدَك ، فردَّ عَلَيْهِم سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿فاشْهَدُوا﴾ أي : فَلْيَشْهَدْ بَعضُكُمْ عَلى بَعْضٍ ، وأنا مَعَكُمْ شاهِدٌ عَلَيْكُمْ جميعاً لا يَغيبُ عَنْ عِلْمي شَيءٌ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فإنَّ مِنْ مُقْتَضى ذَلِكَ الميثاقِ أنَّ دينَ اللهِ واحِدٌ ، ولِذا يَنْبَغي عَلى الدُّعاةِ في كُلِّ زَمانٍ أنْ يَكونوا مُتَّفِقينَ ، فَمَنْ تولّى بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَمْ يُؤْمِنْ بالنَّبِيِّ الّذي بُعِثَ لَهُ ، ولَمْ يَنْصُرْهُ ، مِثْلَما فَعَلَ أولئِكَ الّذين جَحَدوا نُبوَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ ، وآذَوْهُ هُوَ وأصْحابَهُ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الخارِجونَ مِنْ ميثاقِ اللهِ تَعالى ومِنْ دينِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العِبادةُ الصَّحيحةُ لا تتحقَّقُ إلاّ إذا أَخْلَصَ العَبْدُ للهِ تَعالى .

٢ـ لا يَجوزُ لأَحَدٍ أنْ يَدَّعِيَ الأُلوهيَّةَ لِنَفْسِهِ أوْ لِغَيْرِ اللهِ تَعالى ، أوْ أنْ يَعْتَقِدَ أنَّ أَحداً قَدْ يَنْفعُهُ أوْ يَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ غَيْرُ اللهِ تَعالى .

٣ـ التَّقرُّبُ إلى اللهِ تَعالى لا يَكونُ إلا بالعِلْمِ والعَمَلِ .

٤ـ الواجِبُ عَلى الأُمَمِ الّتي أُعْطِيَتِ الكِتابَ ، إذا جاءَهُمْ رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم ، أنْ يُؤْمِنوا بِهذا الرَّسولِ وَيَنْصُروهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي يَزْعُمُهُ اليَهودُ الجاهِلونَ تُجاهَ بَعْضِ الأَنْبياءِ ؟

٢ـ دافعتِ الآياتُ بِكُلِّ قُوَّةٍ عَنْ أَنْبياءِ اللهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هاتِ ما جاءَ في الآياتِ .

٣ـ مَتى تَكونُ العِبادةُ خالِصةً للهِ ؟ وَمَتى تَكونُ لِغيرِ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ ما الّذي يَنْبَغي عَلى الأَنْبياءِ قَوْلُهُ للنّاسِ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ التَّقرُّبَ إلى اللهِ لا يَكونُ إلاّ بِأَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

٦ـ لِماذا خُصَّ الأَنْبياءُ والمَلائكةُ بالذِّكرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾ ؟

٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ .

٨ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ ؟

٩ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ ؟

١٠ـ ما واجِبُ الدُّعاةِ إلى اللهِ تَعالى تُجاهَ النَّبيِّ ﷺ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَأْمُرانِ بإخْلاصِ العِبادَةِ للهِ تَعالى واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٢ـ أَيْنَ جوابُ الشَّرْطِ في الآيةِ (٨٢) ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَبغونَ : يَطْلُبونَ .

طَوْعاً : اخْتياراً .

كَرْهاً : قَسْراً وإجْباراً .

الأَسْباطِ : أولادِ سَيِّدِنا يَعْقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .



التَّفْسيرُ :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

إنَّ الدِّينَ واحِدٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وقَدْ جاءَ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جميعاً للدَّعْوَةِ إلى هَذا الدِّينِ ونُصْرَتِهِ ، ولِذا لابُدَّ مِنْ نُصْرَةِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الدُّخولِ في دينِهِ ، إلاّ أنَّ كَثيرينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وغَيْرِهِمْ أَنْكَروا نُبُوَّتَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ الاسْتِفْهامُ للاسْتِنْكارِ والتَّوْبيخِ ، والمَعْنى : أَيَقولونَ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ هَذا البيانِ ، فَيَبغونَ

ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى الّذي هُوَ الإسْلامُ ، أي : يَطْلُبونَ لَهُمْ ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ قالَ : ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي : أيَطْلُبونَ ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى والحالَةُ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ خَضَعَ لأَمْرِهِ جَميعُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ مِنَ العُقَلاءِ طائِعينَ وكارِهينَ ، أي : إمّا عَنْ طَواعيةٍ واخْتيارٍ وهمُ المُؤْمِنونَ ، لأَنَّهُم راضونَ في جَميعِ الأَحْوالِ بِقَضاءِ اللهِ تَعالى وقَدَرِهِ ، مُسْتَجيبونَ للهِ تَعالى في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ والعُسْرِ واليُسْرِ . وإمّا عَنْ قَهْرٍ وتَسْخيرٍ ، فالكافِرونَ يَقَعونَ تَحْتَ سُلطانِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ مَعَ اخْتيارِهُمُ الكُفْرَ ، لا يَسْتَطيعونَ دَفْعَ قَضاءِ اللهِ تَعالى فَهُمْ طائِعونَ للهِ تَعالى في إيجادِهِم وفَنائِهِمْ .

إنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ إسْلامُ الوَجْهِ للهِ تَعالى ، والإِخْلاصُ في الخُضوعِ لَهُ سُبْحانَهُ ، وإنَّ الأَنْبياءَ كُلَّهُمْ كانوا عَلى ذَلِكَ ، وقَدْ أَخَذَ اللهُ الميثاقَ عَلَيْهِمْ وعلى أُمَمِهِمْ ولَكنَّهُمْ نَقَضُوهُ ، فَجاءَهُمُ النَّبيُّ المَوْعودُ بِهِ يَدْعُوهُمْ إليْهِ فَكَذَّبوهُ ، فَهُمْ بِذلِكَ قَدِ ابْتَغَوْا غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إليْهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ يَرْجِعُ الخلقُ فَيُجازي كُلَّ مَخلوقٍ بِما يَسْتَحِقُّهِ مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ .

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ .

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ قَدْ تولَّوْا عَنِ الإسْلام ، ولِذا فَعلى المُؤْمِنينَ أنْ يُقرُّوا بالإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ ، ولِذا خاطَبَ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ قائِلاً لَهُ : ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي : قُلْ لأَهْلِ الكِتابِ الّذينَ جادَلوكَ وجَحَدوا الحَقَّ ، قُلْ لَهُمْ آمَنْتُ أَنا ومَنْ مَعِيَ بِوُجودِ اللهِ تَعالى وَوَحْدانِيَّتِهِ وكَمالِهِ ، واسْتَجَبْنا للهِ تَعالى في كُلِّ ما أمَرَنا بِهِ أوْ نَهانا عَنْهُ ، وآمنّا كَذَلِكَ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ، وَهُوَ كِتابُ اللهِ تَعالى : القُرْآنُ الكَريمُ ، الّذي يَهْدي إلى الحَقِّ ، ويُخْرِجُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ . والإيمانُ بالقُرْآنِ الكَريم إيمانٌ تَفْصيليٌّ .

وآمنّا بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى عَلى أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ : إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحقَ ويَعقوبَ والأَسْباطِ . والإيمانُ بما أُنْزِلَ عَليهِمْ يَكونُ إجْماليّاً ، أيْ : صَدَّقْنا بِما أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَحْيٍ هِدايةٍ لأقوامِهِمْ ، وأنَّهُ مُوافِقٌ لِما أُنْزِلَ عَلَيْنا في أَصْلِهِ .

وقُلْ لَهُمْ يا مُحمَّدُ كَذَلِكَ : إنّا قَدْ آمنّا بما أُوتِيَ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ التَّوْراةِ ، ومَا أُوتِيَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الإنْجيلِ والمُعْجِزاتِ ، وبما آتاهُ اللهُ تَعالى لِسائِرِ أَنْبيائِهِ مِنْ وَحْيٍ وآياتٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِهِمْ ، ومِنْ هَؤلاءِ سَيِّدُنا داودُ وسُلَيْمانُ وأيوبُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ومَنْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنا قَصَصَهُمْ ، ومَنْ لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْنا قَصَصَهُمْ .

وقَدْ قَدَّمَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما أُنْزِلَ عَلَيْنا عَلى ما أُنزِلَ عَلى مَنْ قَبْلَنا ، مَعَ أنَّ ما أُنزِلَ عَلى مَنْ قَبْلَنا

يَتقدَّمُ على ما أُنزلَ علَيْنا بالزَّمانِ ، لأنَّ ما أُنزلَ على سَيِّدنا مُحمّدٍ ﷺ هُوَ الأَصْلُ لِمَعْرِفةِ ما أُنْزِلَ على السّابقينَ ، فَلولاَ القُرْآنُ ما عَرَفْنا أَخْبارَ المُتَقدِّمينَ .

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ لا نُفرِّقُ بَيْنَ جَماعةِ الرُّسلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَنُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً ، ولَيْسَ كَما يَفْعَلُ أَهْلُ الكِتابِ ، حَيْثُ يُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ ويَكْفُرونَ بِبَعْضٍ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ مُنْقادونَ لأَمْرِ اللهِ تَعالى بالرِّضى والإِخْلاصِ ، لا نَتَّخِذُ الدِّينَ مِنْ أَجْلِ تَحقيقِ أَهْوائِنا وشَهَواتِنا ، وإِنَّما نَبْتَغي بِهِ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ تَعالى . وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ حَصْرٌ ، أَيْ : أَننا أَسْلَمْنا لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ ، وأَخْلَصْنا عِبادَتَنا لَهُ ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى مَرْتَبَةِ الإِخْلاصِ والطَّاعَةِ الّتي يَنْبَغي أَنْ يَصِلَ إِلَيْها المُسْلِمُ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَطْلُبُ ديناً سِوى دينِ الإِسْلامِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ أَبَداً .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

إِنَّ الدِّينَ إذا لَمْ يَكُنْ هُوَ الإِسْلامُ فَلَنْ يَكونَ سِوى رُسوم وتَقاليدَ يَتَّخِذُها أَصْحابُها وَسيلةً لِمَنافِعِهِمُ الدُّنْيويَّةِ ، وهَذا لا شَكَّ يَزيدُ القُلوبَ فَساداً ، ولا يَزيدُ النّاسَ في الدُّنْيا إلا عُدْواناً وفي الآخِرَةِ إِلاّ خُسْراناً ، ولِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فهو يَكونُ يَوْمَ القِيامةِ خاسِراً للنَّعيمِ المُقيمِ ولِجوارِ اللهِ تَعالى ، لأَنَّهُمْ خَسِروا في الدُّنْيا أَنْفُسَهُمْ ، فَلَمْ يُطَهِّروها بالإِسْلامِ ، ولَمْ يُخْلِصوا للهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الدِّينُ الحَقُّ هُوَ الإِسْلامُ للهِ تَعالى ، وقَدْ أَخَذَ الأَنْبياءُ ميثاقَهُمْ على أُمَمِهِمْ بالإِيمانِ بِمُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ التَّحذيرُ مِنَ الإِعْراضِ عَنِ الدِّينِ ، فما دامَ مَرْجِعُ الخَلْقِ جَميعاً إلى اللهِ فَعلى العاقِلِ أَنْ يُسْلِمَ نَفْسَهُ إلى خالِقِهِ اخْتياراً .

٣ـ مَنْ دانَ بِغَيْرِ دينِ اللهِ تَعالى فَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ جاءَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ قَضيةً أساسيَّةً ، ما هِيَ ؟

٢ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ ؟

٣ـ وضِّح المَقْصودَ بقَوْلِهِ تعالى : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

٤ـ بِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ أنْ يُواجِهَ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ يُجادِلونَهُ بالباطِلِ ؟

٥ـ ما المَطْلوبُ مِنّا نَحْنُ المُسْلِمينَ تُجاهَ الأَنْبياءِ السّابِقينَ ، وتُجاهَ نَبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ ؟

٦ـ ما الدِّينُ الّذي يُقْبَلُ مِنَ الإنْسانِ ؟ وما مَصيرُ مَن اتَّخَذَ دينَهُ هَواهُ ؟

نَشاطٌ :

ـ فرِّقْ بَيْنَ الإيمانِ بالشَّيْءِ تَفْصيلاً ، والإيمانِ بِهِ إجْمالاً ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ العِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ العِشْرونَ

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البيِّناتُ : البَراهينُ والدَّلائِلُ .

لَعْنَةُ اللهِ : اللَّعْنُ ؛ الطَّرْدُ والإبْعادُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

يُنْظَرونَ : يُمْهَلونَ .

افْتَدى : قَدَّمَ الفِدْيَةَ ؛ وهِيَ ما يُقدِّمُهُ الإنْسانُ مِنْ مالٍ مُقابِلَ تَخْليصِ نَفْسِهِ مِنَ العَذابِ أوِ الأَسْرِ .

التَّفْسيرُ :

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ، رأَوْا نَعْتَ مُحمَّدٍ ﷺ في كِتابِهِمْ ، وأَقَرُّوا أنَّهُ حَقٌّ ، فلَمّا بُعِثَ مِنْ غَيْرِهِم حَسَدوا العَرَبَ عَلى ذَلِكَ ، فَأَنْكَروا نُبُوَّتَهُ وكَفروا بَعْدَ إقْرارِهِمْ ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في هِدايةِ البَشَرِ لِلْحَقِّ ، أَنْ يُقيمَ الدَّلائِلَ والبيِّناتِ لَهُمْ ، ويُعْطِيَهُمْ ما يَهديهِمْ إلى تِلْكَ الدَّلائِلِ ، فَقَدْ أَعْطاهُمُ العَقْلَ الّذي يُفكِّرونَ بواسطتِهِ ، ويَتوصَّلونَ إلى الحَقِّ ، إلاّ أنَّ أَهْلَ الكِتابِ مَعَ كُلِّ الدَّلائِلِ والمُعْجزاتِ الّتي أُعْطِيَتْ لَهُمْ ، صَدُّوا عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ هُنا تَسْتَبْعِدُ هِدايَتَهُمْ ، وتُيئِّسُ النَّبيَّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْتَدِيَ هَؤلاءِ القَوْمُ وهُمْ مُنْغَمِسونَ في الضَّلالِ مَعَ عِلْمِهِمْ بالحَقِّ ، فَقَدْ آمَنوا مِنْ قَبْلُ ، وجاءَتْهُمُ البَراهينُ ، والحُجَجُ الّتي يُفَرِّقونَ بها بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، ولَكِنَّهُمْ كَفَروا بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ما آتاهُمُ اللهُ وذَلِكَ لِغَلَبَةِ العِنادِ والاسْتِكْبارِ عَلى نُفوسِهِمْ ، والحَسَدِ والبَغْيِ عَلى قُلوبِهِمْ ، فَكانوا بِذَلِكَ ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّهُمُ اسْتَحبّوا العَمَى عَلى الهُدَى ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَهْدي الظَّالِمينَ الّذينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بإبْعادِها عَنِ الحَقِّ وإيقاعِها في العَذابِ ، وظَلَموا الحَقَّ بِطَمْسِهِ واسْتبدالِ الباطِلِ بِهِ ، وظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، فَكَفَروا باللهِ تَعالى ، فَلَمْ يَرْعَوْهُ حَقَّ رِعايَتِهِ .

ولَكِنْ كَيْفَ شَهِدوا بأَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ ؟ إنَّهُمْ كانوا يَعْرِفونَ بِشاراتِ الأَنْبياءِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وكانوا يَنْتَظِرونَ قُدومَهُ حتّى يُؤْمِنوا بِهِ ويَنْصُروهُ ، ولَكِنَّهُ عِنْدَما جاءَ ﷺ كَفَروا بِهِ وعانَدوهُ بَعْدَ أَنْ جاءَهُمْ بالبيِّناتِ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ جَزاءَ أُولئِكَ الظَّالِمينَ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ ، ولَعْنَةُ اللهِ : سَخَطُهُ عَلَيْهِمْ ، وهِيَ في الدُّنْيا عَدَمُ رَحْمَتِهِمْ وتَوْفيقِهِمْ ، وفي الآخِرَةِ عُقوبةٌ عَظيمةٌ أَعَدَّها اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وعَلَيْهِمْ كَذَلِكَ سَخَطُ المَلائِكَةِ والنّاسِ أَجْمعينَ وغَضَبُهُمْ ، ودُعاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ باللَّعْنَةِ والطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

إنَّ هَؤلاءِ مَلْعونونَ مِنَ اللهِ تَعالى خالِقِهِمْ ، ومِنْ مَلائِكَةِ اللهِ الّذينَ لا يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، ويَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ ، ومِنَ النّاسِ جَميعاً ، فالإنْسانُ صاحِبُ الفِطْرَةِ السَّليمَةِ في الدُّنْيا لا يَمْلِكُ إلاّ أَنْ يَلْعَنَ اليَهودَ دائِماً لِما يَبْدو مِنْهُمْ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، وفي الآخِرَةِ يَلْعَنُ الكافِرونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

إنَّ عذابَ هَؤلاءِ شَديدٌ ، فَهُمْ خالِدونَ في جَهنَّمَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ فيها ، بِسَبَبِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ ، وانْغِماسِهِمْ فيما يُغْضِبُ اللهَ تَعالى ، وهُمْ لَنْ يُمْهَلوا بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهُمُ العَذابُ ، فإنَّ عَذابَهُمْ عاجِلٌ لا يَقْبَلُ التَّأْخيرَ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

ولكنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسعَةٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ فَتَحَ بابَ التَّوْبَةِ لِكُلِّ إنْسانٍ وحَضَّ عَلى التَّوْبَةِ حتّى لا يَقْنَطَ النّاسُ مِنْ رَحْمَةِ الله تَعالى ، ولِذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ إنَّ هَؤُلاءِ اليَهودَ ومَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ مَلعونونَ دائِماً ، إلاّ الّذينَ تابوا مِنْهُمْ ورَجَعوا عَنْ كُفْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ نادِمينَ عَلى ما اقْتَرَفوهُ ، وأصْلَحوا ما أفْسَدوهُ ، وحَرَصوا عَلى العَمَلِ الصّالِحِ ، لأنَّ العَمَلَ الصّالِحَ هُوَ الّذي يَزيدُ الإيمانَ ، ويَمْحو كُلَّ سَيِّئَةٍ كانَتْ عِنْدَ الإنْسانِ .

إنَّ مَنْ تَوَجَّهَ إلى اللهِ تَعالى بالتَّوْبَةِ عمّا اقْتَرَفَتْهُ يَداهُ ، ونَدِمَ عَلى فِعْلِ المَعاصي ، وأَصَرَّ عَلى تَرْكِ المُنْكَراتِ وعلى عَدَمِ العَوْدَةِ إلَيْها ، وعَمِلَ صالِحاً ، فإنَّ اللهَ تَعالى غَفورٌ للذُّنوبِ ، حَيْثُ يَمْحوها عَنِ الإنْسان التّائِبِ فَهُوَ بِهِ رحيمٌ ، وهَذِهِ نَتيجَةُ الإنْسانِ التّائِبِ عَنْ ذَنْبِهِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

أمّا الَّذينَ لا يَتوبونَ ولا يَسْتَغفِرونَ لِذُنوبِهِمْ والّذينَ يَظَلُّونَ مُنْغَمِسينَ في كُفْرِهِمْ وضَلالِهِمْ فَقَدْ قالَ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ إنَّ هَؤلاءِ الّذينَ كَفَروا بَعْدَ أنْ آمَنوا ، ثُمَّ ازْدادوا كُفْراً وعِناداً وجُحوداً ، وذَلِكَ بِمُقاوَمَةِ الحَقِّ الّذي دُعوا إليهِ ، وإيذاءِ الرَّسولِ ، والصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ بالكَيْدِ والتَّشكيكِ في دينِ اللهِ ، وبِمُحارَبَةِ الحَقِّ وأَصْحابِهِ ، فَهؤلاءِ لَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ ، فإنَّهم وإنْ تَرَكوا بَعْضَ الذُّنوبِ والشُّرورِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ما لَمْ يُصلِحوا نُفوسَهُمْ ، ويُخْلِصوا للهِ تَعالى ، فَهُمْ يَزْعُمونَ التَّوْبَةَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فقَط ، أمّا قُلوبُهُمْ فَهِيَ مَليئَةٌ بالكُفْرِ ، فَهؤلاءِ هُمُ الضّالُّونَ الغارِقونَ في الضَّلالِ ، البَعيدونَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، المُسْتَحِقّونَ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعَذابِهِ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ قِسْمَيْنِ مِنَ الكافِرينَ ؛ قِسمٍ تابَ وقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ ، وقِسْمٍ تابَ ولَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ قِسْماً ثالِثاً ، وهُمُ الّذينَ يَظَلّونَ عَلى كُفْرِهِمْ حتّى يَأْتِيَهُمُ المَوْتُ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ فَظَلّوا عَلى كُفْرِهِمْ وأَعْمالِهِمُ الباطِلَةِ حتّى أَدْرَكَهُمُ المَوْتُ ﴿ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا ﴾ لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ما كانوا قَدْ أَنْفَقوهُ في الدُّنيا ، لأنَّ الكُفْرَ يُحْبِطُ العَمَلَ ، قال تَعالى : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ولَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ فِدْيَةٌ مِنْ عِقابِ اللهِ تعالى لَهُ بِسَبَبِ مَوْتِهِ عَلى الكُفْرِ ، ولَوِ افْتَدى نَفْسَهُ بِمِلْءِ

الأَرْضِ ذَهَباً ، لأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الذَّهَبِ والمالِ أوّلاً ، ولأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ النّاسِ وأَعْمالِهِمْ ثانياً ، فهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يَجْعَلْ نَجاةَ الإنْسانِ مِنْ عَذابِ الآخِرَةِ بمالٍ يَبْذُلُهُ ، أوْ إنْسانٍ عَظيمٍ يَشْفَعُ لَهُ ، ولكنْ جَعَلَ نَجاتَهَ بِأَمْرٍ داخِليٍّ في نَفْسِ الإنْسانِ ، فَمَنْ زَكّى نَفْسَهُ بالعَمَلِ الصّالحِ فَقَدْ أَفْلَحَ ، وَمَنْ دسّاها بالكُفْرِ والعَمَلِ السَّيءِ ، فَقَدْ خابَ وخَسِرَ .

إنَّ أُولئِكَ الكافِرينَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ عَذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَما لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ ناصِرينَ يَنْصُرونَهم بِدَفْعِ العَذابِ عَنْهُمْ ، وإيصالِ الخَيْرِ لَهُمْ .

عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (يُقالُ للرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النّارِ يَوْمَ القِيامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كانَ لَكَ ما عَلى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ ؟ قالَ : فَيَقولُ : نَعَمْ ، فَيَقولُ اللهُ لَهُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْرِ أَبيكَ آدَمَ أنْ لا تُشْرِكَ بي شَيْئاً فَأَبَيْتَ إلاّ أنْ تُشْرِكَ)[١] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَهْلُ الكِتابِ يَعْرِفونَ صِدْقَ الرَّسولِ ، لَكنَّهُمْ لِعنادِهِمْ وحَسَدِهِمْ كَفَروا بِهِ .

٢ـ بابُ التَّوْبَةِ مَفْتوحٌ أَمامَ النّاسِ جَميعاً ، وخَيْرُ الخطّائينَ التَّوابونَ .

٣ـ الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ ، وهُوَ إذا سَيْطرَ عَلى النُّفوسِ البَشَريَّةِ أفْقَدَها رُشْدَها .

٤ـ العاقِلُ هُوَ الّذي يُزكّي نَفْسَهُ ويُطَهِّرُها بالإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ ، والضّالُّ مَنْ دسَّى نَفْسَهُ بالكُفْرِ والعَمَلِ السَّيِّءِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالاسْتِفهامِ في قَوْلِه تَعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ﴾ ؟

٢ـ هَلْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ مُؤْمِنينَ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ كَيْفَ شَهِدَ أَهْلُ الكِتابِ بِأَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ ؟ ولِمَ كَفروا بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٨٠٥ ، باب : طلب الكافر الغداء .

٤ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أصْنافاً ثَلاثَةً للكافِرينَ ، مَنْ هُمْ ؟

٥ـ مَتى تُقْبَلُ تَوْبَةُ التَّائِبِ ؟ وَمَتى لا تُقْبَلُ ؟ أيِّدْ إجابَتَكَ بِدَليلٍ مِنَ الآياتِ .

٦ـ مَا المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ ؟ وَمَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟

٧ـ لِماذا لا يَقْبَلُ اللهِ تَعالى ما يُمْكِنُ أن يُقَدِّمَهُ الكافِرونَ لِفداءِ أنْفُسِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ فَرِّقْ بَيْنَ اللَّعْنَةِ والغَضَبِ مِنَ اللهِ تَعالى ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ شُروطَ التَّوْبَةِ الصَّحيحةِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ قِصةً مِمّا قَصَّ الرَّسولُ ﷺ عَلَيْنا ، تَدُلُّ عَلى قَبولِ اللهِ تَعالى للتّوبةِ مِنَ الذَّنْبِ ، ولَوْ كانَ الذَّنْبُ عَظيماً .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البِرَّ : الإحْسانَ وكَمالَ الخَيْرِ .

حِلاً : حَلالاً مُباحاً .

افْتَرى : اخْتَلَقَ الكَذِبَ .

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الباطِلِ إلى الدِّينِ الحَقِّ .

التَّفسيرُ :

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ ـ كَما عَرَفْنا ـ يَدَّعونَ أنَّهُمْ مُؤْمِنونَ ، وأنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ لَهُمُ الميزانَ الصَّحيحَ الّذي يُبَيِّنُ المُؤْمِنَ بالحَقِّ ، والكافِرَ البَعيدَ عَنْهُ ، وهذا الميزانُ هُوَ الإنْفاقُ في سَبيلِ اللهِ .

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ أي : لَنْ تَنالوا إحْسانَ اللهِ تَعالى وثَوابَهُ الجَزيلَ ، وجَنَّتَهُ الّتي أَعَدَّها للمُتَّقينَ ، إلاّ إذا بَذَلْتُمْ مِمّا تُحبّونَهُ وتُؤْثِرونَهُ مِنَ الأَمْوالِ ، ومِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَلَيْنا أنِ اكْتَفى مِنّا لِنَيْلِ البرِّ أنْ نُنْفِقَ ممّا نُحِبُّ ؛ أي : جُزْءاً مِنْهُ لأنَّ (مِنْ) للتَّبعيضِ ، ولَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْنا سُبْحانَهُ أنْ نُنْفِقَ جَميعَ ما نُحِبُّ .

وَما تُنْفِقوا مِنْ شَيْءٍ أيُّها النّاسُ سَواءٌ أكانَ قَليلاً أمْ كَثيراً ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وهُوَ يَعْلَمُ إنْ كانَ ما أنْفَقْتُموهُ مَحْبوباً لَدَيْكُمْ أوْ أنَّكُمْ قدْ زَهِدْتُمْ بِهِ ، ويَعْلَمُ إنْ كُنْتُمْ مُخْلِصينَ في الإنْفاقِ أمْ أنَّكُمْ مراؤونَ تَطْلبونَ الشُّهْرَةَ والجاهَ ، وهو سُبْحانَهُ يُجازيكُمْ عَلى نَفَقَتِكُمْ بِحَسَبِ ما يَعْلَمُ مِنْ نِيّاتِكُمْ .

عَنِ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : كانَ أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأنْصارِ بالمدينةِ مالاً مِنْ نَخْلٍ ، وكانَ أَحَبُّ مالِهِ إليهِ بيرُحاءَ ـ مَوْضِعٌ في المدينةِ ـ وكانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجدَ ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُها ويَشْرَبُ مِن ماءٍ طَيِّبٍ فيها ، قالَ أنسُ : فلمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ قامَ أبوُ طَلْحَةَ إلى رسولِ اللهِ فَقالَ : يَا رسولَ اللهِ ، إنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ في كِتابِهِ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وإنَّ أحبَّ أمْوالي إليَّ بيرُحاءَ ، وإنَّها صَدَقَةٌ للهِ تَعالى ، أَرْجو بِرَّها وذُخْرَها عِنْدَ اللهِ ، فَضَعْها يا رَسولَ اللهِ حَيْثُ أراكَ اللهُ . قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : بخ بخٍ ـ كَلِمَةُ اسْتِحْسانٍ ومَدْحٍ ـ ذَلِكَ مالٌ رابحٌ ، ذَلِكَ مالٌ رابحٌ ، وقَدْ سَمِعْتُ ما قلتَ : وإنّي أرى أنْ تَجْعَلَها في الأَقْرَبينَ ، قالَ أبوُ طَلْحَةَ : أفْعَلُ يا رَسولَ اللهِ ، فَقَسَمَها أبوُ طَلْحَةَ في أقاربِهِ وبَني عَمِّهِ[1] .

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

إنَّ عِنادَ أَهْلِ الكِتابِ واسْتِكْبارَهُمْ عَنِ الحَقِّ ، جَعَلَهُمْ يُجادِلونَ الرَّسولَ في قَضايا كَثيرةٍ ، ومِنْ هذا جِدالُهُمْ فيما أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى وحَرَّمَهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ ، وجِدالُهُم في تَحويلِ القِبْلَةِ :

١ـ أمّا القَضيَّةُ الأُولى فَيَقولُ سُبْحانَهُ فِيها : ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ ﴾ .

لَقَدْ جادَلوا الرَّسولَ ﷺ فيما هُوَ مُباحٌ أَكْلُهُ لَهُ ولأُمَّتِهِ ، مُدَّعينَ أنَّ هَذا كانَ مُحَرَّماً على الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلُ ، فَكَيْفَ تأْكُلُهُ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : إنَّ كُلَّ أنْواعِ الأَطْعِمَةِ كانَتْ حَلالاً لِبَني إسْرائيلَ قَبْلَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب : الزكاة على الأقارب ، حديث رقم ١٣٩٢ .

نُزولِ التَّوْراةِ ، إلاّ نَوْعاً واحِداً مِنَ الأَطْعِمَةِ حَرَّموهُ هُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ ، وذَلِكَ لأَنَّ أَباهُمْ يَعقوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرَّمَهُ عَلى نَفْسِهِ ، فَحَرَّموهُ عَلى أَنفُسِهِمُ اقْتِداءً بِه ، ولَمّا أَنْزَلَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمُ التَّوراةَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْواعاً كَثيرةً بِسَبَبِ الذُّنوبِ الّتي اقْتَرَفوها تَأْديباً لَهُمْ .

إنَّ هَذا هُوَ الحَقُّ الّذي لا شَكَّ فيه ، فإذا جادَلوكَ يا مُحمَّدُ فَقُلْ مُتَحدِّياً لَهُمْ : أَحْضِروا التَّوراةَ واقْرَأوا حتّى يَتبيَّنَ الصّادِقُ مِنَ الكاذِبِ ، إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكُمْ أَنَّ ما حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ كانَ مُحرَّماً عَلى الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ثُمَّ تَوَعَّدَ اللهُ أَهْلَ الكِتابِ عَلى كُفْرِهِمْ وكَذِبِهِمْ ، فَقالَ لَهُمْ : ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي : مَنْ تَعمَّدَ الكَذِبَ عَلى اللهِ تَعالى ، وَزَعَمَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ قَدْ حَرَّمَ عَلى اليَهودِ ما لَمْ يُحرِّمْهُ عَلَيْهِمْ ، فَأولئِكَ هُمْ وَحْدَهُمُ الظّالِمونَ ، حَيْثُ تَطاوَلوا عَلى اللهِ تَعالى فافْتَرَوْا عَلَيْهِ ما لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وافْتَرَوا عَلى الحَقِّ فَطَمسوهُ بالباطِلِ .

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ ما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى هُوَ الحَقُّ والصِّدْقُ ، وأَنْتُمْ أَيّها اليَهودُ كاذِبونَ في دَعْواكُمْ ، وإذا كُنْتُمْ تُريدونَ أَنْ تَصِلوا إلى الحَقِّ ، وأَنْ تَتَّبِعوا الطَّريقَ الّذي كانَ عَلَيْهِ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَهذا لا يَكونُ إلاّ باتِّباعِكُمْ لِما جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ ، فإبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، لَمْ يَكُنْ يَهودياً ولا نَصْرانيّاً ، وإنَّما كانَ حَنيفاً مُسْلِماً .

٢ـ أمّا القَضيَّةُ الثّانيةُ الّتي جادَلوا فيها الرَّسولَ ﷺ ، فَهِيَ جَعْلُ الكَعْبَةِ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمينَ ، بَعْدَ أَنْ كانوا يَتوجَّهونَ في صَلاتِهِمْ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : قُلْ لِهؤلاءِ المُجادِلينَ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ تَعالى للنّاسِ لِيَكونَ مَكاناً لِلْعِبادَةِ هُوَ البَيْتَ الحَرامُ في مَكّةَ المُكَرَّمةِ ، حَيْثُ بَناهُ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهذا البَيْتُ لَهُ فَضائِلُ كَثيرةٌ ، مِنْها أَنَّهُ :

١ـ مُبارَكٌ : والبَرَكَةُ تَعْني : النُّمُوَّ والزِّيادَةَ والبَقاءَ والدَّوامَ ، فَقَدْ بارَكَ اللهُ في هذا المكانِ ، فَجَعَلَ فيهِ ثَمَراتٍ وزُروعاً مَعَ أَنَّهُ كانَ بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ .

٢ـ هُدىً للعالَمينَ : وذَلِكَ لأَنَّ القُلوبَ تَهوي إلَيْهِ ، فَيأتي النّاسُ مُشاةً ورُكْباناً مِنْ كُلِّ مكانٍ لأداءِ مَناسِكِ الحَجِّ والعُمْرَةِ .

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

٣ـ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ ، أي : فيهِ دَلائِلُ واضِحاتٌ على أنَّ دينَ اللهِ واحدٌ ، أَحَدُها مَقامُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهُوَ الحَجَرُ الّذي كان يقومُ عليه عِنْدما ارتَفَعَ ، ثُمَّ أُمِرْنا باتّخاذِهِ مصلّىً .

٤ـ ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ أي : مِنْ آياتِهِ البَيِّنَةِ الواضِحَةِ أنَّ مَنْ دَخلَ الحرمَ كانَ آمناً على نَفْسهِ ومالِهِ ، فَقَدِ اتَّفَقَ العَرَبُ عَلى احْتِرام البَيْتِ الحَرام وتَعْظيمِهِ ، فَمَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ على نَفْسهِ مِنَ الاعْتِداءِ والإيذاءِ ، وجاءَ الإسْلامُ فحرَّمَها كَذلِكَ . خَطَبَ النَّبيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، ومِمّا قالَهُ : إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها اللهُ ، ولَمْ يُحَرِّمْها النّاسُ ، فَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ يَسْفِكَ بِها دَماً أوْ يَعْضُدَ بِها شَجَرَةً ، فإنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتالِ رَسولِ اللهِ ﷺ فيها ـ إني آخِذٌ فيهِ بالرُّخصةِ ـ فَقولوا لَهُ إنَّ اللهَ أَذِنَ لِنبيِّهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لكُمْ ، وإنّما أَذِنَ لِي فيها ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، وقَدْ عادَتْ حُرْمَتُها اليَوْمَ كَحُرْمَتِها بالأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الغائِبَ[1] .

لَقَدْ عَظَّمَ اللهُ تَعالى هَذا البَيْتَ ، ولِذا فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى عَلى المُسْتَطيعِ مِنَ البَشَرِ حَجَّ البَيْتِ تَعظيماً لَهُ .

إنّ مَنْ كَفَرَ وَجَحَدَ أنَّ هَذا البَيْتَ هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ لِلْعِبادةِ في الأَرْضِ ، وأدّى كُفْرُهُ إلى تَرْكِ الحَجِّ ، فإنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْهُ وعَنْ حَجِّهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَيْسَ مُحْتاجاً لأَحَدٍ ولِعبادةِ أَحَدٍ ، فَما يَقومُ بِهِ الإنْسانُ مِنْ عَمَلٍ ومِنْ طاعَةٍ ، يَنْفَعُ بِهِ نَفْسَهُ هوَ لا أَحَداً غَيْرَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّرْغيبُ في الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ممّا يُحِبُّهُ الإنْسانُ .

٢ـ الحَثُّ عَلى إخْفاءِ الصَّدَقةِ ، كَيْ لا يَكونَ للشَّيْطانِ مَنْفَذٌ إلى قُلوبِ الأَبْرارِ المُخْلِصينَ .

٣ـ تَكذيبُ اليَهودِ في دَعْواهُمْ أنَّ ما حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ، وإنّما كانَ مُحرَّماً عَلى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ سَبَقَهُمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب : فليبلغ الشاهد الغائب ، حديث رقم ١٠٤ .

٤ـ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ لِعبادةِ اللهِ تَعالى هُوَ البَيْتُ الحَرامُ ، الّذي هُوَ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالبِرِّ ؟ ومَتَى يَنالُهُ الإنْسانُ ؟

٢ـ هاتِ مِثالاً عَلى تَحرِّي الصَّحابَةِ النَّفقةَ مِنَ المالِ الّذي يُحبُّونَهُ .

٣ـ ناقَشَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ في قَضِيَّةِ تَحريمِ بَعْضِ الأَطْعِمَةِ ، اكْتُبِ الآيَةَ المُتحدِّثَةَ عَنْ ذَلِكَ .

٤ـ لِمَ حَرَّمَ اللهُ عَلى اليَهودِ بَعْضَ الأَطْعِمَةِ ؟ وهَلْ كانَتْ مُحَرَّمَةً عَلى غَيْرِهِمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٥ـ بِمَ تَوَعَّدَ اللهُ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ جادَلوا في قَضِيَّةِ التَّحريمِ ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآيةُ بَعْضَ الفَضائِلِ لِلْبَيْتِ الحرامِ ، اذْكُرْها بالتَّرتيبِ كَما وَرَدَتْ في الآيَةِ .

٧ـ كَيْفَ عَظَّمَ اللهُ تَعالى البَيْتَ الحَرامَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ سورةِ الإنْسانِ (الدَّهرِ) الّتي تُشيرُ إلى المَعْنى الواردِ في الآيةِ (٩٢) .

٢ـ أينَ يَقَعُ مَقامُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبِ في دَفْتَرِكَ مَتَى يَكونُ المُسْلِمُ مُسْتَطيعاً للحَجِّ .

٤ـ ما الّذي حَرَّمَهُ يَعقوبُ عَلى نَفْسِهِ ؟ وما الّذي حَرَّمَهُ اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ ؟ ارْجِعْ إلى كُتُبِ التَّفْسيرِ المُتاحَةِ واسْتَخْرِجْ مِنْها هذيْنِ الأَمْرَيْنِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ - القِسْمُ الثَّاني والعِشْرونَ

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

شَهيدٌ : عالِمٌ بالشَّيءِ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ .

تَصدُّونَ : تَصْرِفونَ غَيْرَكُمْ .

سَبيلِ : طَريقِ .

عِوَجاً : ومَيْلاً عَنِ الاسْتواءِ ، وهُوَ هُنا : الزَّيْغُ التَّحْريفُ .

يَعْتَصِمْ : يَتَمَسَّكْ .

التَّفسيرُ :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ .

لَقَدْ جُبلَ أَهْلُ الكِتابِ عَلى الكَيْدِ لِدينِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ يُحاوِلونَ دائِماً إثارةَ الفِتَنِ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، لِيَصدُّوهُمْ عَنْ دينِهِمْ ، ولِذا تَأْتي الآياتُ القُرْآنيَّةُ لِتُحَذِّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ شُرورِهِم وتَوبِّخَ أَهْلَ الكِتابِ عَلى مَكْرِهِمْ وتَتوعَّدهُمْ بالمَصيرِ السَّيِّى .

سَبَبُ نُزولِ الآياتِ :

أخْرَجَ ابنُ جَريرٍ الطَّبَريُّ ، أنَّ شاسَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ عَلى نَفَرٍ مِنَ الصَّحابَةِ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ في مَجْلسٍ ، فَغاظَهُ ما رَأى مِنْ جَماعَتِهِمْ وأُلْفَتِهِمْ ، فَأَمَرَ شاباً مِنَ اليَهودِ كانَ مَعَهُ ، فَقالَ لَهُ : اعْمَدْ إِلَيْهِمْ فاجْلِسْ مَعَهُمْ وذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعاثٍ[1] ، وما كانَ قَبْلَهُ ، وأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ ما قالوهُ مِنْ أَشْعارٍ ، وعِنْدَ ذَلِكَ تَنازَعَ الأَوْسُ والخَزْرَجُ وتَفاخَروا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، حتّى أصابَ كُلَّ فَريقٍ الغَضَبُ ، فَتَواعَدوا القِتالَ مَرّةً أُخْرى وهُمْ في الإسْلام ، وسَمِعَ رَسولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فيمَنْ مَعَهُ مِنَ المُهاجِرينَ حتّى جاءَهُمْ فَقالَ : يا مَعْشَرَ المُسْلمينَ ، اللهَ اللهَ ، أبِدَعْوى الجاهِلِيّةِ وأَنا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَداكُمُ اللهُ إلى الإِسْلامِ وأَكْرَمَكُمْ بِهِ وقَطَعَ بِهِ عَنْكُم أَمْرَ الجاهِلِيّةِ ، واسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الكُفْرِ ، وأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُم . فَأَلْقَوْا السِّلاحَ مِنْ أَيْديهِمْ ، وبَكَوْا وعانَقَ الرِّجالُ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، ثُمَّ انْصَرَفوا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، سامِعينَ مُطيعينَ ، قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللهِ شاسَ بنِ قَيْسٍ ، وأَنْزَلَ اللهُ هذهِ الآياتِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى: قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ مُخاطِباً أَهْلَ الكِتابِ ومُنادِياً عَلَيْهِمْ : لأيِّ سَبَبٍ تَكْفُرونَ بِتِلْكَ الآياتِ الدّالَّةِ عَلى صِدْقي ، سَواءٌ أَكانَتْ آياتٍ نَزَلَتْ في كِتابِ اللهِ ، أَمْ تِلْكَ الآياتِ المَبْثوثَةِ في الكَوْنِ ، لِمَ تَكْفُرونَ بِها والحالُ أَنَّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ وعالِمٌ بِأَعْمالِكُمْ ظاهِرِها وباطِنِها ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْها بِما تَسْتَحِقّونَ مِنْ عِقابٍ ، والاسْتِفْهامُ في (لِمَ) لِلتَّوْبيخِ . وقَدْ ناداهُمُ اللهُ تَعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ زِيادَةً في تَوْبيخِهِمْ ، فَإِنَّ كَوْنَهُمْ أَصْحابَ كِتابٍ يَنْبَغي أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ ، وتَصْديقِهِ ، ولَكِنَّهُم كَفَروا بِهِ وصَدّوا عَنْهُ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

وَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ ﷺ مُوَبِّخاً كَذَلِكَ : لِماذا تَصْرِفونَ أُولَئِكَ الَّذينَ آمَنوا بي واتَّبَعوني عَنْ هذا الحَقِّ وتَمْنَعونَهُمْ مِنَ الاسْتِمْرارِ عَلى هذا الدّينِ ، وذَلِكَ بِإِثارَتِكُمْ لِلْفِتَنِ وإِلْقاءِ الشُّبُهاتِ الباطِلَةِ في قُلوبِ الضُّعَفاءِ مِنَ المُسْلمينَ بَغْياً وكَيْداً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، تَبْغونَ لأَهْلِ دينِ اللهِ ولِمَنْ هُوَ عَلى سَبيلِ الحَقِّ عِوَجاً وضَلالاً ، فَأَنْتُمْ تَلْبِسونَ عَلى النّاسِ حَتّى تُوهِموهُمْ أَنَّ في دينِهِمْ عِوَجاً ، لِمَ تَفْعَلونَ كُلَّ هَذا ؟ والحالُ أَنَّكُمْ تَعْلَمونَ أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ الدّينُ الحَقُّ ، فَكُفْرُكُمْ لَيْسَ عَنْ جَهْلٍ بَلْ عَنْ مَكْرٍ وخِداعٍ .

إِنَّ اللهَ تَعالى لَيْسَ غافِلاً عَنْ أَعْمالِكُمْ ، وصَدِّكُمْ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ، وَسَيُجازيكُمْ عَلَيْها بِما تَسْتَحِقّونَ ، وفي هذا تَهْديدٌ وَوَعيدٌ لَهُمْ عَلى ضَلالِهِمْ وإِضْلالِهِمْ غَيْرَهُمْ .

---

(١) يوم بعاث : يوم اقتتلت في الأوس والخزرج وكان النصر فيه للأوس .

وبَعْدَ أنْ هدَّدتِ الآياتُ أهْلَ الكِتابِ ، حَذَّرَتِ المُؤْمنينَ مِنْ خطَرِ إغْواءِ أَهْلِ الكِتابِ وإضْلالِهِم ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ناداهُمْ بِهذا النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ واصِفاً لَهُمْ بِتِلْكَ الصِّفةِ المُحبَّبَة : الإيمانَ ، مُثيراً لَهُمْ وحاثّاً عَلى الاسْتِجابةِ لِما تأمُرُهُمْ بِهِ الآياتُ ، قائِلاً لَهُمْ بأنَّكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ إذا أصْغَيْتُم لِما يُلْقيه إلَيْكُمْ هؤلاءِ اليَهودُ مُثيرينَ بَيْنَكُمُ الفِتْنَةَ ، واسْتَجَبْتُمْ لِما يَدْعونَكُمْ إلَيْهِ ، رَدّوكُمْ إلى الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ كَما قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

إنَّ الكُفْرَ يُؤَدِّي إلى الهَلاكِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، أمّا في الدُّنيا فَيكونُ بوُقوعِ العَداوةِ والبَغْضاءِ ، وكَثْرَةِ الفِتَنِ الّتي تُؤدِّي إلى سَفْكِ الدِّماءِ ، وأمّا في الآخِرَةِ فَيَكونُ بإيقاعِ النَّفْسِ في عَذابِ اللهِ وعِقابِهِ .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

ولَكِنْ كَيْفَ يُتصوَّرُ مِنكُمُ الكُفْرُ أيُّها المُؤْمنونَ ، والحالُ أنَّ القُرْآنَ الكَريمَ تُتْلى آياتُهُ عَلى مَسامِعِكُمْ عَلى لِسانِ رَسولِكُمْ ﷺ صَباحَ مَساءَ ، وهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ يُنَبِّهُكُمْ على الصَّوابِ إنْ أَخْطَأْتُمْ ، ويَعِظُكُمْ ، ويُبيِّنُ لَكُمْ ما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، ولَكُمْ في سُنَّتِهِ خَيْرَ أُسْوَةٍ تَزيدُ إيمانَكُمْ وتُنيرُ قُلوبَكُمْ ، ومَنْ كانَ هذا مَثَلُهُ فلا يَنْبَغي أنْ يَلْتَفِتَ إلى ما يُثيرُهُ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ فِتَنٍ ، بَلِ الواجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَرْجِعَ إلى الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ كُلِّ شُبْهَةٍ يُثيرُها أَهْلُ الكِتابِ ، لِيَتَبَيَّنَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اليَهودُ يُحاوِلونَ دائِماً الكَيْدَ لِهذا الدِّينِ بإيقاعِ الفِتَنِ وإثارةِ الشُّبُهاتِ .

٢ـ اللهُ تَعالى بالمِرْصادِ لِكُلِّ مُعْتَدٍ صادٍّ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى .

٣ـ مَنْ تَمسَّكَ بِكِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ فَقدِ اهْتَدى إلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اذْكُرْ سَبَبَ نُزولِ هذهِ الآياتِ.

٢ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ ؟ ولِمَ ناداهُم هَذا النِّداءَ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بآياتِ اللهِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِأَيَاتِ اللهِ﴾ ؟

٤ـ لِماذا يُحاوِلُ اليَهودُ دائِماً إثارَةَ الفِتَنِ بيْنَ المُسْلِمينَ ؟

٥ـ مِمَّ حَذَّرتِ الآياتُ المُؤْمنينَ ؟

٦ـ اسْتَبْعَدَتِ الآياتُ أنْ يَكْفُرَ الّذينَ آمنُوا بَعْدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ ، وضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما الطَّريقُ للوُصولِ إلى الحَقِّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ ما تَسْتَفيدُه مِنْ عِبرٍ مِنْ حادِثَةِ تحريضِ اليهودِ بَيْنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ . واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما الواجِبُ عَلَيْنا نَحْنُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ تِجاهَ تِلْكَ الشُّبُهاتِ الّتي يُثيرُها أَعْداءُ الإسْلامِ ؟ وما المَرْجِعُ لَنا في ذَلِكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ - القِسْمُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٢) وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠٣) وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١٠٥)

مَعاني المُفْرَداتِ :

تُقاتِهِ : تَقْواهُ .

حَبْلِ اللهِ : كِتابُ اللهِ .

شَفَا حُفْرَةٍ : طَرَفِها .

أُمَّةٌ : جَماعةٌ مُؤَلَّفَةٌ .

الخَيْرِ : ما فيهِ صَلاحُ النّاسِ في الدِّينِ والدُّنيا .

المَعْروفِ : ما اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ والعَقْلُ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٢) وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠٣) ﴾ .

إنَّ الطَّريقَ الموصِلَةَ إلى دينِ اللهِ تَعالى ورِضاهُ هُوَ الاسْتِمْساكُ بِكِتابِ اللهِ تَعالى ، وسُنَّةِ

رَسولِهِ ﷺ ، والاسْتِمْساكُ بِكِتابِ اللهِ إنَّما يَكونُ بِطاعَةِ اللهِ تَعالى ، وامْتِثالِ أَوامِرِهِ وتَرْكِ نَواهيهِ ، وهَذِهِ هِيَ تَقوى اللهِ تَعالى ، وفي هذِهِ الآياتِ مَجْموعَةٌ مِنَ التَّوجيهاتِ الإلهيَّةِ للمُؤْمِنينَ :

١ـ تَقوى اللهِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ يُناديهِمْ سُبْحانَهُ بِهذِهِ الصِّفَةِ الكَريمَةِ حاثّاً لَهُمْ عَلى امْتِثالِ أوامِرِهِ تَعالى ، فَيَقولُ لَهُمْ : عَلَيْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تَتَّقوا اللهَ تَعالى ، وذَلِكَ بِمُراقَبَتِهِ تَعالى وخَشْيَتِهِ ، وأنْ تَلْتَزِموا بما أمَرَكُمْ بِهِ سُبْحانَهُ ، وتَجتَنِبوا ما نَهاكُمْ عَنْهُ ، عَنِ ابنِ مَسْعودٍ أنَّهُ قالَ : تَقوى اللهِ أنْ يُطاعَ فَلا يُعْصَى ، ويُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ ، ويُذْكَرَ فَلا يُنْسى .

وَعَلَيْكُمْ أنْ تَسْتَمِرُّوا عَلى دينِكُمْ ، وتُداوِموا عَلَيْهِ إلى أنْ يُدْرِكَكُمُ المَوْتُ ، فَتَموتوا عَلى هذِهِ المِلَّةِ السَّمْحاءِ وهِيَ مِلَّةُ الإسْلامِ حتّى تَفوزوا بِرِضا اللهِ تَعالى وحُسْنِ ثَوابِهِ . إنَّ أهْلَ الكِتابِ يَحْرِصونَ عَلى أنْ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرينَ ، ولَكِنْ عَلَيْكُم أنْ لا تَسْمَحوا لَهُمْ ، وتَسْتَمِرُّوا عَلى دينِكُمْ وتَموتوا مُسْلِمينَ لِتَنالوا رِضا اللهِ تَعالى .

٢ـ الاعْتِصامُ بِدينِ اللهِ : وبَعْدَ أنْ أمَرَتِ الآياتُ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعالى أمَرَتِ المُسْلِمينَ بالاعْتِصامِ بِدينِ اللهِ تَعالى ، فَقالَ تَعالى لَهُمْ : تَمَسَّكوا أيّها المُؤْمِنونَ بِكِتابِ اللهِ تعالى وبِدينِهِ وعَهْدِهِ الّذي أخَذَهُ عَلَيْكُمْ ، ولا تَفَرَّقوا كَما كانَ حالُكُمْ في الجاهِلِيَّةِ ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ ، بَلِ اجْتَمِعوا عَلى طاعَةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

لَقَدْ شَبَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى العَهْدَ الّذي أخَذَهُ عَلَيْنا بالحَبْلِ ، فَكِلاهُما فيهِ النَّجاةُ ، فالعَهْدُ يُنَجّي صاحِبَهُ مِنْ نارِ جَهَنَّمَ ، والحَبْلُ يُنَجّي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ مِنَ الغَرَقِ والهَلاكِ ، وحَذْفُ المُشَبَّهِ هُنا ، وذِكْرُ المُشَبَّهِ بِهِ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّةِ .

لَقَدْ جَعلَ اللهُ الدِّينَ كَأَنَّهُ حَبْلٌ مَتينٌ يَأْخُذُ بِهِ الإنْسانُ حتَّى يَأْمَنَ مِنَ السُّقوطِ في الهاوِيَةِ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (القُرْآنُ حَبْلُ اللهِ المَتينُ ، لا تَنْقَضي عَجائِبُهُ ، ولا يَخْلَقُ عَلى كَثْرَةِ الرَّدِّ مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ ، ومَنْ عَمِلَ بِهِ رَشَدَ ، ومَنِ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ)[1] .

٣ـ النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ : لَقَدْ أمَرَ اللهُ المُؤْمِنينَ بالتَّمَسُّكِ بِدينِهِ ، وأَنْ يَكونوا كالجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَهَرِ ، وأنْ لا يَتفرَّقوا ؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ يُؤَدّي إلى الضَّعْفِ والفَشَلِ .

٤ـ ذِكْرُ نِعْمَةِ اللهِ : عَلَيْكُمْ أيها المُؤْمِنونَ أنْ تَذْكُروا نِعَمَ اللهِ تَعالى الكَثيرةَ عَلَيْكُمْ ، ومِنْ أعْظَمِ تِلْكَ النِّعَمِ أنَّه سُبْحانَهُ ألَّفَ بَيْنَكُمْ وجَمَعَ بَيْنَكُمْ ، وجَعَلَكُمْ إخْواناً ، بَعْدَ أنْ كُنْتُم أعْداءً في الجاهِلِيَّةِ تَتَقاتَلونَ وتَتَنازَعونَ فيما بَيْنَكُمْ ، يَأْكُلُ قَوِيُّكُمْ ضَعيفَكُمْ ، لَقَدْ جاءَ الإسْلامُ لِيُؤَلِّفَ بَيْنَكُمْ بِأُخوَّةِ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن .

الدِّينِ ، فَأَصْبَحْتُم مُتَحابِّينَ مُتَناصِحينَ مُتوادِّينَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُم بوَثَنِيَّتِكُمْ وشِرْكِكُمْ وضَلالِكُم واخْتِلافِكُمْ عَلى وَشْكِ الوُقوعِ في نارِ جَهنَّمَ ، لَوْلا رَحْمَةُ اللهِ بِكُمْ حَيْثُ أَنْقَذَكُمْ مِنَ التَّرَدِّي في نارِ جَهنَّمَ ؛ وذلِكَ بِهِدايَتِكُمْ إلى الحقِّ عَنْ طَريقِ الرَّسولِ ﷺ الّذي جاءَكُمْ بِهذا الدِّينِ .

لَقَدْ صَوَّرَ سُبْحانَهُ حالَ المُؤْمنينَ وَقْتَ أَنْ كانوا كافِرينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بحالِ مَنْ يَكونُ عَلى طَرفِ حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فيها ، وصَوَّرَ هِدايَتَهُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ بِحالةِ مَنْ يُبْعِدُ غَيْرَهُ عَنْ تِلكَ الحُفْرةِ ، ويُنْقِذُهُ مِنَ الوُقوعِ فيها .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : كَما بيَّنَ لَكُمْ سُبْحانَهُ ما يُثيرُهُ اليَهودُ مِنْ فِتَنٍ ، وبَيَّنَ لَكُمْ سُبْحانَهُ ما أَمَرَكُمْ بِهِ ، وما نَهاكُمْ عَنْهُ ، وبَيَّنَ لَكُمُ الحالَ الّتي كُنْتُمْ عَلَيْها ، والحالَ الّتي صِرْتُمْ إلَيْها ، كَذَلِكَ يُبيِّنُ لَكُمْ سُبْحانَهُ سائِرَ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ عَلى لِسانِ نَبيِّهِ ﷺ حتّى تَكونوا مُهْتَدينَ .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

٥ـ الدَّعْوةُ إلى اللهِ : إنَّ المُؤْمِنَ الصّادِقَ لا يَكْتَفي بأنْ يَكونَ مُهْتَدِياً إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ وأنْ يكونَ مُؤْمِناً لِنَفْسِهِ فَقط ، ولكِنْ عَلَيْهِ لِكَمالِ إيمانِهِ ، أَنْ يَدعُوَ النّاسَ إلى دينِ اللهِ تَعالى .

٦ـ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ المُؤْمنينَ بِتَقواهُ وطاعَتِهِ ، يَأْمُرُهُمْ بالدَّعْوةِ إلى اللهِ تَعالى قائِلاً لَهُمْ : كونوا أُمَّةً مُتَميِّزَةً ، تَقومُ بالدَّعْوَةِ إلى الخَيْرِ ، وتَأْمُرُ بالمَعْروفِ ، وتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ ، وكُلُّ مُؤْمِنٍ مُخاطَبٌ بِهذِهِ الآيةِ بالأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ ، ويَدْخُلُ فيها دُخولاً أَوليّاً العُلَماءُ بالقُرْآنِ والسُّنَّةِ وسيرةِ النَّبيِّ ﷺ والخُلَفاءُ الرّاشِدونَ ، ثُمَّ كُلُّ إنْسانٍ مَأْمورٌ بالدَّعْوةِ إلى الخَيْرِ حَسَبَ الأُمورِ الّتي يَعْلَمُها ، لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها .

إنَّ الأُمَّةَ الّتي تَأْمُرُ بالمَعْروفِ وتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وأَفْضَلُها ، وهذا ما ضَمِنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لَها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

إنّها أُمَّةٌ تَسودُ غَيْرَها مَنَ الأُمَمِ باجْتِماعِ كَلِمَتِها ، واتِّفاقِ أَهْوائِها ، إذْ لا مَطْمَعَ لَها إلاّ رِفْعَةُ هذا الدِّينِ وعِزَّةُ أَبْنائِهِ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

٧ـ عَدَمُ التَّشَبُّهِ بالكافِرينَ : إنَّ الأُمَّةَ الدّاعِيَةَ ، الآمِرَةَ بالمَعْروفِ والنّاهيةَ عَنِ المُنْكَرِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ أُمَّةً مُتَفرِّقَةً ، ولِذا يَنْهى سُبْحانَهُ المُؤْمنينَ عَنْ أَنْ يَكونوا مِثْلَ أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ تَفرَّقوا في دينِهِمْ ، وكانوا شِيَعاً ، تَذْهَبُ كُلُّ شيعةٍ مِنْها مَذْهَباً يُخالِفُ مَذْهَبَ الآخَرِ ، ويُكَفِّرُ بَعْضُها بَعْضاً ، إذْ

يَزْعُمُ كُلُّ أصحابِ مَذْهبٍ أنّه عَلى الحَقِّ وغَيْرَه عَلى الباطِلِ ، وها نَحْنُ اليَوْمَ نَرى النَّصارى فِرَقاً مُتعدِّدةً ، ونَرى اليَهودَ كَذلِكَ ، واخْتلافُهُمْ هَذا إنّما كانَ بَعْدَ مَجيءِ الآياتِ الواضِحَةِ الّتي تَجْمعُ النّاسَ عَلى الحَقِّ ، ولكنَّ هَؤلاءِ لِعنادِهِمْ وجُحودِهِمْ تفرَّقوا واخْتَلفوا ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ يَشْمَلُ خُسْرانَهم في الدُّنيا ، وخُسْرانَهُمْ في الآخِرَةِ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أيّها المُؤْمِنونَ أنْ لا تَكونوا مِثْلَهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَمْرُ بِتَقْوى اللهِ تَعالى وذَلِكَ بامْتِثالِ أوامِرِهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ، والاسْتِمرارِ عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ الاعْتِصامُ بِحَبْلِ اللهِ المَتينِ ، وعَدَمُ الاعْتِدادِ بالعَصبيّاتِ الجِنْسيّةِ ، وذَلِكَ لأنَّ الأُمَمَ والأَوْطانَ لَنْ تَرقى إلاّ باتِّحادِها عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٣ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى بالخَلْقِ ، حَيْثُ بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ ، مُنْقِذاً لَهُمْ مِنْ نارِ جَهنَّمَ ومُخْرِجاً لَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ .

٤ـ بالدَّعْوةِ إلى الخَيْرِ والأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ تَكونُ الأُمَّةُ الإسْلاميّةُ خَيْرَ الأُمَمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ ؟ وما المَقْصودُ بالتَّقْوى ؟

٢ـ قارِنْ بَيْنَ ما يُريدُه أَهْلُ الكِتابِ مِنَ المُسْلِمينَ وما يُريدُهُ اللهُ تَعالى مِنْهُم .

٣ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ صورةٌ بيانِيَّةٌ بَديعيّةٌ . وضِّحْها .

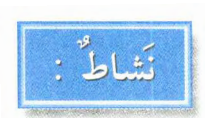
٤ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ النّاسِ قَبْلَ الإسْلامِ وحالِهِمْ بَعْدَهُ .

٥ـ ما واجِبُ المُسْلِمِ الّذي يَهْتَدي إلى الحَقِّ ؟

٦ـ كَيْفَ تَفرَّقَ أَهْلُ الكِتابِ في دينِهِمْ ؟

٧ـ ما واجِبُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ تِجاهَ هذا الدِّينِ ؟

٨ـ اذْكُرْ بالتَّرتيبِ التَّوجيهاتِ الرَّبانيَّةَ للمُؤْمنينَ كما جاءَ في الآياتِ الكَريمةِ .



١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ تَفْسيراً لِقَوْلِ الرَّسولِ ﷺ (القُرآن حَبْلُ اللهِ المتينُ . . . . .) .

٢ـ اذْكُرْ ثَلاثَ صُوَرٍ : أَمْثِلَةٍ ؛ مِنْ صُوَرِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٣ـ بيِّنْ حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ ، هَلْ هُم مُتَّفِقونَ ؟ أوْ أنَّهُمْ صاروا مِثْلَ أَهْلِ الكِتابِ ؟ ولِمَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ الرَّابعُ والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الرّابعُ والعِشْرونَ

يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَبْيَضُّ وُجوهٌ : تُسَرُّ بِما قدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ فتَراها بَيْضاءَ مُشْرِقَةً .

تَسْوَدُّ وُجوهٌ : تَسوءُ وتَغْتَمُّ بِسَبَبِ عَمَلِها السَّيِّءِ فتَراها سَوْداءَ مُعْتِمَةً .

رَحْمةِ اللهِ : جَنّتِه .

ظُلْماً : وَضْعُ الشّيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

أُخْرِجَتْ : أُظْهِرَتْ حتّى تميّزَتْ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ رَحْمةِ اللهِ تَعالى بالخَلْقِ أنَّهُ يُبيِّنُ لَهُمُ الحَقَّ والباطِلَ ، لِيَتَّبِعوا الحَقَّ ، وَيَبْتَعِدوا عَنِ

الباطِلِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُبيِّنُ لَهُمَ نَتيجةَ الحَقِّ أوِ الباطِلِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، لِيَجْتَهِدَ العاقِلُ المُدْرِكُ لِيَكونَ مِنْ أَصْحابِ الحَقِّ ، ولِيَحْذَرَ مِنَ أنْ يَكونَ مِنْ أصْحابِ الباطِلِ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تُحذِّرُ المُؤْمِنينَ مِنْ أَهْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : اذْكُروا أيُّها النّاسُ ذَلِكَ اليَوْمَ الّذي تَبْيَضُّ فيهِ وُجوهٌ وتُشْرِقُ بنورِ اللهِ تَعالى ، مَسْرورةً مُسْتَبْشِرَةً بِرِضا اللهِ تَعالى بِسَبَبِ الإيمانِ والأَعْمالِ الصّالِحةِ الّتي كانَتْ مِنْ أَصْحابِها في الدُّنيا ، وتَسْوَدُّ وُجوهٌ مُغْتَمَّةٌ حَزينةٌ بِسَبَبِ كُفْرِها وما اقْتَرَفَتْهُ مِنْ سوءٍ في الدُّنيا . وفي هذا تَهْويلٌ لِيَوْمِ القِيامةِ وتَعْظيمٌ لِشَأْنِهِ ، وتَرْغيبٌ لِلْمُؤْمنينَ في التَّزوُّدِ بالعَمَلِ الصّالِحِ ، وتَرْهيبٌ للكافِرينَ مِنَ التَّمادي في الكُفْرِ والضَّلالِ .

ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ حالَ الّذينَ اسْوَدَّتْ وُجوهُهُمْ ، وسوءَ عاقِبَتِهِم ، وقَدِ ابْتَدأَتْ بِهِمُ الآياتُ تَرْهيباً لَنا كَيْ لا نَكونَ مِنْهُمْ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأَعْمالِهِمُ القَبيحَةِ وبِسَبَبِ تَفرُّقِهِمْ واخْتِلافِهِم في دينِهِمْ ، وهَؤُلاءِ يُقالُ لَهُمْ يومَ القيامةِ

﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ والاسْتِفْهامُ للتَوْبيخِ والتَّعجُّبِ مِنْ حالِهِمْ ، ويُقالُ لَهُمُ ادْخلوا جَهنَّمَ ، وذوقوا مَرارَةَ العذابِ وآلامَهُ بِسَبَبِ اسْتِمْرارِكُمْ عَلى الكُفْرِ ومَوْتِكُمْ عَلَيْه ، والأَمْرُ في قَوْلِهِ : ﴿فَذُوقُوا﴾ للإهانَةِ والإذْلالِ لَهُمْ .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

وَبَيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ حالَ الّذينَ ابْيَضَّتْ وُجوهُهُمْ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ بِسَبَبِ إيمانِهِمْ وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ ﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي : هُمْ خالِدونَ في الجَنَّةِ ، وإنَّ الجَنَّةَ مَحَلٌّ للرَّحْمةِ ، والرَّحْمَةُ حالَةٌ في الجَنَّةِ ، ولِذا حَسُنَ أنْ يَحِلَّ أحَدُ المَعْنَيَيْنِ مَحِلَّ الآخَرِ ، فَفي الآيَةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ عَلاقَتُهُ الحالِيَّةُ .

إنَّ هَؤُلاءِ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، وهذا فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وهُمْ خالِدونَ في هذهِ الجَنَّةِ ونَعيمِها الدّائِمِ الّذي لا يَنْفَدُ ، والّتي فيها مالا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ، وفي هذا ما يُغري الإنْسانَ لِيَكونَ مِمَّنْ يَعْمَلُ الصّالِحاتِ ويَتَمسَّكُ بِدينِ اللهِ تَعالى .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

إنَّ هذِهِ الآياتِ الّتي يَتْلوها سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ وعَلَيْنا ، جاءَتْ لِتُقرِّرَ الحَقَّ الّذي لا شُبْهَةَ فيهِ ، تِلْكَ الآياتُ الّتي تَهْدي إلى الرُّشْدِ ، وتَشْهَدُ بِوَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وبِصِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ، وقَدْ أسْنَدَ سُبْحانَهُ التِّلاوَةَ إلى نَفْسِهِ ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ لِلتَّنبيهِ عَلى شَرَفِ هذهِ الآياتِ وعِظَمِها ، وهُوَ سُبْحانَهُ في إنْزالِ هذِهِ الآياتِ ، إنَّما يُريدُ هِدايَةَ البَشَرِ ، إلى ما فيهِ خَيْرُهُمْ ، وهُوَ لا يُريدُ ظُلْمَهُمْ ، ولَكنَّهُمْ هُمْ لاخْتِيارِهِمُ الضَّلالةَ عَلى الهُدى ، ولِكَوْنِهِمْ فَسَقوا عَنْ أَمْرِ اللهِ ، ولِتَفرُّقِهِمْ واخْتِلافِهِمْ ، كانوا ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

إنّ اللهَ تعالى هُوَ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وهُوَ المُتَصرِّفُ في شُؤونِ العِبادِ مُلْكاً وخَلْقاً وتَدْبيراً وإحْياءً وإماتَةً ، وإليْهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ تُرْجَعُ أُمورُ النّاسِ ، فَيُجازي الّذينَ أَحْسَنوا الحُسْنى ، والّذينَ أساءوا بما عَمِلوا .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

خَيريَّةُ أُمّةِ الإسْلام : وتَعودُ الآياتُ لِتُؤَكِّدَ عَلى قَضيةِ الأَمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، لأنَّ فيهِ الخَيْرَ العَظيمَ لأُمَّةِ هذا الدينِ ، ولِذا يَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمِنينَ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ : كُنتمْ خَيْرَ أُمَّةٍ في الوُجودِ ، أَخْرَجها اللهُ تَعالى لِنَفْعِ النّاسِ ، وهِدايَتِهِمْ ، وأمّا سَبَبُ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فلأَنَّهُمْ يَأْمُرونَ بالمَعْروفِ ويَنْهوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ويُؤْمِنونَ باللهِ ، أي : يُصَدِّقونَ بِهِ ، ويَخْضَعونَ لَهُ ، ويُخلِصونَ لَهُ في العِبادةِ ، ويُطيعونَهُ في كل ما أمرَهُمْ بِهِ وما نَهاهُمْ عَنْهُ ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : كُنْتُمْ ، ولمْ يقلْ : أنْتُم ، لأنَّهُ لَوْ قالَ أنتُم كانتِ الآيةُ خاصَّةً بَصَحابَةِ رسولِ اللهِ ، ولكنَّهُ قالَ كُنْتمْ ، لِيَدْخُلَ فيها كُلُّ مَنْ يَأْمُرُ بالمَعْروفِ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ منْ أُمَّةِ الإسْلام .

وانْظُر إلى أَهميّةِ هذا الأَصْلِ العَظيمِ مِنْ أُصولِ الإسْلام ، وهُوَ الأَمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ، حَيْثُ قدَّمهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى الإيمانِ ، مَعَ أنَّ الإيمانَ باللهِ هُوَ أَساسٌ لِقَبولِ العَمَلِ . وما ذلِكَ إلاّ لِيُبيِّنَ لَنا سُبحانَهُ أنَّ هَذا الإيمانَ إذا أَرَدْنا أنْ نَسْتَظِلَّ بظِلالِهِ الوارِفةِ ونَجْنِيَ مِنْ ثمارِهِ اليانِعَةِ ، ونَسْتَضيءَ بأَنْوارِهِ الكاشِفَةِ ، إذا أَرَدْنا ذَلِكَ فلابُدَّ مِنَ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ . وإلاّ اتَّبَعَ كُلٌّ هواهُ ، وكانَ الإيمانُ أمانِيَّ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، ولَيْسَ الإيمانُ بالتَّمنِّي ، ولَكِنَّ الإيمانَ بِصِدْقِ العَمَلِ .

ومِنَ مَخاطِرِ تَرْكِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهي عَنِ المُنْكَرِ :

١ـ تَكونُ الأُمةُ شرَّ أُمّةٍ ، إذْ يصيرُ الضَّعْفُ والجَهْلُ ، والتّأَخُّرُ والذِّلَّةُ ، والبُغْضُ والتّدابُرُ ، والجُبْنُ والبُخْلُ والجَزَعُ والأنانيَّةُ مِنَ الصِّفاتِ البارِزَةِ فيها .

٢ـ وَهُوَ سُبْحانَهُ يَحولُ بَيْنَ الأُمّةِ وبَيْنَ الانْتِصارِ عَلى عَدوِّها ، بِسَبَبِ تَرْكِها للأَمْرِ بالمَعْروفِ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (يا أيُّها النّاسُ ، إنَّ اللهَ يَقولُ لَكُمْ مُروا بالمَعْروفِ ، وانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ مِنْ قَبْلِ أنْ تَسْتَنصِروني فلا أَنْصُرْكُمْ)[١] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٥٩ برقم ٢٥٢٩٤ .

٣ـ والأمةُ التي تتركُ الأمرَ بالمعروفِ لا يُستجابُ لها ، وهُوَ سُبحانَهُ يُسلِّطُ عليْها شرارَ النّاسِ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ، ولتنهوُنَّ عنِ المنكرِ ، أوْ ليُسلِّطنَّ اللهُ عليْكُمْ شِرارَكُمْ ، فيدعو خيارُكم فلا يُستجابُ لهُمْ)[1] .

إنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنّهيَ عنِ المُنكرِ فيهما صلاحُ الدُّنيا والآخرةِ ، والمُسلِمونَ الّذينَ يلتزِمونَ هذا الأصلَ معَ إيمانِهمْ باللهِ يُصلِحونَ دُنياهُمْ وآخرتَهُمْ .

وبعْدَ أنْ مدحَ اللهُ أُمّةَ الإسْلامِ ، ذمَّ أهلَ الكتابِ لعدَمِ إيمانِهِمْ بما أُنزِلَ على مُحمَّدٍ ﷺ ولوْ آمنوا لكانَ خيْراً لَهُمْ في دُنْياهُمْ وآخرتِهِمْ ، وكانوا مِثْلَ المُؤْمنينَ في الظَّفرِ بتِلْكَ الخيْريّةِ ، ولكنَّهُمْ لَمْ يُؤمنوا فامْتنعَ الخيْرُ مِنْهُم ، إنَّ القِلّةَ القليلةَ مِنْ أهْلِ الكتابِ آمنتْ بمُحمَّدٍ ﷺ ، ولكِنَّ الكثيرينَ خرجوا عَنِ الطّريقِ المُستقيمِ الّذي دعَتْ إليهِ الشّرائعُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العذابُ لا يَحِلُّ بأُمّةٍ مِنَ الأُمَمِ ، إلاّ إذا فَشَتْ فيها الذُّنوبُ ، وَزَحْزَحَتْها عَنِ الصِّراطِ المُستَقيمِ .

٢ـ كُلُّ إنْسانٍ يُلاقي نَتيجةَ عَمَلِهِ يَوْمَ القيامةِ ، فَقَدْ يَكونُ مِمَّنِ ابْيَضَّ وجْهُهُ ، وقَدْ يَكونُ مِمَّنِ اسْوَدَّ وجْهُهُ والعِياذُ باللهِ .

٣ـ اللهُ تعالى خالِقُ الكَوْنِ والمُتَصرِّفُ فيهِ ، والمُدبِّرُ لِشُئونِهِ ، وإليْهِ وَحْدَهُ يَرجِعُ الخَلْقُ كُلُّهُ .

٤ـ لَنْ تَنالَ الأُمَّةُ الخيريَّةَ على الأُمَمِ ، ولَنْ تنتصِرَ على عدوِّها ، ولَنْ يُستَجابَ لها دُعاءٌ إلاّ إذا أَمرَتْ بِالمعروفِ ونهَتْ عَنِ المُنكَرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بكَوْنِ الوُجوهِ مُبيَضَّةً أوْ مُسْوَدَّةً ؟ ومَتى يَكونُ ذلكَ ؟

٢ـ لِماذا كانَتْ هَذِهِ النَّتيجةُ لِكلا الفريقَيْنِ ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٠) برقم ٢٣٣٦٠ .

٣ـ ما الّذي يُقالُ لِمَنِ اسْوَدَّ وَجْهُهُ يَوْمَ القيامةِ ؟

٤ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ صُورةٌ بَيانيّةٌ بَديعةٌ ، وضِّحْها .

٥ـ ما جَزاءُ الّذينَ ابْيَضَّتْ وُجوهُهُمْ ؟

٦ـ لِمَ أَسْنَدَ اللهُ تَعالى التِّلاوةَ لِنَفْسِهِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿نَتْلُوهَا﴾ ؟

٧ـ هَلْ في تَعْذيبِ اللهِ الكافِرينَ ظُلْمٌ لَهُمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٨ـ لِماذا كانَتْ أُمَّةُ الإِسْلامِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ ؟

٩ـ لِمَ تَقدَّمَ الأَمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ على الإيمانِ باللهِ في الآيةِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَولِ اللهِ تَعالى (كُنْتُم) دونَ (أَنْتُم) ؟

١١ـ لِتَركِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ بَعْضُ المَساوِئِ ، اذْكُرْ ثَلاثاً مِنْها مع الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ وَصَفَتْ سورةُ القِيامةِ وُجوهَ المُؤْمِنينَ وَوُجوهَ الكافِرينَ يَوْمَ القيامةِ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ المُتَحدِّثَةَ عَنْ ذَلِكَ .

٢ـ سَمِّ ثَلاثةً مِنَ الّذينَ آمنوا بالنَّبيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، واكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرونَ

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أذىً : ضَرَراً يَسيراً .

ضُرِبَتْ : أُلْصِقَتْ بِهم .

حَبْلٍ : عَهْدٍ .

يَعْتَدونَ : يَتَجاوَزونَ الحدَّ .

قائِمةٌ : مُسْتَقيمةٌ وعادِلَةٌ .

يُكْفَروهُ : يُمْنَعوا ثَوابَهُ .

يُوَلُّوكُمُ الأَدْبارَ : يَنْهزِموا مِنْكُم .

ثُقِفوا : وُجِدوا .

باءُوا : رَجَعوا .

سواءً : مُتَساوونَ .

آناءَ : ساعاتٍ .



التَّفسيرُ :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

جاءَتِ الآياتُ الكَريمةُ لِتُبشِّرَ المُؤْمنينَ ، بأنَّ أُولئِكَ الّذين فَسَقوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وهُمُ الكَثْرَةُ ، والّذينَ ناصَبوكُمُ العِداءَ ، لَنْ يَضرُّوكُمْ ضَرَراً بالِغاً عَظيماً ، ما دُمْتُمْ مَتَمَسِّكينَ بدينِكُمْ .

إنَّ أهْلَ الكِتابِ لا يَقْدِرونَ عَلى إيقاعِ الضَّرَرِ بِكُمْ ، وغايةُ ما يُمْكِنُ أنْ يَكونَ مِنْهُمْ ، أنْ يُؤْذوكُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، ويُلْقوا الشُّبُهاتِ لِيَصدّوا ضِعافَ الإيمانِ عَنْ دينِهِمْ ، ويَخوضوا في النَّبيِّ ﷺ فيَتَّهِموهُ اتّهاماتٍ باطِلَةً ، إنَّ هذا الأَذى مِنْهُمْ لَنْ يُؤثِّرَ في هذِهِ الأُمَّةِ ، فَيَمْحوها ويَهْدِمَها ، ويُضْعِفَ قُوَّتَها ، ويَهْدُرَ كَرامَتَها .

وإنْ يُقابِلوكُمْ في مَيْدانِ القِتالِ ، فإنَّهُمْ يَنْهَزِمونَ ، لأنَّ اللهَ تَعالى يُؤيِّدُكُمْ بنَصْرِهِ ، ويُلْقي الرُّعْبَ في قُلوبِهِمْ ، فَيَجعلُهُمْ يُولُّونَ الأَدْبارَ ، ثُمَّ لا يُنْصَرونَ عَلَيْكُمْ أبداً ما داموا عَلى فِسْقِهِمْ وما دُمْتُمْ أَنْتُمْ عَلى خَيريَّتِكُمْ ، تأْمُرونَ بالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ .

إنَّ هَذِهِ الأُمورَ الثّلاثَةَ الّتي ذَكَرَتْها الآيةُ وَهِيَ : عَدَمُ هَدْمِ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ ، وعدَمُ القُدْرَةِ عَلى إضْعافِ قُوَّتِها وهَدْرِ كَرامَتِها ، ثُمَّ يُولّوكُمُ الأَدْبارَ إذا قاتلتُموهُمْ ، ثُمَّ نَصْرُ اللهِ تَعالى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ؛ إنَّ هَذهِ الأُمورَ كُلَّها مَشْروطةٌ بِمُحافَظَةِ الأُمَّةِ عَلى الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، أمّا إذا تَرَكتِ الأُمَّةُ ما أُمِرَتْ بِهِ ، فإنَّها يُصيبُها مِنْ عَدُوِّها ما يُؤثِّرُ في كِيانِها وفي وُجودِها .

إنَّ هَذِهِ البِشاراتِ الثّلاثَ الّتي وُعِدَ بِها النَّبيُّ ﷺ ، قَدْ تحقَّقَتْ كُلُّها ، وصَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، حَيْثُ نَصَرَ المُسْلِمينَ عَلى اليَهودِ ، ولَكِنَّ هذا الأَمْرَ قَدْ كانَ عِنْدما حافَظَ المُسْلِمونَ عَلى دينِهِمْ ، ونَصَروا اللهَ تَعالى بإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ونَشْرِ دينِه ، كَما قالَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . أمّا اليومَ فَقَدْ فرَّطَ المُسْلِمونَ في دينِهِمْ ، وأَضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ ، وكانوا شِيَعاً ، ولِذا سَلَّطَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيْهِمْ عَدوَّهُمْ .

وَماذا كانَ حالُ اليَهودِ يَوْمَ أنْ كانَ للمُسْلِمينَ دَوْلَةٌ ؟ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ فَقَدْ أُلْزِموا الذِلَّةَ ، وأَحاطَتْ بِهِمْ ، فَهُمْ لا يَسْتَطيعونَ التَّخلُّصَ مِنْها ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولَكِنْ ما المَقْصودُ مِنْ هذا الاسْتِثْناءِ ؟

الّذي يَظْهَرُ مِنَ الآيةِ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ أنَّ اليَهودَ لا يَسْتَطيعونَ الوُقوفَ عَلى أَقْدامِهِمْ ، ولَيْسَ بِوُسْعِهِمْ أَنْ يَحيَوْا حَياةَ العِزَّةِ والمَنْعَةِ ، هُمْ دائِماً مُحْتاجونَ إلى حَليفٍ يَحميهِمْ ، ونَصيرٍ يَشُدُّ عَلى أَيديهِمْ ، ونَحْنُ نَجِدُ أَنَّ وَعْدَ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى يَتَحَقَّقُ ، فها هُمُ اليَهودُ يُعوِّلونَ في مَسيرَتِهِمْ ، وبَقاءِ دَوْلَتِهِمْ عَلى كَثيرٍ مِنَ قُوى البَغْيِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ ، فَهُمْ يَمدّونَهُمْ بِكُلِّ المُقَوِّماتِ المادِيَّةِ مِنْ سِلاحٍ ومالٍ وغِذاءٍ ، وبِكُلِّ المُقَوِّماتِ المَعْنَوِيَّةِ كَذَلِكَ ، ولا يَجْهَلُ أَحَدٌ مِنّا مَوْقِفَ أَمْريكا وغَيْرِها في مَجْلِسِ الأَمْنِ وهَيئةِ الأُمَمِ . هذا المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولكنْ ما المَقْصودُ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ؟

إنَّ حَبْلَ اللهِ يكونُ لِهؤلاءِ حينَما يَبْتَعِدُ المُسْلِمونَ عَنْ طَريقِ اللهِ ، ويُعْرِضونَ عَنْ كَلامِهِ وهَدْيِهِ ، فَلَيْسَ حَبْلُ اللهِ لليهودِ دَليلاً على حُبِّ اللهِ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ عُقوبةٌ للمُسْلِمينَ ، وتَذْكِرَةٌ لَهُمْ لِيَرْتَدِعوا عَنْ إِعْراضِهِمْ ، ولِيَرْجِعوا إلى اللهِ ، ولِتَحْيا كَلِماتُ اللهِ في نُفوسِهِمْ ، ذَلِكُمْ هُوَ حَبْلُ اللهِ وحَبْلُ النّاسِ ، وهذا مِنَ الإعْجازِ الغَيْبِيِّ في الآيةِ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ عَنِ اليَهودِ : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : رَجَعوا مَصْحوبينَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ والمَقْصودُ بالمَسْكَنَةِ : الضَّعْفُ النَفْسِيُّ الّذي اسْتَولى عليْهِمْ ، فَجَعلَهُمْ يَحُسّونَ بالذُّلِّ والهَوانِ ، فالمَسْكَنَةُ تَنْشَأُ مِنْ داخِلِ النَّفْسِ نَتيجةَ بُعْدِها عَنِ الحقِّ ، أمّا الذِّلَّةُ ، فَأَسْبابُها خارِجيّةٌ فَقَدْ يَكونُ مِنْ عَدوِّهِمُ الّذي انْتَصَرَ عَلَيْهِمْ .

إنَّ هَذِهِ العُقوبَةَ الّتي حَلَّتْ بِيَهودَ إنّما كانَتْ بِسَبَبِ :

١ـ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ تَعالى مَعَ وُضوحِها ، وعَبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَكْفُرونَ) لِتَجَدُّدِ هذا الأَمْرِ منهُمْ .

٢ـ قَتْلِهِمُ الأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أولئكَ الأنْبياءُ الّذينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِهِدايَتِهِمْ ، فَأَساؤوا إلَيْهِمْ وقَتَلوهُم ، وفي قَوْلِه (بِغَيْرِ حقٍّ) زِيادةُ تَشْنيعٍ عَلَيْهِمْ وتَوْبيخٍ لَهُمْ ، فَهُمْ قَدْ قَتلوا الأَنْبياءَ عَنْ عَمْدٍ ، لا عَنْ خَطأٍ .

٣ـ عِصيانِ أوامِرِ اللهِ تَعالى ، وخُروجِهِمْ عَنْ طاعتِهِ ، وتَجاوُزِهِمْ لِما حَدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

وَلكنْ هَلْ أَهْلُ الكِتابِ كُلُّهُمْ مُتَساوونَ في ابْتِعادِهِمْ عَنِ الحَقِّ والكُفْرِ بآياتِ اللهِ ، أَلَيْسَ فيهِم أَحَدٌ قَدْ آمَنَ بِدينِ اللهِ وشَرْعِه ؟

تُجيبُ الآياتُ الكريمةُ بأنَّ أهلَ الكتابِ ليْسوا سواءً في الكُفْرِ وسوءِ الأَخْلاقِ ، بَلْ إنَّ مِنْهُمْ طائفةً آمَنَتْ باللهِ تَعالى . وقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ هذهِ الطّائِفَةَ بِصفاتٍ ، وهَذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي : مِنْهُمْ جماعةٌ مُسْتَقيمةٌ على الحَقِّ ، مُتَّبِعَةٌ العَدْلَ ، لا تَظْلِمُ أحداً ، ولا تُخالِفُ أَمْرَ الدِّينِ . والمَفْهومُ مِنَ الآيةِ أنَّ مِنْهُمْ كَذلِكَ أُمَّةً مَذْمومَةً ، والمَقْصودُ بالأُمَّةِ العادِلَةِ القائِمةِ على الحقِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، مِثْلَ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ، وثَعْلَبةَ بنِ سعيدٍ وأُسيدِ بنِ عُبَيْدٍ وغَيْرِهِمْ .

٢ـ ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾

٣ـ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

إنّهمْ يَتْلونَ كِتابَ اللهِ تَعالى في ساعاتِ اللَّيْلِ تَقرُّباً إلى اللهِ تَعالى ، وهُمْ مُنْشَغِلونَ بالصَّلاةِ مُتَهجِّدينَ ، وخُصَّ السُّجودُ بالذِّكْرِ ، لِبيانِ كَمالِ خُشوعِهِمْ ، وخُضوعِهِمْ للهِ تَعالى .

٤ـ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يُؤْمِنونَ باللهِ تَعالى مُذْعِنينَ لَهُ ، خاضِعينَ ومُسْتَعِدّينَ لليومِ الآخِرِ .

٥ـ ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فَهُمْ بَعْدَ أنِ اهْتَدَوْا إلى الطَّريقِ الحَقِّ ، وأَصْلَحوا أنْفُسَهُمْ ، وطَهَّروها مِنَ الفَسادِ ، سَعَوْا إلى إرْشادِ غَيْرِهِمْ للحقِّ بِأَمْرِهِمْ بالمَعْروفِ ونَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ ، وذَلِكَ لأنَّ المُؤْمِنَ يُحِبُّ الخَيْرَ لغيرِهِ كَما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ .

٦ـ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي : يُبادِرونَ إلى فِعْلِ الخَيْراتِ ويَعْمَلونَ الأَعْمالَ الصّالِحَةَ غيرَ مُتثاقِلينَ ، لِعِلْمِهِمْ بِحُسْنِ عاقِبةِ العَمَلِ الصّالِحِ .

٧ـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي : أُولئكَ المُتَّصِفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ العَظيمةِ مِنَ الّذينَ صَلَحَتْ أحوالُهُمْ ، وحَسُنَتْ أعْمالُهُمْ ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . وفي وَصْفِهِمْ بالصَّلاحِ غايةُ المَدْحِ ونِهايةُ الشَّرَفِ والفَضْلِ .

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ مَهْما فَعَلوا مِنَ خَيْرٍ وطاعةٍ ، فَلَنْ يَحْرِمَهُمُ اللهُ تَعالى ثَوابَها ، ولَنْ يُضيعَ شَيْئاً ممّا قَدَّموهُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سَيُثيبُهُمُ الأَجْرَ العَظيمَ على فِعْلِهِمْ ، أمّا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ ، فإنَّ الخَيْرَ الّذي يَفْعَلونَهُ في الدُّنْيا ، يَجِدونَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى هَباءً مَنْثوراً .

وتَخْتِمُ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِأَحْوالِ عِبادِهِ مَنِ اتَّقى مِنْهُمْ فامْتَثَلَ أَمْرَهُ ، وتَرَكَ ما نَهى عَنْهُ ، وسَيُجازي هَؤلاءِ المُتَّقينَ بِما يَسْتَحِقّونَ . نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنا مِنَ المُتَّقينَ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

هَذِهِ هِيَ نَتيجةُ هؤلاءِ المُتَّقينَ مِنْ أَهْلِ الكِتاب ، أمّا الّذينَ كَفروا مِنْهُمْ ومِنْ غَيْرِهِمْ واغْتَرّوا بِأَمْوالِهِمْ وأولادِهِمْ في الدُّنْيا ، فإنَّ هَذِهِ الأَمْوالَ وهؤلاءِ الأَولادَ لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، فَلَنْ يَدْفَعوا عَنْهُمْ عذابَ اللهِ تَعالى الّذي سَيَحيقُ بِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، إنْ هَذِهِ كانَتْ تَنْفَعُهُمْ في الدُّنْيا فَلَنْ تَنْفَعَهُمْ يَوْمَ القِيامةِ أَبَداً .

إنَّ الأَمْوالَ والأَوْلادَ لَنْ يَنْفَعوا أحداً يَوْمَ القِيامةِ ، سَواءٌ كانوا مُؤْمنينَ أمْ كافِرينَ ، ولَكِنَّهُ سُبْحانَهُ خصَّ الكافِرينَ بالذِّكْرِ ، لأنَّهُمْ هُمُ الّذينَ اغْتَرُّوا بالأَمْوالِ والأَوْلادِ ، أمّا المُؤْمنونَ فَهُمْ يَعْتَقِدونَ أنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عِقابَ اللهِ تَعالى شيءٌ ، ويَعْلَمونَ أنَّ الأَمْوالَ والأَوْلادَ فِتْنَةٌ ، فَلَمْ يَعْتَمِدوا في نَجاتِهِمْ مِنْ عِقبِ اللهِ تَعالى إلاّ على فَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ .

إنَّ أُولئِكَ الكافِرينَ المُغْتَرّينَ بالأَمْوالِ والأَوْلادِ هُمْ أَصْحابُ النّارِ الّذينَ سَيُخْلَدونَ فيها بِسَبَبِ ما اقْتَرَفوهُ ، نَعوذُ باللهِ مِنْ عذابِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وَعَدَ اللهُ تَعالى أنْ يَنْصُرَ أُمَّةَ الإسْلامِ عَلى عَدُوِّهِمْ ، وذَلِكَ إذا تمسَّكوا بدينِهِمْ واعْتَصَموا بِهِ .

٢ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنَّهُ إذا تَخلَّى المُسْلِمونَ عَنْ دينِهِمْ ، وأعْرَضوا عَنِ الحَقِّ ، عاقبَهُمُ اللهُ تَعالى بِتَسْليطِ عَدوِّهِمْ عَلَيْهِمْ .

٣ـ العُقوبةُ الّتي حَلَّتَ بيهودَ كانَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ ، وقَتْلِهِمْ لأنبيائِهِمْ وتَعدِّيهِمْ حُدودَ اللهِ تَعالى .

٤ـ دينُ اللهِ تَعالى واحِدٌ عَلى أَلْسِنَةِ الأَنْبياءِ جَميعاً ، فَمَنْ أخَذَهُ مُذْعِناً ، وعَمِلَ بِهِ مُخْلِصاً ، وأَمَرَ بالمَعْروفِ ونَهى عَنِ المُنْكَرِ كانَ مِنَ الصّالِحينَ .

٥ـ اسْتِمالةُ أَهْلِ الكِتابِ إلى هذا الدِّينِ الحَقِّ ، الّذي كانَ عادِلاً في الحُكْمِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُساوِ بَيْنَ جَميعِ أَهْلِ الكِتابِ في الكُفْرِ والأَخْلاقِ القَبيحةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

ضُرِبَتْ ، ثُقِفوا ، باءُوا ، أُمَّةٌ قائمةٌ ، فَلَنْ يُكْفَروهُ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً﴾ ؟

٣ـ لَقَدْ بَشَّرتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بِشاراتٍ ثلاثاً ، اذْكُرها مُبيِّناً الوَقْتَ الّذي تَتَحقَّقُ فيهِ .

٤ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ الذِّلَّةِ والمَسْكَنةِ ؟

٥ـ لَقَدْ حَلَّتْ بِأَهْلِ الكِتابِ العُقوباتُ الكَثيرةُ ، لِأَسْبابٍ ذَكَرَتْها الآياتُ ، هاتِ تِلْكَ الأَسْبابَ ودَليلَها مِنَ الآياتِ .

٦ـ هَلْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ سَواءً في الكُفْرِ ؟ وَضِّحْ ذلِكَ .

٧ـ هاتِ أَرْبعاً مِنْ صِفاتِ الطّائِفةِ المُؤْمِنةِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ .

٨ـ قارِنْ بَيْنَ ما يَفْعَلُهُ المُؤْمِنونَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وما يَفْعَلُهُ الكافِرونَ مِنْهُم مِنْ صالحِ الأَعْمالِ في الدُّنْيا ، مِنْ حَيْثُ قَبولُها عِنْدَ اللهِ وعَدَمُ قَبولِها .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مِنْ سورةِ عَبَسَ الآياتِ الدّالَّةَ على عَدَمِ انْتِفاعِ الإنْسانِ مِنْ أقارِبِهِ يَوْمَ القِيامةِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **صِرٌّ** : بَرْدٌ شَديدٌ .
- **حَرْثَ قَوْمٍ** : الحَرْثُ ، هُوَ فَلْحُ الأَرْضِ وَإلقاءُ البذرِ فيها ، ومَعْناهُ هُنا : الزَّرْعُ .
- **بطانةً** : خواصَّ يَسْتَبْطِنونَ أمْرَكُمْ .
- **لا يألُونَكُمْ خَبالاً** : لا يُقَصِّرونَ في إفْسادِكُمْ ؛ والخَبالُ : نُقْصانُ العَقْلِ ، وَالفَسادُ .
- **عَنِتُّمْ** : شَقيتُمْ .
- **البَغْضاءُ** : شِدَّةُ البُغْضِ .
- **عَضّوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ** : كِنايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الغَيْظِ .
- **تَمْسَسْكُمْ** : تَلْمَسْكُمْ ، إلاّ أنَّ المَسَّ يَكونُ لِلأُمورِ المَعْنَوِيَّةِ كالتَّعَبِ وَالعَذابِ ، واللَّمْسُ لِلأُمورِ المادِيَّةِ .
- **كَيْدُهُمْ** : الاحْتِيالُ لإيقاعِ الآخَرينَ في المَكْروهِ .



إنَّ أَعْمالَ الخَيْرِ الّتي يُقَدِّمُها الكافِرونَ في الدُّنْيا لا تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَهذا ما جاءَتِ الآياتُ الكَريمةُ لِبَيانِهِ ، فَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ حُكْمِ النَّفَقَةِ التي يُنْفِقُها أُولئِكَ الكافِرونَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إنَّ مَثَلَ ما يُنْفِقُهُ هَؤُلاءِ مِنْ أَمْوالٍ في وجوهِ الخَيْرِ المُتَنَوِّعَةِ ، كَمواساةِ البائِسِ وَقَضاءِ حاجَةِ المُحْتاجينَ مِنْ فُقَراءَ وَمَساكينَ ، كَمَثَلِ ريحٍ فيها بَرْدٌ شَديدٌ قاتِلٌ ، أَصابَتْ هَذِهِ الرِّيحُ زَرْعَ قَوْمٍ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِالكُفْرِ وارْتِكابِ المَعاصي ، فَدَمَّرَتْ هذا الزَّرْعَ وَأَهْلَكَتْ ما فيهِ مِنْ ثِمارٍ ، وَهُمْ أَحْوَجُ ما يَكونونَ إلى الزَّرْعِ .

إنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَنْفَقوا هَذا المالَ ، كَحالِ أَصْحابِ الزَّرْعِ ، لَقَدْ أَنْفَقوا في الدُّنْيا وَرَجَوْا الخَيْرَ والثَّوابَ عَلى هذا الإنْفاقِ ، وَلَكِنَّ كُفْرَهُمُ الّذي كانوا عَلَيْهِ ، حالَ دونَ حُصولِ الثَّوابِ ، وَكَذلِكَ أَصْحابُ الزَّرْعِ تَوَقَّعوا ثَمَراً جَيِّداً ، وَلَكِنْ هَيْهاتَ ، فَقَدْ أَصابَتْهُ الرِّيحُ وَلَمْ يَنْتَفِعوا بِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لِكِلا الطَّرَفَيْنِ سِوى الحَسْرَةِ وَالنَّدامَةِ .

لَقَدْ كانَتْ هَذِهِ نَتيجَةُ عَمَلِ الكافِرينَ ، واللهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ بِعَدَمِ انْتِفاعِهِمْ بِنَفَقاتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ أَنْفَقوا الأَمْوالَ في طَريقٍ غَيْرِ صَحيحٍ ، بَعيدٍ عَنِ الحَقِّ والدِّينِ ، بَلْ أَنْفَقُوها وَهُمْ كافِرونَ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَذِّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ مُخالَطَةِ كُلِّ مَنْ كانَ خارِجاً عَنْ دينِ اللهِ تَعالى وَشَرْعِهِ سَواءً كانوا يَهوداً أَمْ نَصارى أَمْ مُنافِقينَ أَمْ كُفّاراً ، وذَلِكَ لأَنَّ هَمَّ أَعْداءِ اللهِ تَعالى إطْفاءُ نورِ الدَّعْوَةِ وَإبْطالُ ما جاءَ بِهِ الإسْلامُ ، وَالمُسْلِمونَ عَلى النَّقيضِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إلاّ نَشْرُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَإعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِلْمُؤْمِنينَ : لا تَتَّخِذوا أَيُّها المُؤْمِنونَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ تُلْقونَ إلَيْهِمْ بِأَسْرارِكُمُ الّتي لا يَصِحُّ لَكُمْ أَنْ تُطْلِعوهُمْ عَلَيْها ، وَهُناكَ بَعْضُ الأَسْبابِ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَجْعَلَكُمْ تَجْتَنِبونَ هَؤُلاءِ الضّالِّينَ المُضِلِّينَ :

١ـ ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي : لا يُقَصِّرونَ في بَذْلِ جُهْدِهِمْ مِنْ أَجْلِ مَضَرَّتِكُمْ ، وَإِفْسادِ الأَمْرِ عَلَيْكُمْ ، فَهُمْ يُريدونَ إِلحاقَ الضُّرَرِ بِكُمْ في دُنْياكُمْ وَآخِرَتِكُمْ .

٢ـ ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ إِنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ ضُرَّكُمْ وَمَشَقَّتَكُمْ وَتَفْريقَ جَمْعِكُمْ وَذَهابَ قُوَّتِكُمْ .

٣ـ يُبدونَ البَغْضاءَ لَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ ، إِنَّ البُغْضَ كامِنٌ في قلوبِهِمْ حَتَّى طَفَحَ وَخَرَجَ مِنْ أَفْواهِهِمْ ، فَهُمْ يُثَرْثِرونَ بِما يُنْبِيءُ عَنْ شِدَّةِ بُغْضِهِمْ ، وَما تُخْفيهِ نُفوسُهُمُ المَريضَةُ لَكُمْ مِنْ أَحْقادٍ أَكْبَرُ بِكَثيرٍ مِمّا تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ .

لِهَذِهِ الأَسْبابُ يَجِبُ عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَتَجَنَّبوا مُوالاةَ الكافِرينَ واتِّخاذِهِمْ أَوْلِياءَ وبِطانَةً . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِبَيانِ فَضْلِ اللهِ عَلى النَّاسِ حَيْثُ بَيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ العَلاماتِ الواضِحاتِ ، الَّتي يَتَمَيَّزُ بِها الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ ، وَمَنْ يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ بِطانَةً ، وَمَنْ لا يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ لِخيانَتِهِ ، إِنَّ المُسْلِمينَ إِنْ كانوا مِنْ أَهْلِ الفَهْمِ وَالعَقْلِ ، وَإِنْ كانوا مِمَّنْ يُدْرِكونَ الحَقائِقَ ، اسْتَطاعوا التَّمييزَ بَيْنَ النّاسِ وَحَدَّدوا عَلاقاتِهِمْ عَلى ضَوءِ شَرْعِهِمُ الحَنيفِ .

لَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بِطانَةِ السُّوءِ ، فَقَدْ قالَ ﷺ : ما بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ولا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَليفَةٍ إِلاّ كانَتْ لَهُ بِطانَتانِ ، بِطانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِ وَتَحُثُّهُ عَلَيْهِ[1] .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾ .

وَتَذْكُرُ الآياتُ أُموراً أُخْرى مِنْ شَأْنِها أَنْ تَجْعَلَ المُسْلِمينَ يَكُفّونَ عَنْ مُوالاةِ الكافِرينَ واتِّخاذِهِمْ بِطانَةً ، وَهَذِهِ الأُمورُ :

١ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفّارَ ، وَتَمَنَّوْنَ هِدايَتَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَشَدُّ النّاسِ عَداوَةً لَكُمْ ، لا يُقَصِّرونَ في إِفْسادِكُمْ وَتَمَنّي وُقوعِ الضَّرَرِ فيكُمْ ، فَإِذا كانَ هَذا حالُهُمْ ، فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ .

٢ـ ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ تُؤْمِنونَ بِجَميعِ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ سَواءٌ مِنْها ما أُنْزِلَتْ عَلَيْهِم أَمْ ما أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ ، أَمّا هُمْ فَإِنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتابِكُمُ الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ ، وَإِذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ تَتَّخِذونَهُمْ بِطانَةً مُقَرَّبينَ .

٣ـ ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ إِنَّهُمْ إِذا لَقوا المُؤْمِنينَ مِنْ أَصحابِ رَسولِ اللهِ قالوا : آمَنّا وَصَدَّقْنا بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَلَكِنَّهُمْ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، بِحَيْثُ لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنونَ أَظْهَروا حِقْدَهُمْ وَشِدَّةَ عَداوَتِهِمْ وَغَيْظِهِمْ حَتّى إِنَّ الأَمْرَ لَيَصِلُ بِهِمْ إِلى عَضِّ الأَنامِلِ ، كَما يَفْعَلُ الإِنْسانُ إِذا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، باب: الإمام وأهل مشورته، حديث رقم ٦٧٧٣ .

اشْتَدَّ غَيْظُهُ ، وَنَدِمَ وَتَحَسَّرَ عَلى أَمْرٍ فَإِنَّهُ يَعْضُّ عَلى أَصابِعِهِ .

إِنَّ مَنْ كانَ كَذَلِكَ في كُفْرِهِ وَنِفاقِهِ ، وَجَبَ عَلى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهُ لأَنَّهُ لا يُرِيدُ لِلمُؤْمِنينَ إلاّ الشَّرَ والأَذَى ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِما يَغِيظُ هَؤْلاءِ الأَعْداءَ ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ دعاءٌ عَلَيْهِمْ بازْدِيادِ الغَيْظِ في نفوسِهِمْ حتّى يَهْلَكوا ، وذَلِكَ لأَنَّ قُوّةَ الإسْلامِ وعِزَّتَهُ سَتَبْقى ، وتَسْتَمِرُّ بِإِذْنِ اللهِ تعالى ، وإِنَّ أَحْقادَهُمْ لَنْ تُنْقِصَ مِنْ قُوَّةِ المُسْلِمينَ ، وفي هذا عِبْرَةٌ لَنا نَحْنُ المُسْلِمينَ ، لَعَلَّنا نَتَذَكَّرُ وَنَعْلَمُ أَنَّ ما حَلَّ بنا مِنْ تَمَكُّنِ عَدُوِّنا مِنّا ما كانَ إلاّ بِسَبَبِ تَفَرُّقِنا وَضَعْفِنا .

إِنَّ اللهَ تعالى أَيُّها الكافِرونَ ، عَليمٌ بِكُلِّ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُكُمْ مِنَ البَغْضاءِ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ لِلمُؤْمِنينَ ، لا يَخْفى عَلَيْه شَيْءٌ مِمّا تَقولونَهُ في خَلواتِكُمْ وَلا يَخْفى عَلَيْهِ ما تُدَبِّرونَهُ مِنْ مَكائِدَ لِلْمُسْلِمينَ ، وَهُوَ عَليمٌ كَذَلِكَ بِما في نُفوسِ المُؤْمِنينَ مِنْ حُبِّ الخَيْرِ والنُصْحِ لَكُمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُجازٍ كُلاًّ مِنْكُمْ على ما يَكونُ مِنْهُ .

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

٤ـ وَتَذْكُرُ الآياتُ كَذَلِكَ أَمْراً آخَرَ يَدُلُّ عَلى بُغْضِ الكافِرينَ لِلمُؤْمنينَ ، كانَ يَنْبَغي أَنْ يَحْمِلَ المُؤْمنينَ عَلى عَدَمِ مُوالاتِهِمْ قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمنونَ إذا نالَكُمُ الخَيْرُ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ كانْتِصارِكُمْ عَلى عَدُوِّكُمْ ، وَدُخولِ النّاسِ في دينِ اللهِ ، أَوْ إذا نالَكُمُ الخَيْرُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ بِالصِّحَةِ وَالعافِيَةِ ، حَزِنوا لِذلِكَ وَمَلأَ الغَيْظُ قُلوبَهُمْ ، أَمّا إذا أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ وَذَلِكَ كاخْتِلافِكُمْ وافْتِراقِ كَلِمَتِكُمْ ، وَانْتِصارِ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ ، فَرِحوا وَابْتَهَجوا لِذَلِكَ .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ في جانِبِ الحَسَنَةِ بالمَسِّ ، وَفي جانِبِ الإساءَةِ بالإصابَةِ ، لِيُبَيِّنَ كَيْفَ تَمَكَّنَ الحِقْدُ مِنْ قُلوبِ هؤلاءِ ، فَهُمْ إذا رَأَوْا حَسَنَةً بالمُؤْمِنينَ ، وَلَوْ كانَ مَسُّ تِلْكَ الحَسَنَةِ خَفيفاً بِهِمْ حَزِنوا ، فَهُمْ يَسْتَكْثِرونَ الخَيْرَ عَلى المُؤْمِنينَ وَلَوْ كانَ ضَئيلاً ، أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلسَّيِّئَةِ والمُصيبَةِ ، فَإِنَّ الكافِرينَ لا يَشْفي غَيْظَهُمْ وحِقْدَهُمْ إلاّ إذا أَصابَتِ المُسْلِمينَ المَصائِبُ الشَّديدَةُ الّتي تُؤْذيهِمْ في دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ .

وَتَخْتِمُ الآيَةُ بِالأَمْرِ بالصَّبْرِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ يَذْكُرُ الصَّبْرَ في كُلِّ مَقامٍ يَشُقُّ عَلى النَّفْسِ تَحَمُّلُهُ ، فَإِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلى مَشاقِّ التَّكاليفِ ، وامْتَثَلْتُمْ أَوامِرَ اللهِ ، واتَّقَيْتُمْ كُلَّ ما نُهيتُمْ عَنْهُ ، فَلَنْ يَضُرَّكُمْ كَيْدُ الكافِرينَ بِإِذْنِ اللهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَجبُ الإخْلاصُ للهِ تَعالى في كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بِهِ الإنْسانُ ، حَتّى في الصَّدَقَةِ الّتي يُقَدِّمُها لِمَنْ يَحتاجُها .

٢ـ التَّحْذيرُ مِنَ اتِّخاذِ الكافِرينَ بِطانَةً ، لأَنَّهُمْ لا يَأْمُرونَ إلاّ بِشَرٍّ ، وَلا يُريدونَ خَيْراً لِلدِّينِ وَأَهْلِهِ .

٣ـ إظهارُ سَماحَةِ هذا الدِّينِ ، وَتَساهُلِهِ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ إنْ لَمْ يُريدوا لِهذا الدِّينِ شَرّاً ، وَبَيانُ رَحْمَةِ المُؤْمِنينَ وَرَأْفَتِهِمْ بِغَيْرِهِمْ ، في مُقابِلِ قَساوَةِ قُلوبِ وَغِلْظَةِ غَيْرِهِمْ .

٤ـ أَهْلُ الباطِلِ يُغيظُهُمْ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ اجْتِماعُ كَلِمَةِ المُسْلِمينَ وَصَلاحُ ذاتِ بَيْنِهِمْ .

٥ـ الحالُ الّتي وَصَلَ إلَيْها المُسْلِمونَ اليَوْمَ إنّما كانَتْ بِسَبَبِ بُعْدِهِمْ عَنْ دينِهِمْ ، وَتَفَرُّقِ كَلِمَتِهِمْ .

٦ـ تَحَلّي المُسْلِمِ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ الحَميدَةِ يُغيظُ العَدُوَّ الحاسِدَ لَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ نَتيجَةَ ما يُنفِقُهُ الكافِرونَ مِنْ مالٍ في هذِهِ الدُّنْيا . هاتِ ما ذَكَرَتْهُ مُوَضِّحاً لِلآيَةِ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِالبِطانَةِ ؟

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الأَسْبابِ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَحْمِلَ المُسْلِمينَ عَلى عَدَمِ اتِّخاذِ الكافِرينَ بِطانَةً ، هاتِ تِلْكَ الأَسْبابَ مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ بيِّنْ مَعْنى ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ ، وعَلامَ تَدُلُّ الآيَةُ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ ما يَدُلُّ عَلى أنَّ هَؤلاءِ الذينَ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنَ الأَعْداءِ مُنافِقونَ ، هاتِ نصَّ الآيَةِ .

٦ـ لِمَ قيلَ لَهُمْ ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ ذلكَ ؟

٧ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ المَسِّ واللَّمْسِ ؟

٨ـ لِمَ عَبَّرَ سُبْحانَهُ في جانِبِ الحَسَنَةِ بالمَسِّ ، وَفي جانِبِ السَّيِّئَةِ بالإصابَةِ ؟

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ أَمْرِ المُؤْمِنينَ بِالصَّبْرِ ؟

١٠ـ قارِنْ بَيْنَ مَوْقِفِ المُؤْمِنينَ مِنَ الكافِرينَ وَمَوْقِفِ الكافِرينَ مِنَ المُؤْمِنينَ كَما جاءَ في آيتِ الدَّرْسِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبِ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الصَّفِ الدَّالَّةَ على إرادَةِ الكافِرينَ إِطْفاءَ نورِ الإسْلامِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ السَّابعُ والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ السّابعُ والعِشْرونَ

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

غَدَوْتَ : الغُدْوَةُ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجْرِ وطُلوعِ الشَّمْسِ ، وَالمَعْنى : خَرَجْتَ مُبَكِّراً .

تُبَوِّئُ : تُهَيِّئُ .

مَقاعِدَ : مَواطِنَ وَمَواقِفَ .

هَمَّتْ : حَدَّثَتْ نَفْسَها ، ورَجَّحَتْ فِعْلَ أَمْرٍ ما .

تَفْشَلا : تَضْعُفا وَتَجْبُنا .

وَليُّهُما : ناصِرُهُما .

يَتَوَكَّلْ : يَعْتَمِدْ .

أَذِلَّةٌ : لا مَنَعَةَ لَكُمْ وَلا قُوَّة .

يَكْفيكُمْ : يَسُدَّ حاجَتَكُمْ .

يُمِدَّكُمْ : يُعطيكُمُ الشَّيْءَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

بَلَى : كَلِمَةٌ لِلجَوابِ ، لا تَقَعُ إلاّ بَعْدَ النَّفْيِ ، وَهِيَ تُفيدُ إثباتَ ما بَعْدَها .

مِنْ فَوْرِهِمْ : مِنْ ساعَتِهِمْ بِلا إبْطاءٍ .

مُسَوِّمينَ : مُعَلِّمينَ بِعَلاماتٍ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) ﴾

إنَّ هَذِهِ الآياتِ تَتَحدَّثُ عَنِ المَعْرَكَةِ الثّانِيةِ الّتي خاضَها المُسْلِمونَ مَعَ المُشْرِكينَ ، ألا وَهِيَ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ .

لَقَدْ أَمَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المُؤْمِنينَ بِالصَّبْرِ والتَّقوى ، وَلا شَكَّ أَنَّهُمْ أَحْوَجُ ما يَكونونَ لِلصَّبْرِ وَهُمْ يَخوضونَ القِتالَ مَعَ عَدُوِّهِمْ .

بَدَأَتْ هَذِهِ الآياتُ حَديثَها بِتَذْكيرِ المُؤْمِنينَ بِما كانَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَما وَقَعَ لَهُمْ لِيَعْتَبِروا وَيَتَّعِظوا وَيَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ تَعالى ، يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ خُروجَكَ مُبَكِّراً مِنْ بَيْتِكَ ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ في السّابِعِ مِنْ شَوّالٍ سَنَةَ ثَلاثٍ لِلْهِجْرَةِ ، لَقَدْ خَرَجْتَ مُبَكِّراً لِتُنَظِّمَ المُؤْمِنينَ وَتُسَوِّيَ صُفوفَهُمْ وَتُهَيِّئَهُمْ لِلْقِتالِ ، وَتُقَسِّمَ الجُنودَ حَسَبَ أَمْكِنَتِهِمْ لِلْقِتالِ ، مِنْهُمْ مَنْ كانَ في مَوْضِعِ الرُّماةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ في مَوْضِعِ الفُرْسانِ .

لَقَدِ اهْتَمَّ الرَّسولُ ﷺ بِتَنْظيمِ صُفوفِ المُسْلِمينَ ، وَبِرَسْمِ الخُطَّةِ الحَكيمَةِ الّتي تَكْفُلُ لِلْمُسلِمينَ النَّصْرَ بِمَشيئَةِ اللهِ تَعالى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : اللهُ سَميعٌ لِما يَقولُ المُؤْمِنونَ لَكَ فيما شاوَرتَهُمْ فيهِ مِنْ مَوْضِعِ لِقائِكَ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُمْ ، فَقَدْ أَشارَ بَعْضُهُمْ قائِلاً : أُخْرُجْ بِنا إِلَيْهِمْ حَتّى نَلْقاهُمْ خارِجَ المَدينَةِ ، وَأَشارَ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ : لا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَأَقِمْ بِالمَدينَةِ حَتّى يَدْخُلوها ، وَاللهُ عَليمٌ سُبْحانَهُ بِما أَخَذْتُمْ بِهِ ، وَعَليمٌ بِأَصْلَحِ الآراءِ وَبِنِيّاتِ أَصْحابِها .

﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾ .

إِنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ لِما يَجري في تِلْكَ المَعْرَكَةِ ، فَقَدْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنَ المُسْلِمينَ أَنْ تَفْشَلا ، وَهُما طائِفَةُ بَني سَلَمَةَ مِنَ الخَزْرَجِ ، وَطائِفَةُ بَني حارِثَةَ مِنَ الأَوْسِ ، وَقَدْ وَضَعَهُما النَّبِيُّ ﷺ في جَناحَيِ الجَيْشِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ المُنافِقينَ بِقِيادَةِ زَعيمِهِمْ عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيّ بن سَلولٍ رَجَعَ قَبْلَ المَعْرَكَةِ إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَكانَ مَعَهُ ثُلُثُ الجَيْشِ وَذَلِكَ تَثْبيطاً لِعَزيمَةِ المُسْلِمينَ ، وَلَمّا رَأَتِ الطّائِفتانِ ما كانَ مِنَ انْسِحابِ ثُلُثِ الجَيْشِ ، كَأَنَّ خاطِراً خَطَرَ في نُفوسِهِمْ ، بِأَنْ يَنْسَحِبوا هُمْ مِنَ الجَيْشِ كَذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى رَدَّ الطائِفَتَيْنِ عَنْ هَذا الهَمِّ وَثَبَّتَهُمْ في المَعْرَكَةِ ، وَجَعَلَهُمْ يَصْبِرونَ ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ ﴾ أي : مُتَوَلِّي أُمورِهِما وَذَلِكَ لأَنَّهُ يَعْلَمُ صِدْقَ إيمانِ الطّائِفَتَيْنِ ، وَلِذلِكَ صَرَفَ الفَشَلَ عَنْهُما

وَثبَّتَهُما ، فَلَمْ يُجيبا داعِيَ الضَّعْفِ ، نَتيجَةَ رُجوعِ المُنافِقينَ إلى المَدينةِ ، فَقَدْ تَذَكَّروا وِلايَةَ اللهِ للمُؤْمنينَ ، وَهكذا على المُؤْمنينَ دائماً أَنْ يَتَوَكَّلوا عَلى اللهِ تَعالى ، وَيَدْفَعوا ما يُمْكِنُ أَنْ يُصيبَهُمْ مِنْ جَزَعٍ وَخَوْفٍ ، فَهُمْ لَنْ يَنْتَصِروا بِحَوْلِهِمْ وقُوَّتِهِمْ ، وَأَنْصارِهِمْ وَأَعْوانِهِمْ ، وَلكِنْ بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى والثِّقَةِ فيهِ سُبْحانَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ بِقُدْرَتِهِ يَنْصُرُ الفِئَةَ القَليلَةَ عَلى الفِئَةِ الكَثيرَةِ كَما كانَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وَيُخاطِبُهُمُ اللهُ تَعالى : إنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إذا صَبَرْتُمْ وَاتَّقَيْتُمُ اللهَ تَعالى ، فَلَنْ يَضُرَّكُمْ كَيْدُ المُشْرِكينَ شَيْئاً ، وَسَيَنْصُرُكُمُ اللهُ تَعالى كَما نَصَرَكُمْ عَلى أَعْدائِكُمْ يَومَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَقَدْ كُنْتُمْ قَليلي العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، فَأَظْهَرَكُمُ اللهُ تَعالى عَلى عَدُوِّكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ ، وَها أَنْتُمُ اليَوْمَ أَيُّها المُسْلِمونَ أَكْثَرُ عَدَداً مِمّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَإِنْ صَبَرْتُمْ فَإِنَّهُ تَعالى سَيَنْصُرُكُمْ كَذلِكَ في هذِهِ المَعْرَكَةِ .

وَتَأْمُرُ الآياتُ بَتَقْوى اللهِ تَعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : اتَّقوا اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بطاعَتِهِ واجْتِنابِ مَحارِمِهِ ، حَتّى تُعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ لِشُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلى أَعدائِكُمْ وإِظْهارِ دينِكُمْ ، وَلِما هَداكُمْ سُبْحانَهُ إِلَيْهِ مِنَ الحَقِّ ، ومَنْ لَمْ يَتَّقِ اللهَ بامْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ ، وَتَغَلُّبِهِ عَلى هُواهُ وَشَهواتِهِ ، فَلَنْ يَكونَ شاكِراً للهِ تَعالى .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

وَيُذَكِّرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِما كانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، ذلِكَ اليَوْمَ الّذي نَصَرَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فيهِ ، يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ ذَكِّرْهُمْ ذَلِكَ الوَقْتَ الّذي كُنْتَ تَقولُ لَهُمْ فيهِ : أَلَنْ يَكْفيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمُ اللهُ بِثَلاثَةِ آلافِ مَلَكٍ يُنزِّلُها لِتُقاتِلَ مَعَكُمْ .

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

وَقَدْ وَعَدَهُمْ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُمْ إِنْ صَبَروا واتَّقَوا وَجاءَكُمُ المُشْرِكونَ مِنْ ساعَتِهِمْ لِيُقاتِلوكُمْ سَيَمُدُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُعَلِّمينَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ خَيْلَهُمْ بِعَلاماتٍ مَخْصوصَةٍ ، لِيُعَجِّلَ نَصْرَهُمْ . وَالظّاهِرُ ـ كما قُلْنا ـ بِأَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَمَدَّ المُسْلِمينَ بِالمَلائِكَةِ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، أَمّا في أُحُدٍ ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَمُدَّهُمْ ، فَقَدْ شَرَطَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ ، وَهُمْ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ لَمْ يَصْبِروا وَخالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِأَنَّهُ ما جَعَلَ هذا الإِمدادَ بِالمَلائِكَةِ لِلمُسْلِمينَ يَوْمَ بَدْرٍ إلاّ بِشارَةً لِقُلوبِكُمْ وَتَطْميناً لِنُفوسِكُمْ ، فَالإِمْدادُ بِالمَلائِكَةِ لَهُ غايَتانِ :

١ـ إِدْخالُ السُّرورِ في القُلوبِ .

٢ـ حُصولُ الطُّمَأْنينَةِ ، فَإِذا عَلِموا أَنَّ اللهَ مُعينُهُمْ وَناصِرُهُمْ فَلَنْ يَجْبُنوا عَنِ القِتالِ حينَئِذٍ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الواجِبُ عَلَيْكُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَنْ تَتَوَكَّلوا عَلى اللهِ تَعالى ، فَالنَّصْرُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ إلاّ مِنْ عِنْدِهِ تَعالى ، فَهُوَ العَزيزُ الَّذي لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، وَهُوَ الحَكيمُ يُدَبِّرُ الأُمورَ عَلى خَيْرِ السُّنَنِ سُبْحانَهُ وتَعالى . نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَنْصُرَ المُسْلِمينَ في جَميعِ بِقاعِ الأَرْضِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ النَّاجِحُ الَّذي يُنَظِّمُ صُفوفَهُ ، وَيَضَعُ لَهُمُ الخُطَطَ المُناسِبَةَ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يُشاوِرُ جُنْدَهُ في جَميعِ أُمورِهِمْ .

٢ـ مِنْ أَسْبابِ النَّصْرِ حُسْنُ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى ، وَعَدَمُ الجَزَعِ وَالخَوْفِ ، أَو الانْتِباهِ إلى المُنافِقينَ الذينَ يُثَبِّطونَ عَزائِمَ المُسْلِمينَ .

٣ـ الصَّبْرُ وَتَقوى اللهِ تَعالى أَمْرانِ مُهِمَّانِ لِيَخوضَ المُسْلِمُ مَعْرَكَتَهُ مَعَ عَدُوِّهِ بِثَباتٍ وَعَزْمٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ التّاليةِ :

غَدَوْتَ ، تَفْشَلا ، مُسَوِّمينَ ، هَمَّتْ ، مِنْ فَوْرِهِمْ .

٢ـ متى حَدَثَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ ؟ وَما الّذي فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ ؟

٣ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ ؟ وَما المَقْصودُ بِالآيَةِ ؟

٤ـ ما الطَّائِفَتانِ اللَّتانِ كانَ يُمْكِنُ أَنْ تَفْشَلا ؟

٥ـ ما الَّذي كانَ مِنْ هاتَيْنِ الطّائِفَتَيْنِ ؟

٦ـ لِلمُنافِقينَ دَوْرٌ كَبيرٌ في التَّثْبيطِ مِنْ عَزائِمِ المُسْلِمينَ . وَضِّحْ مَوْقِفَهُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، وَأَثَرَ ذَلِكَ عَلى المُسْلِمينَ .

٧ـ ما نَتيجَةُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ وَكيفَ أَمَدَّهُمُ اللهُ بِما يُعينُهُمْ في تِلْكَ المَعْرَكَةِ ؟

٨ـ هَلْ أَمَدَّ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِالملائِكَةِ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ وَلِمَ ؟

٩ـ ما الغايَةَ مِنْ إمدادِ اللهِ المُسْلِمينَ بِالمَلائِكَةِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ في خَتْمِ آياتِ الإِمْدادِ بِالمَلائِكَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ما الخُطَّةُ الَّتي خَطَّها الرَّسولُ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟ وَكَيْفَ رَتَّبَ الجَيْشَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ كَمْ كانَ عَدَدُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟ وكَمْ كانَ عَدَدُ المُشْرِكينَ مُقارَنَةً بِعَدَدِهِمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ ما الَّذي كانَ مِنَ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ حَتّى سَبَّبَ لَهُمُ الهَزيمَةَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، واكْتُبْ مُقارَنَةً بَيْنَ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَغَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَضَعْ ما تَوَصَّلْتَ إِلَيْهِ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والعِشْرونَ

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

طَرَفاً : طائِفَةً .

يَكْبِتَهُمْ : مِنَ الكَبْتِ ؛ وَهُوَ شِدَّةُ الغَيْظِ وَالإذْلالِ .

أَضْعافاً : الزِّيادَةَ في الرِّبا .

أُعِدَّتْ : هُيِّئَتْ .

التَّفْسيرُ :

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَكونَ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وَجاءَتِ الآياتُ تُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ تَعالى فَعَلَ ما فَعَلَ لِيُهْلِكَ طائِفَةً مِنَ المُشْرِكينَ وَيَسْتَأْصِلَهُمْ بِالقَتْلِ . وَقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ الطائِفَةِ بِالطَّرَفِ ، لأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إلى المُسْلِمينَ مِنَ الوَسَطِ ، ولأَنَّ طَرَفَ الجَيْشِ إذا تَمَكَّنَ مِنْهُ المُسْلِمونَ ، فَقَدْ تَمَكَّنوا مِنَ الوُصولِ إلى وَسَطِ الجَيْشِ وَاسْتَطاعوا تَوْهينَهُ .

وَفَعَلَ كَذَلِكَ سُبْحانَهُ ما فَعَلَ لِيُخْزِيَ طائِفَةً أُخْرَى مِنَ الَّذينَ كَفَروا وَيَغيظَهُمْ ، فَيَرْجِعوا خائِبينَ لا أَمَلَ لَهُمْ في النَّصْرِ ، وَعَبَّرَ هُنا بِالخَيْبَةِ فَقالَ : خائِبينَ ، وَلَمْ يَقُلْ آيِسينَ ، لَقَدْ كانَ المُشْرِكونَ يَتَصِدونَ إِطْفاءَ نورِ الإِسْلامِ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى خَيَّبَ أَمَلَهُمْ وَفَشَّلَ قَصْدَهُمْ ، وَعادوا مِنْ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَقَدْ فَقَدوا الكَثيرينَ مِنْ أَسْيادِهِمْ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فَإِنَّ أَمْرَ النّاسِ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، أَمّا أَنْتَ فَوَظيفَتُكَ التَّبليغُ وَالإِرشادُ ، وَالقَضاءُ فيهِمْ بِيَدِ اللهِ تَعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ إِنَّ أَمْرَ هؤلاءِ المُشْرِكينَ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ نَصَرَ المُسْلِمينَ على طائِفَةٍ مِنْهُمْ بِالقَتْلِ أَوْ الأَسْرِ ، أَوْ الإِذْلالِ وَالإِغاظَةِ بِسَبَبِ الهَزيمَةِ ، أَوْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَسْلَموا ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ سُبْحانَهُ إِنْ أَصَرُّوا عَلى الكُفْرِ ، وَلَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلاءِ يا مُحَمَّدُ شَيءٌ فما أَنْتَ إِلاّ بَشيرٌ وَنَذيرٌ .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ كُسِرَتْ رُباعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ في وَجْهِهِ حَتّى سالَ الدَّمُ على وَجْهِهِ ، فَقالَ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلوا هَذا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدعوهُمْ إِلى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1] .

إِنَّ المُؤْمِنينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ قَدْ كانوا على ثِقَةٍ مِنْ نَصْرِ اللهِ تَعالى لِنَبِيِّهِ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ، خاصَّةً أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ نَصَرَهُمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ على قِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، فَوَقَعَ في نُفوسِ الكَثيرينَ أَنَّ نَصْرَهُمْ سَيَكونُ عَنْ طَريقِ الآياتِ الإِلهيَّةِ ، وَأَنَّ وُجودَ الرَسولِ فيهِمْ وَدُعاءَهُ على أَعْدائِهِمْ سَيَكونُ كَذلِكَ سَبَباً لِنَصْرِهِمْ ، وَإِذْلالِ عَدُوِّهِمْ ، لِذلِكَ كانَتْ كَلِمَةُ اللهِ تَعالى بِأَنْ نَصَرَ عَدُوَّهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ أَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يُعَلِّمَ المُسْلِمينَ أَنَّ الرَسولَ بَشَرٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِ العِبادِ وَلا مِنْ أَمْرِ الكَوْنِ شَيْءٌ ، إِنَّما هُوَ مُعَلِّمٌ وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فيما يُعَلِّمُهُ ، وَالأَمْرُ كُلُّهُ للهِ تَعالى ، فَلَهُ سُبْحانَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ مِنْ مَشْرِقِها إِلى مَغْرِبِها ، يَقْضي فيهِمْ سُبْحانَهُ بِما شاءَ ، وَبِما أَحَبَّ ، وَيَتوبُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وَيُعاقِبُ مَنْ شاءَ وَيَنْتَقِمُ مِنْهُ فَهُوَ سُبْحانَهُ الغَفورُ الرَّحيمُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ حُكْمٍ مِنَ الأَحْكامِ التَّشْريعِيَّةِ ، وَهُوَ حُكْمُ الرِّبا ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : يا أَيُّها الذينَ آمَنوا لا تَأْكُلوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً في إِسْلامِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَداكُمُ اللهُ تَعالى كَما

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ، حديث رقم ١٧٩١ .

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والعِشْرونَ

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أُعِدَّتْ	: هُيِّئَتْ .
عَرْضُها السَّماواتُ وَالأَرْضُ	: كِنايَةٌ عَنْ سَعَتِها العَظيمَةِ .
السَّرَّاءِ	: الحالِ الّتي تَسُرُّ الإنْسانَ .
الضَّرَّاءِ	: الحالِ الّتي تَضُرُّ الإنْسانَ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ .

القُرْآنُ الكَريمُ يَحْرِصُ عَلى حَثِّ المُسْلِمِ دائماً عَلى العَمَلِ الصَّالِحِ الّذي يوصِلُهُ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى وَيُدْخِلُهُ في رَحْمَتِهِ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَحُثَّهُمْ عَلى ذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَقولُ لَهُمْ :

بادِروا إلى العَمَلِ الّذي يوصِلُكُمْ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنّاتِهِ الواسِعَةَ الّتي أَعَدَّها اللهُ للمُتَّقينَ الّذينَ صانوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ، وَجَعَلوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَها سِتْراً ، وَهؤُلاءِ هُمُ الّذينَ يَتَّصِفونَ بِبَعْضِ الصِّفاتِ وَمِنْها :

١ـ الإنْفاقُ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : أي العُسْرِ وَاليُسْرِ ، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ ، فَهُمْ يُنْفِقونَ عَلى الرُّغْمِ مِنْ قِلَّةِ اليَدِ ، وَهَذا هُوَ الأَجْرُ العَظيمُ ، وَهَذِهِ هِيَ المَنْزِلَةُ الرَّفيعَةُ ، أَنْ يُنْفِقَ المُنْفِقُ مَعَ الحاجَةِ المُلِحَّةِ لِلمالِ .

وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ : (سَبَقَ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ كَيْفَ يَسْبِقُ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفٍ ، قالَ : رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُما فَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَآخَرُ لَهُ دَراهِمُ كَثيرَةٌ فَأَخَذَ مِنْ عَرَضِهِ مائَةَ أَلْفٍ)(١) .

٢ـ كَظْمُ الغَيْظِ : وَمَعْناهُ أَنْ يَكْتُمَ الإنْسانُ غَيْظَهُ وَأَنْ يُطْفِيءَ غَضَبَهُ ، وَأَنْ لا يَتْرُكَ في قَلْبِهِ شَيْئاً مِنَ الحِقْدِ عَلى أَحَدٍ . قالَ ﷺ : (مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلى إنْفاذِهِ مَلأَ اللهُ جَوْفَهُ أَمْناً وَإيماناً)(٢) ، وَقالَ : ما تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ أَجْرِ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَها ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ(٣) .

٣ـ العَفْوُ عَنِ النّاسِ : أَنْ يَعْفوَ الإنْسانُ عَمَّنْ أَساءَ إلَيْهِ ، وَهُوَ يَطْمَعُ في عَفْوِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى ، وَقَدْ حَثَّ القُرْآنُ الكَريمُ والسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلى العَفْوِ ، اقْرأ هذا التَّوْجيهَ القُرْآنيَّ لأَبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ، وَقَدْ كانَ يُنْفِقُ عَلى مِسْطَحٍ ، وَلَمّا اشْتَرَكَ في حادِثَةِ الإفْكِ أَرادَ أَبو بَكْرٍ الصِّدّيقُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنِ الإنْفاقِ عَلَيْهِ وَيَقْطَعَ صِلَتَهُ عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى قُرْآناً لِيَكونَ مَوْعِظَةً لِلمُسْلِمينَ جَميعاً ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

فَلَمّا نَزَلَتْ قالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : عَفَوْنا ، عَفَوْنا ، وَأَعادَ الصَّدَقَةَ لِقَريبِهِ .

وَقَدْ جاءَ رَجُلٌ إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، إنَّ لِيَ قَرابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَني ، أُحْسِنُ إلَيْهِمْ وَيُسيئونَ إلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلونَ عَلَيَّ ، قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : (لَئِنْ كُنْتَ كَما قُلْتَ فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، وَلا يَزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهيرٌ مُعينٌ عَلَيْهِمْ ما دُمْتَ عَلى ذَلِكَ)(٤) . وَمَعْنى تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، أي : كَأَنَّكَ تُطْعِمُهُمْ رَماداً حارّاً ، فَهُوَ تَشْبيهٌ لِما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الأَلَمِ بِما يَلْحَقُ مَنْ يَأْكُلُ الرَّمادَ الحارَّ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب الزكاة (١/ ٤١٦) وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الترمذي : كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في كظم الغيظ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٢٨) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة ، باب الرحم وتحريم قطعها ، حديث رقم ٢٥٥٨ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ذَلِكَ لأَنَّ كَظْمَ الغَيْظِ وَالعَفْوَ عَنِ النَّاسِ هُوَ غَايَةُ الإِحْسانِ .

٤ـ الاسْتِغْفارُ لِلذُّنوبِ .

٥ـ عَدَمُ الإِصْرارِ عَلى الفاحِشَةِ .

وَهاتانِ الصِّفَتانِ في قَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

وَفي هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ حِكْمَةٌ وَبَيانٌ ، فَرُبَّما يَظُنُّ بَعْضُ النّاسِ أَنَّ التَّقِيَّ مَعْصومٌ عَنْ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ خَطأٌ ، وَأَنْ تَكونَ مِنْهُ زَلَّةٌ ، وَلَكِنَّ العِصْمَةَ لِلأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ فَالتَّقِيُّ مَهْما كانَتْ دَرَجَةُ تَقْواهُ قَدْ يَزِلُّ وَقَدْ يُخْطِىءُ ، وفي الحَديثِ الشَّريفِ : (والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبونَ ، فَيَسْتَغْفِرونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ) فَالتَّقِيُّ قَدْ يَزِلُّ وَلَكِنَّهُ بِمُجَرَّدِ زَلَّتِهِ يَذْكُرُ جَلالَ اللهِ وَعَظَمَتَهُ ، وَيَذْكُرُ عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، فَيَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَقولُ اللهُ : « وَلَقَدْ أَذنَبَ عَبْدي ولقدْ عَرَفَ أَنَّ لَهُ رباً يَغفِرُ الذَّنْبَ فيغفرُ اللهُ له » .

وَمِنْ صِفاتِ المُتَّقي أَنَّهُ لا يُصِرُّ على ذَنْبِهِ ، فَهُوَ إِذا وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ لا يُمَكِّنُ الشَّيْطانَ مِنْ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِ ، بَلْ تَذَكَّرَ قَوْلَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

أُولَئِكَ المُتَّقونَ المُتَّصِفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلَهُمْ ثَوابٌ عَظيمٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَهُمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَإِنَّ هذا الجَزاءَ إِنَّما هُوَ على تِلْكَ الأَعْمالِ الَّتي مِنْها ما هُوَ نافِعٌ لِلأُمَّةِ كَإِنْفاقِ المالِ ، وَمِنْها ما هُوَ إِصْلاحٌ لِنَفْسِ الإِنْسانِ .

فَقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الصِّفاتُ في سِياقِ غَزْوَةِ أُحُدٍ الَّتي كانَتْ فيها دُروسٌ كَثيرَةٌ لِلْمُسْلِمينَ ، فَذَكَرَ سُبْحانَهُ الإِنْفاقَ في السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ ، وَذَلِكَ لِحاجَةِ المُجاهِدينَ إِلَيْهِ ، وَذُكِرَ فيها كَظْمُ الغَيْظِ ، وَالعَفْوُ عَنِ النّاسِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُسْلِمينَ أُصيبوا في أُحُدٍ ، وَقَدْ أَسْلَمَ فيما بَعْدُ كَثيرٌ مِمَّنْ حارَبَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، فَكانَ كَظْمُ الغَيْظِ وَالعَفْوُ عَنِ النّاسِ أَمْراً لابُدَّ مِنْهُ ، وَذُكِرَ فيها الاسْتِغْفارُ مِنَ الذَّنْبِ ، وَقَدْ كانَ مِنَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ مُخالَفَةٌ لأَمْرِ الرَّسولِ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أَهَمِّ عَلاماتِ التَّقْوى ، بَذْلُ المالِ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .

٢ـ كَظْمُ الغَيْظِ وَالعَفْوُ عَنْ النَّاسِ غايَةُ الإِحْسانِ .

٣ـ المُتَّقي مَهْما بَلَغَتْ دَرَجَةُ تَقْواهُ فَهُوَ لَيْسَ مَعْصوماً عَنِ الخَطَأ ، وَلَكِنَّهُ يَنْبَغي أَنْ لا يُمَكِّنَ الشَّيْطانَ مِنْ نَفْسِهِ فَيُصِرَّ عَلى خَطَئِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلَةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنَى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ ؟ وَما المَقْصودُ بِالجَنَّةِ الَّتي عَرْضُها السَّماواتُ والأَرْضُ ؟

٢ـ كَيْفَ يُنْفِقُ الإِنْسانُ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ؟

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ اتِّصافِ الإِنْسانِ بِكَظْمِ الغَيْظِ ؟

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ كَظْمِ الغَيْظِ وَالعَفْوِ عَنِ النَّاسِ بِقَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ؟

٥ـ تَحَدَّثْ عَنْ صِفَتَي المُتَّقينَ الرَّابِعَةِ والخامِسَةِ ، وما هُما ؟ وَما المَقْصودُ بِهِما ؟

نَشاطٌ :

ـ ما المَقْصودُ بِحادِثَةِ الإِفْكِ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❋ ❋ ❋

الدَّرسُ الثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ - القِسْمُ الثَّلاثونَ

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

التَّفسيرُ :

خَلَتْ : مَضَتْ .

سُنَنٌ : وَاحِدُها سُنَّةٌ وَهِيَ الطَّريقَةُ .

تَهِنوا : تَضْعُفوا ، وَالوَهَنُ هُوَ الضَّعْفُ .

تَحْزَنوا : مِنَ الحُزْنِ وَهُوَ أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذا فَقَدَتْ ما تُحِبُّ .

قَرْحٌ : ما يُصيبُ الإِنْسانَ مِنْ جِراحٍ .

نُداوِلُها : نُصَرِّفُها ، وَنَجْعَلُها مُتَنَقِّلَةً بَيْنَ النَّاسِ .

وَلِيُمَحِّصَ : كَيْ يُخَلِّصَ الإِنْسانَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ .

لِيَمْحَقَ : المَحْقُ هُوَ النُّقْصانُ .



التَّفسيرُ :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

إنَّ الخلْقَ كُلَّهُمْ يَجْرونَ في هذا الكَوْنِ وِفْقَ سُنَنِ اللهِ الثَّابتَةِ الّتي اقْتَضَتْها الحِكْمَةُ الإلهيَّةُ ، وَمَصالِحُ العِبادِ ، وَمِنْ هَذِهِ السُّنَنِ ما قَدَّرَهُ سُبْحانَهُ وَتعالى مِنْ نَصْرٍ وَهَزيمَةٍ ، وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ ، وَعِقابٍ وَثَوابٍ ، فَالحَقُّ يُصارِعُ الباطِلَ دائِماً ، فَيَنْتَصِرُ أَحَدُهُما على الآخَرِ ، بِما سَنَّهُ اللهُ تَعالى مِنْ سُنَّةِ النَّصْرِ وَالهَزيمَةِ ، فَمَنْ وافَقَ سُنَّةَ اللهِ في تَحْقيقِ النَّصْرِ نَصَرَهُ اللهُ ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَيْها خَسِرَ ، وَلِذَلِكَ وَجَدْنا المُسْلِمينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ يَنْهَزِمونَ بَعْدَ أَنْ أَحْرَزوا نَصْراً على المُشْرِكينَ ، وَيَصِلُ المُشْرِكونَ إلى الرَّسولِ ﷺ فَيَشُجُّوا رَأْسَهُ وَيَكْسِروا سِنَّهُ ، وَيُرْدوهُ في حُفْرَةٍ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُسْلِمينَ خالَفوا سُنَنَ اللهِ تَعالى ، الّتي تَقْضي الاتِّكالَ على اللهِ تَعالى وَالاعْتِمادَ عَلَيْهِ في مَعْرَكَتِهِمْ مَعَ المُشْرِكينَ ، وَلَكِنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الغَنائِمُ والأَمْوالُ ، وَخالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ .

وَيُبَيِّنُ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ أَنَّ مَشيئَتَهُ اقْتَضَتْ أَنْ تَكونَ العاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنينَ الصَّادِقينَ وَأَنْ يُمْهِلَ الكافِرينَ ثُمَّ يَأْخُذَهُمْ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَعَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَسيروا في الأَرْضِ مُتَأَمِّلينَ مُعْتَبِرينَ مِمَّا حَدَثَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ المُكَذِّبينَ ، الّذينَ مَكَّنَ اللهُ لَهُمْ في الأَرْضِ ، وَمَنَحَهُمُ الكَثيرَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْكُروهُ عَلَيْها ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِسَبَبِ طُغْيانِهِمْ .

وَأَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إذا سِرْتُمْ في طَريقِ الضَّالِّينَ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ ، وَحِدْتُمْ عَنْ سُنَنِهِ ، فَإِنَّ عاقِبَتَكُمْ سَتَكونُ وَخيمَةً مِثْلَ عاقِبَةِ مَنْ قَبْلَكُمْ .

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

إنَّ هَذا الّذي ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، بَيانٌ لِلنَّاسِ كافَّةً ، وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ مِنْهُمْ خاصَّةً ، وَما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هو وَعْدُهُ وَوَعيدُهُ وَأَوامِرُهُ وَنَواهيهِ ، وَحَضُّهُ على الاعْتِبارِ بِأَحْوالِ النَّاسِ ، إنَّ هَذا كُلَّهُ بَيانٌ لِلنَّاسِ يَهْديهِمْ إلى السَّعادَةِ والخَيْرِ ، وَفيهِ مَوْعِظَةٌ ، أي : تَخْويفٌ وَزَجْرٌ لِلْمُتَّقينَ الّذينَ يَتَّعِظونَ وَيَعْتَبِرونَ وَيَنْتَفِعونَ بالآياتِ .

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذِهِ الآيَةَ رَدّاً عَلى المُشْرِكينَ والمُنافِقينَ الّذينَ قالوا : لَوْ كانَ مُحَمَّدٌ رَسولاً حَقّاً لَما هُزِمَ في المَعْرَكَةِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَعْزِيَةِ المُسْلِمينَ عَمّا أَصابَهُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ مِنْ هَزيمَةٍ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

لا تَضْعُفوا أَيُّها المُسْلِمونَ عَنِ القِتالِ بِسَبَبِ ما أَصابَكُمْ مِنْ جُروحٍ وَفَشَلٍ في المَعْرَكَةِ ، وَلا تَحْزَنوا على مَنْ فُقِدَ مِنْكُمْ في هذا اليَوْمِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلوَهَنِ وَالحُزْنِ أَنْ يَلْحَقَ بِكُمْ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ بِإِذْنِ اللهِ ، فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنَّ النَّصْرَ دائِماً لِلْمُتَّقينَ ، فَهُمْ أَجْدَرُ بِذَلِكَ مِنَ الكافِرينَ ، فَالمُسْلِمونَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ هُمُ الأَعْلَوْنَ ما داموا مُطَبِّقينَ لِشَرْعِ اللهِ تَعالى .

لَقَدْ رَبَطَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَمْرَ العُلُوِّ لِلْمُسْلِمينَ بِقَوْلِهِ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وَهذا دَليلٌ على أَنَّ العُلُوَّ لَنْ يَكونَ إِلاَّ بِالإِيمانِ بِاللهِ تَعالى وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالعَمَلِ بِأَوامِرِهِ ، واجْتِنابِ نَواهيهِ وَها نَحْنُ نَرى حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ مِنَ الذُّلِّ وَالمَهانَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِهِمْ . وَكُلُّ هَذا بِسَبَبِ تَرْكِهِمْ لِدينِ اللهِ .

وَتُسَلِّي الآياتُ المُؤْمِنينَ فَتَقولُ لَهُمْ :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ .

إِنْ كُنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَصابَتْكُمُ الجِراحُ مِنَ المُشْرِكينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، فَقَدْ مَسَّتْهُمُ الجِراحُ هُمْ كَذلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقَدْ كانوا على باطِلِهِم ، وَمَعَ ذَلِكَ ما وَهَنوا وَما ضَعُفوا وَعادوا الآنَ لِقِتالِكُمْ ، فَأَنْتُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَوْلى مِنْهُمْ بِأَنْ لا تَهِنوا ولا تَحْزَنوا ، وَأَنْ تَكونَ عَزيمَتُكُمْ صادِقَةً .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى مُداوَلَةُ الأَيَّامِ ، أَي تَصْريفُها بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَكونُ الغَلَبَةُ تارَةً لِدَوْلَةٍ ، وَالهَزيمَةُ لأُخْرى ، وَتارَةً تَكونُ العَكْسَ ، وَالغَلَبَةُ لا تَكونُ إِلاَّ لِمَنْ عَرَفَ أَسْبابَ النَّجاحِ وَعَمِلَ بِها كَالإِنْفاقِ ، وَعَدَمِ التَّنازُعِ ، وَقُوَّةِ العَزيمَةِ ، وَأَخْذِ الأُهْبَةِ وَالاسْتِعْدادِ ، فَعَلَيْكُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَنْ تَقوموا بِتِلْكَ الأُمورِ حَتَّى تَظْفَروا وَتَفوزوا .

وَما أَصابَ المُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ كانَ لأُمورٍ أَرادَها اللهُ تَعالى ، وَمِنْ هَذِهِ الأُمورِ :

١ـ لِيُمَيِّزَ قَوِيَّ الإِيمانِ مِنَ الضَّعيفِ ، وَلِيَثْبُتَ وَلِيَتَحَقَّقَ صِدْقُ إِيمانِ الَّذينَ آمَنوا ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أَي : لِيُكَرِّمَ سُبْحانَهُ وتعالى بَعْضاً مِنْكُمْ بِالشَّهادَةِ وَالقَتْلِ في سَبيلِ اللهِ ، حَيْثُ تَمَنَّى بَعْضُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الاسْتِشْهادَ في سَبيلِ اللهِ ، وَفي هذا حَثٌّ لِلْمُسْلِمينَ عَلى أَنْ يَكونوا مِثالاً لِغَيْرِهِمْ في التَّضْحِيَةِ بِالنَّفْسِ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَالدِّفاعِ عَنِ الحَقِّ .

٢ـ إِنَّ الشُّهَداءَ هُمُ الَّذينَ أَخْلَصوا في إِيمانِهِمْ وَأَعْمالِهِمْ للهِ تَعالى ، وَلَمْ يَظْلِموا أَنْفُسَهُمْ بِمُخالَفَةِ أَوامِرِ اللهِ تَعالى أَوْ الخُروجِ عَنْ سُنَّتِهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَصْطَفي لِلشَّهادَةِ مَنْ كانَ مِنَ الظَّالِمينَ .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

٣ـ وَقَدْ جعَلَ اللهُ الأيامَ دُولةً بَيْنَ النّاسِ لِيَتَميّزَ المُؤْمنونَ الصّادِقونَ مِن المُنافقينَ وَتَظْهَرَ نُفُوسُ بَعضِ ضِعافِ المُؤْمنينَ ، وَيُصَفِّيها مِنْ ذُنوبِها . إنَّ الشَّدائِدَ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ تُمَحِّصُهُ وَتُخلِّصُه مِنَ الخَبثِ وَالرَّذائِلِ وَالذُّنوبِ ، وهذا ما كانَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمينَ بعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ . فَقَدْ مَحَصَهُمْ اللهُ تعالى فَعَلِموا أَنَّهُمْ ما خُلِقوا إلاّ لِيَكونوا أَكْثَرَ النّاسِ جِدّاً في العَمَلِ ، وَأَعْظَمَهُمْ تَفانِياً في تَطْبيقِ الواجباتِ الشَّرعيّةِ ، وَلِذلِكَ أَمَرَ الرَّسولُ ﷺ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ بِتَتبُّعِ المُشْرِكينَ ، وَلكِنْ أمرَ بِأَلاّ يَتْبَعَهُمْ إلاّ مَنْ شَهِدَ غَزْوَةَ أُحُدٍ . وَامْتَثَلَ المُسْلِمونَ بِقُلوبٍ مُطْمَئِنّةٍ وَعَزيمةٍ صادِقَةٍ عَلى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ جِراحاتٍ عَظيمَةٍ ، فَلَحِقوا بِالمُشْرِكينَ إلى مِنْطَقَةٍ تُسمى (حَمْراءِ الأَسَدِ) .

٤ـ ﴿ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي : يَجْعَلُ سُبْحانَهُ اليَأْسَ مُسيطِراً عَلى قُلوبِ الكافِرينَ ، فَلا يَبْقى لَدَيْهِمْ شَجاعَةٌ وقُوَّةٌ ، فَيُهْلِكُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى وَيَسْتأْصِلُهُمْ شَيْئاً فَشَيْئاً .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ طَريقَ الجَنَّةِ مَحفوفٌ بِالمَكارِهِ ، وَأَنَّ الوُصولَ إلى رِضا اللهِ تَعالى يَحْتاجُ إلى جِهادٍ عَظيمٍ وَصَبْرٍ طَويلٍ .

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِلْمُسْلِمينَ : أَعَلِمْتُمْ أَنَّ للهِ تَعالى سُنَناً في النَّصْرِ وَالهَزيمَةِ ، وَأَنَّ الأَيّامَ دُوَلٌ بَيْنَكُمْ ، وَأَنَّ الوُصولَ إلى رِضا اللهِ يَحْتاجُ إلى صَبْرٍ وَجِهادٍ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ تَدْخُلونَ الجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ جِهادٍ وَلا صَبْرٍ طَويلٍ شاقٍّ ؟ فَفي الآيةِ اسْتِفْهامٌ مُقدَّرٌ جاءَ لِلتَّبْكيتِ .

إنَّ دُخولَ الجَنَّةِ مَحْفوفٌ بِالمَكارِهِ فَهُوَ يَحْتاجُ إلى جِهادِ النَّفْسِ عَلى أَداءِ حُقوقِ اللهِ وَحُقوقِ العِبادِ ، وَجِهادِها لِتَبْليغِ دَعْوَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَحْتاجُ إلى جِهادِ النَّفْسِ لأَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنَ الشُّحِ وَذَلِكَ بِبَذْلِ المالِ في سَبيلِ اللهِ ، وَيَحْتاجُ إلى جِهادِ أَعْداءِ اللهِ تَعالى لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَلِتَطْهيرِ الأَرْضِ مِنْ دَنَسِ المُشْرِكينَ . وَهذا كُلُّهُ لا يَكونُ إلاَّ بِالصَّبْرِ حَتّى يَتَميّزَ الصّابِرون في جِهادِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فالصَّبْرُ هُوَ عُدَّةُ المُجاهِدِ لِيَصِلَ إلى ما يُريدُ . وَفي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ كانَ عَدَمُ صَبْرِ الرُّماةِ ، وَمُسارَعَتُهُمْ إلى جَمْعِ الغَنائِمِ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبابِ الّتي أَدَّتْ إلى هَزيمَةِ المُسْلِمينَ .

وَتُذَكِّرُ الآياتُ المُسْلِمينَ بِما كانَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، حَيْثُ تَمَنّى كَثيرٌ مِنْهُمُ الاسْتِشْهادَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَقَدْ كانوا يَقولونَ : لَئِنْ لَقينا مَعَ النَّبيِّ ﷺ المُشْرِكينَ لَنَفْعَلَنَّ ، فابْتُلوا بِذَلِكَ في أُحُدٍ . وَلَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ تَوَلّى مِنْهُمْ مَنْ تَوَلّى فَعاتَبَهُمْ اللهُ تَعالى .

﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَقولَ لِلْمُؤْمِنينَ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ قَبْلَ أَنْ تُلاقوا القَوْمَ

في المَيْدانِ ، فها أَنْتُمْ أُوْلاءِ قَدْ رأيتُم ما كُنْتُم تَتمَنَّوْنَهُ ، وَأَنْتُم تَنْظُرونَ إلَيْهِ لا تَغْفلونَ عَنْهُ ، فما بالُكُمْ دُهِشْتُمْ عِنْدَما وَقَعَ المَوْتُ فيكُمْ ، وَما بالُكُمْ تَحْزنونَ وَتَضْعُفونَ عِنْدَ لِقاءِ ما كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ ، وَمَنْ تَمَنَّى الشَّيْءَ وَسَعَى إِلَيْهِ لا يَنْبَغي أَنْ يُحْزِنَهُ لِقاؤُهُ وَيَسوءَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الهادِيَةُ لا يَسْتَفيدُ مِنْها إلاّ القَلْبُ المُؤْمِنُ ، وَالعِظَةُ البالِغَةُ لا يَنْتَفِعُ بِها إلاّ القَلْبُ الخاشِعُ .

٢ـ عَدَمُ الحُزْنِ عَلى ما فاتَ ، لأَنَّهُ يُفْقِدُ الإنْسانَ الكَثيرَ مِنْ عَزيمَتِهِ ، وَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يُعالِجَ نَفْسَهُ لِكَيْ لا يَحْزَنَ .

٣ـ الأَخْذُ بالأُهْبَةِ وَالاسْتِعْدادِ مَعَ العَزيمَةِ الصَّادِقَةِ وَالحَزْمِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلى اللهِ يَقودُ المُسْلِمينَ إِلى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِما يُريدونَ .

٤ـ الظُّلْمُ لا تَدومُ لَهُ سُلْطَةٌ وَلا تَثْبُتُ لَهُ دَوْلَةٌ ، بَلْ إِنَّ دَوْلَةَ الظُّلْمِ وَالكُفْرِ سَريعَةُ الزَّوالِ بِإِذْنِ اللهِ .

٥ـ الطَّريقُ إِلى الجَنَّةِ لَيْسَ سَهْلاً ، وَإِنَّما هُوَ طَريقٌ مَحْفوفٌ بِالمَكارِهِ ، وَلا يَصِلُ إِلى غايَتِهِ إِلاّ الّذين جاهَدوا وَصَبروا وَصابَروا .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ أَحْداثُ غَزْوَةِ أُحُدٍ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ في الكَوْنِ الّتي لا تَتَخَلَّفُ . بَيِّنِ المَقْصودَ بِذَلِكَ .

٢ـ ما الّذي حَدَثَ بَعْدَ انْتِهاءِ غَزْوَةِ أُحُدٍ ؟ هَلْ عادَ المُسْلِمونَ إِلى بُيوتِهِمْ ؟

٣ـ إِلامَ دَعا الرَّسولُ ﷺ صَحابَتَهُ بَعْدَ المَعْرَكَةِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ مَجيءِ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِالوَهَنِ وَالحُزْنِ ؟ وَلِماذا نَهى اللهُ المُسْلِمينَ عَنْهُما ؟

٦ـ ما الّذي تَسْتَفيدُهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿وَتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ﴾ ؟

٧ـ لِماذا جَعَلَ اللهُ الأَيّامَ دُوَلاً بَيْنَ النّاسِ ؟

٨ـ ما الطَّريقُ المُؤَدِّي إِلى الجَنَّةِ الَّذي يَجِبُ عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَسْلُكوهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ما الأَسْبابُ الحَقيقيَّةُ وَراءَ هَزيمَةِ المُسْلِمينَ في المَعْرَكَةِ ؟ اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هَاتِ أَسْماءَ ثَلاثَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ الَّذينَ اسْتُشْهِدوا في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ . اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

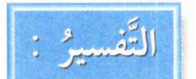
الدَّرْسُ الحادي والثلاثونَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الحادي والثَّلاثونَ

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **انْقَلَبْتُمْ على أَعْقابِكُمْ** : رَجَعْتُمْ كُفَّاراً بَعْدَ إيمانِكُمْ .
- **مُؤَجَّلاً** : ذا أَجَلٍ ، وَالأَجَلُ المُدَّةُ المضروبَةُ لِلشَّيْءِ .
- **رِبِّيُّونَ** : جَماعاتٌ كَثيرةٌ .
- **وَهَنوا** : ضَعُفوا .
- **اسْتَكانوا** : خَضَعوا وَاسْتَسْلَموا .
- **إِسْرافَنا** : مُجاوَزَتَنا الحَدَّ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ مَعَ تِلْكَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ الَّتي شَهِدَتْ مَعْرَكَةَ أُحُدٍ بِخاصَّةٍ وَمَعَ المُسْلِمينَ بِعامَّةٍ .

لَقَدْ أُشيعَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ قَدْ قُتِلَ ، وَرَجَعَ أَحَدُ المُشْرِكينَ وَيُدْعى ابْنُ قُمَيْئَةَ ، قائِلاً لِلْمُشْرِكينَ : قَتَلْتُ مُحَمَّداً ، فَوَقَعَ ذَلِكَ في قُلوبِ كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَاعتقَدوا أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ حَقّاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهَنٌ وَتَأَخُّرٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ عَنِ القِتالِ ، فَجاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لِهَؤلاءِ أَنَّ مُحَمَّداً لَيْسَ إِلاَّ بَشَراً قَدْ مَضَتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ ، وَذَلِكَ مِثْلُ سَيِّدِنا زَكَرِيّا وَيَحْيى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمَا دامَ أَنَّهُ بَشَرٌ فَهُوَ لَنْ يَخْلُدَ في هَذِهِ الأَرْضِ ، وَلِذَلِكَ يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : أَفَإِنْ ماتَ مُحَمَّدٌ كَما ماتَ إِبراهيمُ ومُوسى وَغَيْرُهما مِنَ الأَنْبياءِ ، أَوْ قُتِلَ كَما قُتِلَ يَحْيى وَزَكَرِيّا عَلَيْهِما الصَّلاةُ وَالسَّلامُ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ ، وَإِنَّ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ بَعْدَ وَفاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلى ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ وَالضَّلالِ ، فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَلَكِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ بِتَعْرِيضِها لِلسَّخَطِ وَالعَذابِ ، وَبِحِرْمانِها مِنَ الأَجْرِ وَالثَّوابِ . وَبَعْدَ هذا الوَعيدِ وَعَدَ اللهُ تَعالى الشّاكِرينَ بِالأَجْرِ العَظيمِ ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ يَشْكُرونَ اللهَ تَعالى عَلى نِعَمِهِ في السَّراءِ وَالضَّراءِ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

وَيُبَيِّنُ سُبحانَهُ وَتَعالى لِلصَّحابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الآجالَ بِيَدِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلاً مُحَدَّداً ، وَوَقْتاً تَموتُ فيهِ لا تَتَعَدّاهُ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ إِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ تَجِدُهُمْ يَخوضونَ الحُروبَ ، وَيَتَعَرَّضونَ لِلأَمْراضِ الخَطيرَةِ ، أَوِ الحَوادِثِ العَظيمَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لا يَموتونَ في أَثْناءِ ذَلِكَ ، لأَنَّ لأَعْمارِهِمْ آجالاً ، وَالآجالُ لَها أَقْدارٌ قَدَّرَها اللهُ تَعالى لَها .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ إِنَّ مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ حُظوظَ الدُّنْيا وَمَتاعَها ، أَعْطاهُ اللهُ تَعالى شَيْئاً مِنْ ثَوابِها ، وَمَنْ قَصَدَ ثَوابَ الآخِرَةِ أَعْطاهُ اللهُ حَظّاً مِنْ ثَوابِها ، وَهَذا هُوَ مَعْنى قَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَاتِ ، وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوى) .

إنَّ الإنْسانَ مُخيَّرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يُريدَ الدُّنْيا ، وَإمَّا أَنْ يُريدَ الآخِرَةَ ، وَلِكُلٍّ مَنْهُما طَريقٌ يُمْكِنُ لِلإنْسانِ أَنْ يَسْلُكَهُ ، قَالَ تَعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ، [الشورى : ٢٠] ، وَقَدْ عَلَّمَنا سُبحانَهُ وَتَعالى أَن نَقولَ دائِماً : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وَهُمُ الّذينَ يَعْرِفونَ نِعَمَ اللهِ تَعالى وَيَشْكُرونَهُ عَلَيْها ، فَها هُوَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ وَأَمْثالُهُ يُشارِكُ في المَعْرَكَةِ وَيُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ وَيَصْبِرُ ، شاكِراً اللهَ على ما أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ عَظيمَةٍ وَقُوَّةٍ بَدَنِيَّةٍ ، لِيَكونَ سَبَباً في تَطْهيرِ الأَرْضِ مِنَ الشِّرْكِ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ .

إنَّ عَلى أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، أَنْ تَأْخُذَ العِبْرَةَ مِنَ السَّابِقينَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى قَدْ بَعَثَ أَنْبياءَ مِثْلَ مُحمَّدٍ ﷺ وَكان لَهُمْ أَتْباعٌ قَليلونَ ، وَلَكِنَّهُمْ ما ضَعُفوا وَما اسْتَكانوا بِسَبَبِ الإيمانِ العَميقِ وَالعَزْمِ الوَثيقِ الَّذي كانوا عَلَيْهِ . إنَّ كَثيرا مِنَ الأَنْبياءِ قاتَلَ مَعَهُمْ مُؤْمِنونَ صادِقونَ في إيمانِهِمْ مِنْ أَجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَإعْزازِ دينِهِ ، وَلَمْ يَهِنوا وَلَمْ يَضْعُفوا أَوْ يَجْبُنوا بِسَبَبِ ما أَصابَهُمْ مِنْ جِراحٍ ، أَوْ بِسَبَبِ ما أَصابَ أَنْبياءَهُمْ مِنْ قَتْلٍ ، لأَنَّ مَا أَصابَهُمْ كانَ في سَبيلِ اللهِ وَسَبيلِ طاعَتِهِ وَإقامَةِ دينِهِ ، لَقَدْ نَفَتِ الآياتُ عَنِ أَتْباعِ الأَنْبياءِ ثَلاثَةَ أُمورٍ :

١ـ الوَهَنُ : وَهُوَ الاضْطِرابُ النَّفْسِيُّ وَالهَلَعُ القَلْبِيُّ الَّذي يَسْتَوْلي عَلى الإنْسانِ فَيُفْقِدهُ عَزيمَتَهُ .

٢ـ الضَّعْفُ : وَهُوَ ضِدُّ القُوَّةِ ، وَهُوَ ناتِجٌ مِنَ الوَهَنِ ، سَواءٌ أَكانَ ضَعْفاً في الجِسْمِ أَمْ في الدِّينِ .

٣ـ الاسْتِكانَةُ : هِيَ الرِّضا بِالذُّلِّ وَالخُضوعِ لِلأَعْداءِ .

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ ، لَمْ يوصَفوا بِأَيِّ صِفَةٍ مِن هَذِهِ الصِّفاتِ ، وَلَكِنَّهُمْ كانوا مِنَ الصَّابرينَ عَلى تَحَمُّلِ المَكارِهِ ، وَالشَّدائِدِ ، وَهؤلاءِ الصَّابرونَ هُمُ الَّذينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ تَعالى ؛ لأَنَّهُمْ صَبَروا عَلى آلامِ القِتالِ ، وَمَشاقِّ الطَّاعاتِ وَالتَّكاليفِ الَّتي كَلَّفَهُمُ اللهُ بِها ، إضافَةً إلى ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ كانوا يَتَوَجَّهونَ بِالدُّعاءِ إلى اللهِ تَعالى دائماً ، وَخاصَّةً في مواطِنِ القِتالِ ، بِأَنْ يُهَيِّىءَ لَهُمْ أُموراً ثَلاثَةً :

الأَوَّلُ : أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ذُنوبَهُمْ صَغيرَها وَكَبيرَها ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ «إسْرافَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ»

أَيْ مَا تَجاوَزوهُ مِنَ الحُدودِ الَّتي حَدَّها اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِعَدَمِ تَجاوُزِها .

الثَّاني : أَنْ يُثَبِّتَ أَقْدامَهُمْ في المَعْرَكَةِ ، وَأَنْ لا يَجْعَلَهُمْ مِنَ الجُبَناءِ الَّذينَ يَفِرّونَ مِنَ المَعْرَكَةِ ، إِذا ما لاقوا العَدُوَّ وَاحْتَدَمَ القِتالُ .

الثَّالِثُ : أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلى القَوْمِ الكافِرينَ ، بِأَنْ يَجْعَلَ النَّصْرَ لَهُمْ دائِماً عَلى أَعْداءِ هَذا الدِّينِ الَّذينَ جَحَدوا وَحْدانِيَّةَ اللهِ ، وَكَذَّبوا نَبِيَّهُ ، وَضَلُّوا ضَلالاً كَبيراً ، وَهَذِهِ الأُمورُ كُلُّها تَدُلُّ عَلى صِدْقِ هَؤُلاءِ المُقاتِلينَ المُؤْمِنينَ .

وَماذا كانَتْ نَتيجَةُ ما طَلَبوا مِنَ اللهِ تَعالى ؟ هَلْ أَجابَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ يَقولُ : إِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى أَكْرَمَهُمْ بِالخَيْرِ في الدُّنْيا مِنْ نِعْمَةٍ وَإِكْرامٍ وَنَصْرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ هَذا فَقَطْ ، بَلْ آتاهُمْ ثَوابَ الآخِرَةِ مِنْ مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ وَإِكْرامٍ بِالجَنَّةِ وَرُؤْيَةِ اللهِ تَعالى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَعيمٍ عَظيمٍ ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فَإِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ طَلَبوا ما طَلَبوا وَصَلوا إِلى دَرَجَةِ الإِحْسانِ ، وَالإِحْسانُ كَما قالَ الرَّسولُ ﷺ : (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ) نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَجْعَلَنا مِنْ هَؤُلاءِ المُحْسِنينَ الَّذينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ رَبُّ العالَمينَ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ، وَتَحْذيرُهُمْ مِنَ الجُبْنِ وَالفِرارِ ، لِأَنَّ الجُبْنَ لا يُؤَخِّرُ الحَياةَ ، كَما أَنَّ خَوْضَ المَعْرَكَةِ لا يُؤَدِّي إِلى المَوْتِ قَبْلَ حُلولِ الأَجَلِ .

٢ـ الدَّعْوَةُ إِلى الزُّهْدِ في الحَياةِ الدُّنْيا ، وَأَنْ يَجْعَلَ الإِنْسانُ غايَتَهُ ثَوابَ الآخِرَةِ .

٣ـ وَعَدَ اللهُ تَعالى الشَّاكِرينَ لَهُ فَضْلَهُ وَإِحْسانَهُ بِالثَّوابِ العَظيمِ مِنْ نَصْرٍ وَخَيْرٍ وَفيرٍ .

٤ـ عَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَعْتَبِروا بِحالِ السَّابِقينَ الصَّادِقينَ ، وَيَقْتَدوا بِعَمَلِهِمْ ، وَيَقولوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسْئِلَةِ التَّالِيَةِ :

١ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَامُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ . . . . .﴾ ؟

٢ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ المُسْلِمينَ عِنْدَما أُشيعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ .

٣ـ لَقَدْ وَضَعَتِ الآياتُ الإِنْسانَ أَمامَ خِيارَيْنِ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتارَ واحِداً مِنْهُما ، ما هُما ؟

٤ـ مَنْ هُمُ الشَّاكِرونَ في الآيَةِ ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟

٥ـ ما العِبْرَةُ الَّتي جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِإِرْشادِ المُؤْمِنينَ إِلَيْها ؟

٦ـ هُناكَ صِفاتٌ يَنْبَغي أَنْ لا يَتَّصِفَ بِها المُؤْمِنونَ ، ما هِيَ ؟

٧ـ أَعَدَّ اللهُ لِلصَّابِرينَ دائِما وَخاصَّةً في القِتالِ ، أَجْراً عَظيما ، ما هُوَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَوْقِفَ أَنَسِ بنِ النَّضْرِ يَوْمَ أُحُدٍ بَعْدَ ما أُشيعَ عَنْ قَتْلِ الرَّسولِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما قالَهُ خالِدُ بنُ الوَليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ .

٣ـ لِماذا رُتِّبَتْ هذِهِ الأُمورُ هذا التَّرْتيبَ : طَلَبُ المَغْفِرَةِ ، ثُمَّ التَّثَبُّتُ ، ثُمَّ النَّصْرُ ؟ حاوِلْ أَنْ تَسْتَعينَ بِأَحَدِ التَّفاسيرِ لِتَعْرِفَ الإِجابَةَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثَّاني والثَّلاثونَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **مَوْلاكُمْ** : ناصِرُكُمْ وَمُعينُكُمْ .
- **الرُّعْبَ** : شِدَّةَ الخَوْفِ الَّتي تَمْلأُ القَلْبَ .
- **سُلْطاناً** : حُجَّةً وَبُرْهاناً .
- **مَثْوى** : مَكانٌ يَكونُ مَقَرَّ الإِنْسانِ .
- **تُحُسُّونَهُمْ** : تَسْتَأْصِلونَهُمْ بِالقَتْلِ .
- **بِإِذْنِهِ** : بِعَوْنِهِ وَتَأْييدِهِ .
- **فَشِلْتُمْ** : ضَعُفْتُمْ في أَمْرِ الحَرْبِ .
- **عَفا عَنْكُمْ** : تابَ عَلَيْكُمْ .



التَّفسيرُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابقَةُ المُؤْمنينَ على الاقْتِداءِ بِأَتْباعِ الأَنْبياءِ السَّابقينَ الصَّادِقينَ في إيمانِهِمْ ، وَجاءَتِ الآياتُ هنا لِتَنْهاهُم عَنْ مُتابَعَةِ الكافِرينَ ، وَذلِكَ لأَنَّ الإيمانَ وَالكُفْرَ نَقيضانِ لا يَجْتَمعانِ .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ تُطيعوا الَّذينَ كفروا وَجَحَدوا نُبُوَّةَ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، يُرْجِعوكُمْ إِلى ما كُنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنْ ضَلالٍ وَكُفْرٍ ، أَوْ يَرُدُّوكُمْ إِلى الحالَةِ الَّتي كُنْتُمْ عَلَيْها مِنَ الضَّعْفِ وَالهَوانِ ، إِنَّكُمْ إِنْ تَفْعَلوا هَذا تَرْجِعوا خاسِرينَ لِخَيْرَيِّ الدُّنْيا والآخِرَةِ ، أَمَّا خُسرانُ الدُّنيا فَهُوَ بِسَبَبِ خُضوعِكُمْ لِلكافِرينَ وَأَمَّا خُسْرانُ الآخِرَةِ فَبِما يُصيبُكُمْ مِنَ العَذابِ الأَبَدِيِّ فِي النَّارِ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتَعالى النَّهْيَ فَيَقولُ لَهُمْ : لا تَكْفُروا بِمُوالاةِ أَحَدٍ مِنَ الكافِرينَ وَلا تَأْبَهوا لإِغْوائِهِمْ ، لأَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطيعوا نَصْرَكُمْ ، وَلَكِنَّ الَّذي يَنْصُرُكُمْ هُوَ اللهُ تَعالى بِعِنايَتِهِ الَّتي وَعَدَكُمْ بِها ، فَهُوَ وَلِيُّكُمْ وَمُعينُكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرينَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ .

وَكَلِمَةُ (بَلْ) هُنا لِلإِضْرابِ الانْتِقاليِّ[1] ، وَذلِكَ لأَنَّهُ سُبْحانَهُ حَذَّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ إِطاعَةِ الكافِرينَ ، وَانْتَقَلَ بَعْدَ ذلِكَ إِلى تَوْجيهِهِمْ إِلى ما فيهِ عِزُّهُمْ وَكَرامَتُهُمْ .

﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ .

إِنَّ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَعْتَمِدونَ عَلى اللهِ تَعالى ، ولا يَعْتَمِدونَ عَلى بَشَرٍ ، سَيَنْصُرُهُمُ اللهُ تَعالى ، وَلِذلِكَ يَقولُ سُبْحانَهُ مُبَشِّراً لَهُمْ : ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾ .

إِنَّهُ سُبْحانَهُ سَيَنْتَقِمُ لَكُمْ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَذلِكَ بِأَنْ يَمْلأَ قُلوبَهُمْ بِالخَوْفِ وَالفَزَعِ ، بِسَبَبِ إِشْراكِهِمْ مَعَ اللهِ تَعالى تِلْكَ الأَصْنامَ وَالمَعْبوداتِ ، الَّتي لَمْ يُنَزِّلْ بِها سُبْحانَهُ بُرْهاناً ولا حُجَّةً ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُمْ بُرْهانٌ مِنْ عَقْلٍ ولا نَقْلٍ عَلى صِحَّةِ ما زَعَموا مِنْ أُلوهِيَّةِ هَذِهِ الأَصْنامِ ، وَكَوْنِها واسِطَةً بَيْنَ اللهِ

---

(١) ذلك بأن الله تعالى يذكر أمراً ، ثم يضرب عنه ، أي يتركه وينتقل إلى بيان أمر أعظم منه .

تعالى وبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَلكنَّهُمْ قلَّدوا في ذلِكَ آباءَهُمُ الَّذينَ ضَلُّوا فَأَضَلُّوهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، وَلِذا فإنَّ مَأواهُمْ وَمَسْكَنَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ والجُحودِ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِلحَقِّ بِمُعانَدَتِهِ وَاسْتِبْدالِهِ بالباطِلِ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمِ لِدينِ اللهِ ، وَادِّعاءِ الواسِطَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سُبْحانَهُ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِلنَّاسِ بِسوءِ مُعامَلَتِهِمْ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَمَّا حَدَثَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَكَيْفَ انْتَصَروا على أَعْدائِهِمْ في بِدايَةِ المَعْرَكَةِ ، ثُمَّ كَيْفَ كانَتْ هَزيمَتُهُمْ بعد ذلِكَ .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِلمُؤْمِنينَ : لَقَدْ وَفَّى لَكُمْ رَبُّكُمْ بما وَعَدَكُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ على أَعْدائِكُمْ ؛ إذْ أَيَّدَكُمْ في بِدايَةِ المَعْرَكَةِ بالنَّصْرِ حَتَّى صِرْتُمْ تَقْتُلونَ المُشْرِكينَ قَتْلاً ذَريعاً ، بِتَيْسيرِ اللهِ تَعالى وَمَعونَتِهِ ، لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ حينَ كُنْتُمْ تُقاتِلونَ أَعْداءَكُمْ بِإيمانٍ صادِقٍ وَإِخْلاصٍ للهِ تَعالى حَتَّى إذا ما ضَعُفَتْ نُفوسُكُمْ ، وَلَمْ تَسْتَطيعوا مُقاوَمَةَ إغراءِ الغَنائِمِ المُلْقاةِ أَمامَكُمْ ، وَقالَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ : لِماذا نَبْقى وَقَدِ انْهَزَمَ المُشْرِكونَ ؟ وقالَ آخَرونَ : لا نُخالِفُ أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ وهذا هُوَ تَنازُعُهُمْ ، وَعَصَيْتُمْ بَعْدَ ذلِكَ أَمْرَ رَسولِكُمْ وَقائِدِكُمْ حَيْثُ تَرَكَ أَكْثَرُ الرُّماةِ أَماكِنَهُمُ الَّتي أَقامَهُمْ فيها الرَّسولُ الكَريمُ ، عِنْدَ ذلِكَ تَحَوَّلَ نَصْرُكُمْ إلى هَزيمَةٍ ، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ ، وَلَمْ تَنالوا الغَنائِمَ الَّتي عَصَيْتُمْ أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ لأَجْلِها .

إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ فَريقانِ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وَهُمُ الَّذينَ تَرَكوا مَقْعَدَهُمْ وَمَكانَهُمْ عَلى الجَبَلِ ، وَذَهَبوا يَجْمَعونَ الغَنائِمَ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ وَهُمُ الَّذينَ أَطاعوا الرَّسولَ ﷺ وَثَبَتوا يُقاتِلونَ مَعَهُ وَيُدافِعونَ عَنْهُ . يَقولُ ابْنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ما عَلِمْنا أَنَّ أَحَداً مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ كانَ يُريدُ الدُّنْيا وعَرَضَها حتّى كانَ يومُ أُحُدٍ .

ثُمَّ إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لمّا كان مِنْكُمْ ما كانَ - أَيُّها المُؤْمِنونَ - مَنَعَ نَصْرَهُ بِسَبَبِ فَشَلِكُمْ وَتَنازُعِكُمْ ، وَمَعْصِيَتِكُمْ لِنَبِيِّكُمْ ، لِيُعامِلَكُمْ مُعامَلَةَ مَنْ يُمْتَحَنُ ، لِيَتَمَيَّزَ قَوِيُّ الإيمانِ مِنْ ضَعيفِهِ ، وَلِيَتَبَيَّنَ لَكُمُ الصَّابِرُ المُخْلِصُ مِنْ غَيْرِهِ .

وَقَدْ جاءَ سُبْحانَهُ بِكَلِمَةِ (ثُمَّ) في قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ لِيُبَيِّنَ لِلْمُؤْمِنينَ التَّفاوتَ العَظيمَ بَيْنَ الغايَةِ الَّتي خَرَجوا مِنْ دِيارِهِمْ لأَجْلِها وَهِيَ النَّصْرُ عَلى المُشْرِكينَ ، وَبَيْنَ النَّتيجَةِ الَّتي انْتَهَوْا إِلَيْها وَهِيَ عَوْدَتُهُمْ مَقْهورينَ ، بِسَبَبِ افْتِتانِهِمْ بالغَنيمَةِ ، وَمُخالَفَتِهِمْ لأَمْرِ الرَّسولِ ﷺ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بِما فيهِ تَخْفيفٌ عَلى المُسْلِمينَ ، وَتَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَمَّا أَصابَهُمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فَقَدْ مَحا عَنْكُمْ سُبْحانَهُ أَثَرَ الذَنْبِ بَعْدَ أَنْ مُحِّصتُمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ ذُو فَضْلٍ عَلى أَهْلِ الإيمانِ بِهِ وَبِرَسولِهِ ﷺ ، فَيَعْفو عَنْ كَثيرٍ مِمَّا يَسْتَحِقّونَ بِهِ العُقوبَةَ مِنَ الذُّنوبِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّهيُ عَنْ طاعَةِ الكافِرينَ خَشْيَةَ الرُّجوعِ إلى الضَّلالِ بَعْدَ الهُدى، وَالخُسْرانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

٢ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى إِلقاءُ الرُّعْبِ في قُلوبِ الكافرينَ حَتَّى يَقْهَرَهُمْ ، وَيُظْهِرَ الدِّينَ الإِسْلاميَّ عَلى سائِرِ الأَدْيانِ .

٣ـ إنَّ الفَشَلَ وَالتَّنازُعَ يَحولُ بَيْنَ الأُمَّةِ ونَصْرِ اللهِ تَعالى لَها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التَّالِيَةِ :

الرُّعْبَ ، سُلْطاناً ، مَثْوى ، فَشِلْتُمْ ، تَحُسُّونَهُمْ .

٢ـ ما عاقِبَةُ الَّذينَ يُطيعونَ الكافِرينَ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٣ـ ما مَعْنى : (بل) ؟ وما المَعْنى الَّذي أَفادَتْهُ في الآيَةِ (١٥٠) ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿سَنُلْقِي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ؟

٥ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَمَّا حَدَثَ لِلْمُؤْمنينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، هاتِ ما ذَكَرَتْهُ باخْتِصارٍ .

٦ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَالكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ مُهِمَّةِ الرُّماةِ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَما حَصَلَ مِنْهُمْ ، وَعَلِّقِ القِصَّةَ عَلى مجلّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تُصْعِدونَ : تُذْهِبونَ في الأَرْضِ وَتُبْعِدونَ .

لا تَلْوونَ : لا تَلْتَفِتونَ إِلى أَحَدٍ مِنْ شِدَّةِ الهَرَبِ .

أُخْراكُمْ : آخِرَتِكُمْ .

أَثابَكُمْ : جازاكُمْ .

غَمّاً : ضيقاً في صَدْرِ الإِنْسانِ مِنْ سوءٍ أَصابَهُ .

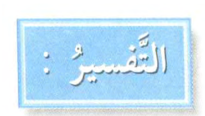
أَمَنَةً : الأَمْنُ ، وَهُوَ ضِدُّ الخَوْفِ .

يَغْشى : يُغَطّي ويَسْتُرُ .

بَرَزَ : خَرَجَ وَظَهَرَ .

مَضاجِعِهِمْ : مَصارِعِهِمْ .

اسْتَزَلَّهُم : أَوْقَعَهُمْ في الزَّلَلِ وَالخَطيئَةِ .



التَّفسيرُ :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾ .

لَقَدْ خالَفَ المُسْلِمونَ أَوامِرَ رَسولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَماذا كانَتِ النَّتيجَةُ ؟ يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلْمُؤْمِنينَ : اذْكُروا وَقْتَ أَنْ كُنْتُمْ تُهَرْوِلونَ بِسُرْعَةٍ في بَطْنِ الوادي ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَّتْ صُفوفُكُمْ وَاضْطَرَبَ جَمْعُكُمْ ، وَصِرْتُمْ لا تَلْتَفِتونَ مِن شِدَّةِ الدَّهْشَةِ الَّتي اعْتَرَتْكُمْ ، وَالذُّعْرِ الَّذي فاجَأَكُم ، لا تَلْتَفِتونَ إِلى أَحَدٍ ، وَبَيْنَما أَنْتُمْ عَلى هَذِهِ الحالِ ، وَإِذْ بِالرَّسولِ ﷺ يَدْعوكُمْ مِنْ وَرائِكُمْ وَيُناديكُمْ ، وَقَدْ كانَ الرَّسولُ مَعَ الجَماعَةِ الأُخْرى ، لَقَدْ ناداكُمُ الرَّسولُ ﷺ قائِلاً :« إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ، أَنا رَسولُ اللهِ ، مَنْ يَكِرُّ فَلَهُ الجَنَّةُ » .

وَقَدْ كانَتْ نَتيجَةُ هَذا الاِضْطِرابِ في صُفوفِكُمْ أَنْ جازاكُمُ اللهُ تَعالى عَلى ذَلِكَ بِسَبَبِ عِصْيانِكُمْ أَمْرَ رَسولِكُمْ ﷺ ، أَذاقَكُمْ اللهُ غَمَّ الاِنْهِزامِ وَقَتْلَ مَنْ تُحِبُّونَ ، فَالغَمُّ الأَوَّلُ : ما حَصَلَ لِلْمُسْلِمينَ مِنْ هَزيمَةٍ وَقَتْلٍ ، وَالغَمُّ الثّاني لِلرَّسولِ بِمُخالَفَةِ أَمْرِهِ ، وَقيلَ الغَمُّ الأَوَّلُ : ما فاتَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالغَنيمَةِ ، وَالغَمُّ الثّاني : اسْتِعْلاءُ المُشْرِكينَ عَلَيْهِمْ .

لَقَدْ أَثابَكُمُ اللهُ غَمّاً بِغَمٍ حَتَّى تَتَمَرَّنوا أَيُّها المُؤْمِنونَ عَلى تَجَرُّعِ الغُمومِ ، وَتَتَعَوَّدوا احْتِمالَ المَشاقِّ ، فَلا تَحْزَنوا فيما بَعْدُ عَلى ما يَفوتُكُمْ مِنَ المَنافِعِ ، أَوْ ما يُصيبُكُمْ مِنَ المَضارِّ .

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِأَعْمالِكُمْ وَنِيّاتِكُمْ ، وَهُوَ خَبيرٌ بِالأَسْبابِ الَّتي دَعَتْكُمْ إِلى مُخالَفَةِ أَمْرِ الرَّسولِ ، وَهُوَ قادِرٌ عَلى مُجازاتِكُمْ .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤) ﴾ .

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالى بِعِبادِهِ ، أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهُمْ وما أَصابَهُمْ مِنْ غَمٍّ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ عَمَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ، حَيْثُ أَنْزَلَ عَلى طائِفَةٍ مِنْهُمُ الأَمْنَ وَالطُّمَأْنينَةَ ، وَمِنْ مَظاهِرِ هَذا الأَمْنِ النُّعاسُ الَّذي

أَصابَهُمْ ، وهي السِّنةُ الّتي تكونُ في بدايةِ النَّوْم ، وَمِنْ شَأْنِ هَذا النُّعاسِ أَنْ يُزيلَ عَنِ الإِنْسانِ بَعْضَ مَتاعِبِهِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَراحَتْ أَبْدانُهُمْ مِنْ غَيْرِ فَزَعٍ وَلا قَلَقٍ ، فَالنُّعاسُ في مِثْلِ تِلْكَ الحالِ ، دَليلٌ عَلى الأَمْنِ ، وَالطَّائِفَةُ الَّتي غَشِيَها النُّعاسُ أَمَنَةً نُعاساً هِيَ الَّتي أَخْلَصَتْ للهِ تَعالى .

عَنْ أَبي طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عنْهُ قالَ : كُنْتُ فيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعاسُ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى سَقَطَ سَيْفي مِنْ يَدي مِراراً ، يَسْقُطُ وآخُذُهُ[1] . أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَمْ يُنْزِلْ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى النُّعاسَ ، بَلْ ظَلُّوا في قَلَقِهِمْ وَحَيْرَتِهِمْ .

وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ، هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّتي اشْتَرَكَتْ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَلَمْ تَكُنْ صادِقَةً في إِيمانِها ، فَهُمْ مُكَذِّبونَ بالرَّسُولِ ﷺ ، وَقَدْ شارَكوا في المَعْرَكَةِ مِنْ أَجْلِ الحُصولِ عَلى الغَنائِمِ ، هَؤُلاءِ أَوْقَعوا أَنْفُسَهُمْ في الهَمِّ وَالحُزْنِ وَعَدَمِ الاطْمِئنانِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ .

لَقَدْ كانَ هَؤُلاءِ يَقولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلى سبيلِ الإِنْكارِ : هَلْ لَنا مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ نَصيبٌ ؟ أَيْ : إِنَّنا لَيْسَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ إِنَّ اللهَ تَعالى لا يَنْصُرُ مُحَمَّداً ، وَما دامَ كَذَلِكَ ، فَهَذا الدِّينُ لَيْسَ حَقّاً ، وَلِذا رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أَي : إِنَّ كُلَّ ما يَجْري إِنَّما هُوَ حَسَبُ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الخَلْقِ وَوِفْقَ النِّظامِ الَّذي وَضَعَهُ سُبْحانَهُ مِنْ رَبْطِ الأَسْبابِ بِالمُسَبِّباتِ ، حَيْثُ رَبَطَ نَصْرَ المُؤْمِنينَ بِنُصْرَةِ دينِهِ سُبْحانَهُ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ عَنْ هَؤُلاءِ : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، فَهُمْ يُخْفونَ في أَنْفُسِهِمْ ما لا يَسْتَطيعونَ إِعْلانَهُ مِنَ الأَقْوالِ القَبيحَةِ وَالظُّنونِ السَّيِّئَةِ ، وَتَكْذيبِهِمُ الرَّسولَ ﷺ ، وَمِمَّا كانوا يُخْفونَهُ قَوْلُهُمْ : لَوْ كانَ لَنا كَلِمَةٌ مَسْموعَةٌ أَوْ أَيُّ رأْيٍ مُطاعٍ ، ما خَرَجْنا مِنَ المَدينَةِ إِلى هَذا المَكانِ الَّذي قُتِلَ فيهِ أَقارِبُنا وَأَصْحابُنا . عَنِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ قالَ : وَاللهِ إِنّي لأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بنِ قُشَيرٍ ، وَالنُّعاسُ يَغْشاني ، ما أَسْمَعُهُ إِلاَّ كَالحُلُمِ حينَ قالَ : لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا[2] .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بِالرَّدِّ عَلى هَؤُلاءِ المُنافِقينَ فَقالَ : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : لَوْ كُنْتُمْ أَيُّها المُنافِقونَ في مَنازِلِكُمْ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَلَمْ تَخْرُجوا لِلقِتالِ ، وَكانَ سُبْحانَهُ وَتَعالى قَدْ قَدَّرَ قَتْلَ جَماعَةٍ مِنْكُمْ في أُحُدٍ ، لَخَرَجَ أُولَئِكَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ لأَيِّ سَبَبٍ كانَ إِلى الأَماكِنِ الَّتي قَدَّرَ اللهُ تَعالى أَنْ يُقْتَلوا فيها ، وَلَنْ يَنْجوَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ قَدَرِ اللهِ تَعالى أَحَدٌ .

إِنَّ ما حَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ كانَ للهِ تَعالى فيهِ حِكْمَةٌ ، فَقَدْ حَلَّ بِهِمْ ما حَلَّ لِيُعامِلَهُمْ سُبْحانَهُ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير ، باب : يغشيكم النعاس أمنة منه رقم ٣٨٤١ .

(٢) جامع البيان ، ابن جرير الطبري (٤/ ١٤٣) .

مُعامَلَةَ المُخْتبَرِ لِنُفوسِهِمْ ، فَيَتَبيَّنُ الخَبيثُ مِنَ الطَّيِّبِ ، ولِيُخَلِّصَ ما يُمْكِنُ أنْ يكونَ قدْ عَلِقَ في قلوبِهِمْ مِنْ أدْرانٍ ، ويُطَهِّرَها مِمَّا خالَطَها مِنْ ظُنونٍ سَيِّئَةٍ وَمِنْ وَساوِسِ الشَّيْطانِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بالأَسْرارِ وَالضَّمائِرِ ، وَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّرْبِيَةُ الصَّحيحَةُ للإِنْسانِ ، تَكونُ بالعَمَلِ ، وَالمِرانِ ، فَبِذَلِكَ يَكْمُلُ إيمانُ الإِنْسانِ .

٢ـ التَّرْغيبُ في طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَالزَّجْرُ عَنِ الإِقْدامِ عَلى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى .

٣ـ الفِتَنُ الَّتي تُصيبُ البَشَرَ مِنْ مِحَنٍ وَشَدائِدَ تُمَحِّصُ القُلوبَ مِمَّا يُخالِطُها مِنَ الظُنونِ السَّيِّئَةِ ، وَوَساوِسِ الشَّيْطانِ ، وَحُبِّ الشَّهَواتِ .

٤ـ حُرِّيَّةُ الاعْتِقادِ هِيَ أَوَّلُ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ ، وَمَنْ سَلَبَ إِنْساناً حُرِّيَّةَ الاعْتِقادِ فَكَأَنَّما سَلَبَ مِنْهُ إِنْسانِيَّتَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ كانَ حالُ المُؤْمِنينَ بَعْدَ مُخالَفَةِ الرَّسولِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ؟

٢ـ ما نَتيجَةُ اضْطِرابِ المُسْلِمينَ في صُفوفِهِمْ ؟

٣ـ في قَولِهِ تَعالى : ﴿غَمّاً بِغَمٍ﴾ ما هَذانِ الغَمّانِ ؟

٤ـ لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى المُؤْمِنينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ بَعْدَ ما أَصابَهُمْ بِغَمٍّ ، ما تِلْكَ النِّعْمَةُ ؟

٥ـ مَنِ الَّذينَ غَشِيَهُمُ النُّعاسُ بَعْدَ المَعْرَكَةِ ؟ وَمَنِ الّذين حُرِموا مِنْهُ ؟

٦ـ بِمَ رَدَّ سُبْحانَهُ عَلى الَّذينَ يَخافونَ المَوْتَ في المَعْرَكَةِ ؟

٧ـ ما الحِكْمَةُ مِمَّا حَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ ؟

نَشاطٌ :

ـ مَتى ظَهَرَتْ طائِفَةُ المُنافِقينَ ؟ هَلْ كانوا في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ؟ وَلِمَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الرّابعُ والثّلاثونَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **الجَمْعانِ** : جَمْعُ المُؤْمنينَ وَجَمْعُ الكافِرينَ .
- **اسْتَزَلَّهُمْ** : أَزَلَّهُمْ بِوَسْوَسَتِهِ .
- **إذا ضَرَبوا في الأَرْضِ** : سَافروا في الأَرْضِ لِلتِّجارَةِ وَالكَسْبِ .
- **غُزّىً** : مُقاتِلينَ في الحَرْبِ .
- **حَسْرَةً** : نَدَامَةً في قُلوبِهِمْ .

التَّفْسيرُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

قُلْنا مِنْ قَبْلُ إِنَّ الَّذينَ شَهِدوا مَعْرَكَةَ أُحُدٍ ، صاروا فَريقَيْنِ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ :

الأَوَّلْ : الفريقُ الَّذي تَذَكَّرَ وَعْدَ اللهِ تَعالى لَهُ بِالنَّصْرِ ، وَعَرَفَ تَقْصيرَهُ في المَعْرَكَةِ ، فَاسْتَغْفَروا اللهَ تَعالى لِذُنوبِهِمْ .

الثّاني : الفَريقُ الَّذي استَوْلى عَلَيْهِ الخَوْفُ ، ووقعَ عليهِمُ اللُّبسُ في أَمْرِهِمْ .

وَفي هذهِ الآياتِ يُبَيِّنُ اللهَ تَعالى أَنَّ الَّذينَ تَوَلَّوْا مِنَ المُؤْمِنينَ عَنِ القِتالِ ، أَوْ تَرَكوا أَماكِنَهُمْ فَلَمْ يَثْبُتوا فِيها طَلَباً لِلْغَنيمَةِ يَوْمَ التَقى المُشْرِكونَ والمُؤْمِنونَ في مَعْرَكَةِ أُحُد ، إِنَّما اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطانُ ، أَيْ كانَ ما كانَ مِنْهُمْ بِسَبَبِ إِغواءِ الشَّيْطانِ وَوَسْوَسَتِهِ ، فَقَدْ ذَكَرَهُمْ بِذُنوبِهِمُ الَّتي اقْتَرَفوها ، فَكانَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتوا في المَعْرَكَةِ ، وَتَرَكوا أَماكِنَهُمْ لأَخْذِ الغَنائِمِ ، وَلَمَّا رَأَوْا المُشْرِكينَ يَلْحَقونَ بِهِمْ فَرُّوا مِنَ المَعْرَكَة .

وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى لِرَحْمَتِهِ قَدْ عَفا عَنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ زَلُّوا ، حَتى تَكونَ أَمامَهُمُ الفُرَصَ لِتَطْهيرِ نُفوسِهِمْ ، وَبَعْثِها عَلى التَّوْبَةِ الصّادِقَةِ ، وَالإِخْلاصِ للهِ رَبِّ العالَمينَ ، لَقَدْ عَفا عَنْهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِصِدْقِ تَوْبَتِهِمْ ، وَلِنَدَمِهِمْ عَلى ما كانَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ فِرارَهُمْ لَمْ يَكُنْ كَفِرارِ المُنافِقينَ ، بَلْ حَدَثَ عِنْدَما اضْطَرَبَتْ صُفوفُ المُسْلِمينَ ، لَكِنَّهُمْ عادوا وَثَبَتوا مَعَ الرَّسولِ ﷺ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَنْهى عَنِ التَّشَبُّهِ بِالكافِرينَ ، وَالاسْتِماعِ إِلى أَكاذيبِهِمْ وَأَباطيلِهِمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يُناديهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِهذا النِّداءِ الَّذي يَدْفَعُهُمْ لِلحِرْصِ عَلى أَنْ يَكونوا مُتَّصِفينَ بِصِفَةِ الإيمانِ ، وَعَلى الاسْتِجابَةِ للهِ تَعالى ، وَيَنْهاهُمْ نَهْياً قاطِعاً أَنْ يَكونوا مِثْلَ الَّذينَ كَفَروا ، وَهَذا النَّهْيُ يُشْعِرُ بِالتَّفاوُتِ العَظيمِ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ ، فَلا يَليقُ بِالمُؤمِنِ أَنْ يَنْحَدِرَ إِلى الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ رَفَعَهُ اللهُ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلمُؤْمِنينَ : لا تَكونوا كَأُولَئِكَ المُنافِقينَ الَّذينَ قالوا في شَأْنِ إِخوانِهِمْ حينَ سافَروا في البِلادِ لِلتِّجارَةِ ، أَوْ كانوا غُزاةً مُحاربينَ : لَوْ كانوا باقينَ عِنْدَنا ما ماتوا وَما قُتِلوا ، فَإِنَّ هَذا جَهْلٌ في الدِّينِ ، وَضَلالٌ عَنِ الحَقِّ ، فَإِنَّ الحَياةَ وَالمَوْتَ كِلاهُما بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَمِنَ الخَطَأ القَوْلُ بِأَنَّ الشَّخْصَ لَوْ كانَ في مَنْزِلِهِ أَوْ بَلَدِهِ ما ماتَ وَلا قُتِلَ ، لأَنَّ القُعودَ عَنِ الجِهادِ لا يَحْفَظُ الحَياةَ ، وَكَذا التَّعَرُّضُ لِقِتالِ الأَعْداءِ لا يَسْلُبُ الحَياةَ وَلا يُعَجِّلُ المَوْتَ .

إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى سَيَجْعَلُ الغَمَّ والحَسْرَةَ في قُلوبِهِمْ ، وَيُضَيِّقُ صُدورَهُمْ عُقوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ

هَذا الاعْتِقادِ الَّذي يَعْتَقِدونَهُ ، وَقَدْ رَدَّ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى قَوْلِهِمُ الباطِلِ بِما يَلي :

١ـ ﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إِنَّ الأَرْواحَ كُلَّها بِيَدِ اللهِ تَعالى يَقْبِضُها مَتى شاءَ ، وَيُرْسِلُها مَتى شاءَ ، فَإِنَّ القُعودَ في البُيوتِ ، لا يُطيلُ الآجالَ ، كَما أَنَّ الخُروجَ لِلْجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أَوْ لِلسَّعْيِ في طَلَبِ الرِّزْقِ لا يُنْقِصُها ، وَما دامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَعَلى العاقِلِ أَنْ يُسارِعَ إِلى الجِهادِ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَأَنْ يَسْعى في الأَرْضِ طَلَباً لِلرِّزْقِ الحَلالِ .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

٢ـ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ جاهَدْتُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَقُتِلْتُمْ ، أَوْ مُتُّمْ عَلى فِراشِكُمْ بَعْدَ أَنْ أَدَّيْتُمْ رِسالَتَكُمْ في الحَياةِ وَأَطَعْتُمُ اللهَ تَعالى فيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، سَتَنالونَ مَغْفِرَةً مِنَ اللهِ تَعالى لِذُنوبِكُمْ ، وَرَحْمَةَ اللهِ تَعالى الواسِعَةَ ، وَهذا خَيْرٌ لَكُمْ مِمّا يَجْمَعُهُ الكَفَرَةُ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا وَشَهَواتِها الزّائِلَةِ ، لأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَمَغْفِرَتَهُ باقِيَتانِ تَنْفَعانِ الإِنْسانَ في دُنْياهُ وَآخِرَتِهِ ، وَما يَجْمَعُهُ الإِنْسانُ مِنْ عَرَضِ الدنيا زائِلٌ ذاهِبٌ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ مَصيرَ العِبادِ إِلَيهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَحْدَهُ ، لَئِنْ مِتُّمْ وَأَنْتُمْ في بُيوتِكُمْ ، أَوْ قُتِلْتُمْ بِأَيْدي أَعْدائِكُمْ في المَعْرَكَةِ وَأَنْتُمْ تُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، عَلى كُلِّ الأَحْوالِ فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ وَمَصيرَكُمْ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، الَّذي تُحشَرونَ إِلَيْهِ ، وَسَيُجازيكُمْ عَلى أَعْمالِكُمْ .

إِنَّ الآياتِ الكَريمَةَ جاءَتْ تُحَذِّرُ المُؤْمِنينَ وَتَحُثُّهُمْ عَلى العَمَلِ وَالجِهادِ ، وَتَبُثُّ فيهِمْ روحَ التَّضْحِيَةِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ الشَّيْطانُ يَقِفُ لِلإِنْسانِ بِالمِرْصادِ ، يُوَسْوِسُ لَهُ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ ، فَعَلى الإِنْسانِ المُؤْمِنِ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِ الطَّريقَ ، وَلا يَلْتَفِتَ لِوَساوِسِهِ .

٢ـ الحَياةُ وَالمَوْتُ كِلاهُما بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَالقُعودُ عَنِ الجِهادِ لا يَحْفَظُ الحَياةَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِلْقِتالِ لا يُعَجِّلُ بِالمَوْتِ .

٣ـ الحَثُّ عَلى العَمَلِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَبَثُّ روحِ التَّضْحِيَةِ وَالجِهادِ ، لأَنَّ مَصيرَ الخَلائِقِ كُلِّهِمْ إِلى اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئِلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ لَقَدِ انْقَسَمَ المُسْلِمونَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ إلى فَريقَيْنِ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٢ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّالِيَةِ :

اسْتَزَلَّهُمْ ، غُزَّىً ، حَسْرَةً .

٣ـ ما الَّذي حَمَلَ بَعْضَ المُسْلِمينَ عَلى تَرْكِ أَماكِنِهِمْ في المَعْرَكَةِ ؟

٤ـ بِماذا جزَى اللهُ تَعالى هَذِهِ الفِئَةَ الَّتي تَوَلَّتْ في المَعْرَكَةِ ؟

٥ـ لَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ أَنْ يَكونوا مِثْلَ الكافِرينَ ، ما الَّذي كانَ مِنَ الكافِرينَ ؟

٦ـ ما الجَزاءُ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ تَعالى لأولئِكَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ؟

٧ـ بِماذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلى ادّعاءِ الكافِرينَ : ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُوا﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ زَعيمِ المُنافِقينَ وَماذا كانَ مَوْقِفُهُ يَوْمَ أُحُدٍ .

* * *

الدَّرسُ الخامسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ والثَّلاثُونَ

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لِنْتَ : اللِّينُ : الرِّفْقُ وَالتَّساهُلُ في المُعامَلَةِ .

فَظّاً : سَيِّءَ الخُلُقِ .

غَليظَ القَلْبِ : قاسياً جافياً .

لانفَضُّوا : لَتفرَّقوا مِنْ حَوْلِكَ .

تَوَكَّلْ : اعْتَمِدْ على اللهِ تَعالى .

يَغُلَّ : يَأْخُذْ مِنَ الغَنيمَةِ خِفْيَةً قَبْلَ تَقْسيمِها .

التَّفسيرُ :

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَآثارِها ، فَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ عَفا عَمَّا بَدَرَ مِنَ المُسْلِمينَ في هَذا اليَوْمِ ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحَدَّثَ عَنْ عَفْوِ الرَّسولِ ﷺ عَنْ هؤُلاءِ ، وَتَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ صِفاتِ الرَّسولِ ﷺ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

فَبِسَبَبِ رَحْمَةٍ عَظيمَةٍ فَيّاضَةٍ مَنَحكَ اللهُ إيّاها يا مُحَمَّدُ ، كُنْتَ لَيِّناً مَعَ أَتْباعِكَ في جَميعِ أَوْقاتِكَ وَأَحْوالِكَ ، فَقَدْ كُنْتَ مَعَهُمْ قائِداً حَكيماً ، اسْتَشَرْتَهُمْ أَوَّلاً في الخُروجِ لِمُلاقاةِ عَدُوِّهِمْ ، وَأَحْسَنْتَ تَرْتيبَ صُفوفِهِمْ ، ثُمَّ كانَ مِنْهُمْ ما كانَ مِنْ مُخالَفَةٍ لأَوامِرِكَ حَيْثُ تَركوا أَماكِنَهُمْ عَلى الجَبَلِ أَمَلاً في جَمْعِ الغَنائِمِ ، فَلَمْ تُعَنِّفْهُمْ عَلى ما وَقَعَ مِنْهُمْ ، وَأَنْتَ تَراهُمْ قَدِ اسْتَغْرَقَهُمُ الحُزْنُ ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ مَعَهُمْ رَفيقاً لَيِّناً ، وَلَوْ كُنْتَ يا مُحَمَّدُ فَظّاً غَليظاً سَيِّءَ الخُلُقِ ، جافِياً قاسِياً في أَقْوالِكَ وَأَفْعالِكَ ، لا تَتَأَثَّرُ لِما يُصيبُ أَصْحابَكَ لَتَفَرَّقوا عَنْكَ وَنَفَروا مِنْكَ ، وَلَكِنْ لأَنَّكَ لَيِّنَ القَلْبِ رَحيمٌ بِهِمْ تَجِدُ أَصْحابَكَ قَدْ الْتَفُّوا حَوْلَكَ يَفْتَدونَكَ بِأَرْواحِهِمْ . وَيُحِبّونَكَ حُبّاً يَفوقُ حُبَّهُمْ لأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَآبائِهِمْ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِما يَتَرَتَّبُ عَلى صِفَةِ الرَّحْمَةِ فَقالَ لَهُ : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لَقَدْ أَمَرَ النَّبيَّ ﷺ تِجاهَ أَصْحابِهِ بِعِدَّةِ أُمورٍ :

١ ـ ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ : فَإِذا كُنْتَ يا مُحَمَّدُ لَيِّنَ الجانِبِ مَعَ أَصْحابِكَ ، رَحيماً بِهِمْ ، فَيَنْبَغي ـ إِذَنْ ـ أَنْ تَعْفوَ عَنْهُمْ فيما وَقَعوا فيهِ مِنْ أَخْطاءٍ وَمُخالَفاتٍ أَدَّتْ إِلى ما حَصَلَ يَوْمَ أُحُدٍ .

٢ ـ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وَعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ أَنْ تَتَوجَّهَ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لِتُذْهِبَ عَنْهُمْ هَمّاً كَبيراً ، وَتُشَجِّعَهُمْ عَلى الطّاعَةِ وَالاسْتِجابَةِ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى وَأَوامِرِكَ .

٣ ـ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ وَأَمَرَ النَّبيَّ ﷺ أَنْ يُشاوِرَهُمْ في أَمْرِ الحَرْبِ وَغَيْرِهِ ، مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَشيروا أَهْلَ العِلْمِ وَالدّينِ . وَالمُشاوَرَةُ لا تَكونُ إِلاَّ فيما لا نَصَّ فيهِ ، أَيْ : الأُمورُ الَّتي لَمْ يَرِدْ حُكْمُها في كِتابِ اللهِ وَلا في سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ هِيَ الَّتي تَكونُ الاسْتِشارَةُ فيها .

وَإِذا شاوَرَ القائِدُ أَصْحابَهُ عَلى شَيْءٍ ، وَتَمَّتْ هذِهِ المَشورَةُ عَلى أَحْسَنِ الوُجوهِ ، وَاسْتَقَرّوا عَلى رَأْيٍ مُعَيَّنٍ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُمْضِيَ ما اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَيْهِ دونَ تَرَدُّدٍ أَوْ تَخاذُلٍ ،

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذا عَقَدْتَ نِيَّتَكَ عَلى أَمْرٍ بَعْدَ أَنْ شاوَرْتَ أَصْحابَكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تُنَفِّذَ ما عَزَمْتَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ تَعْتَمِدَ في الوُصولِ إِلى غايَتِكَ عَلى اللهِ تَعالى ، فَإِنَّ المُؤْمِنَ لا يَتَوَكَّلُ وَلا يَعْتَمِدُ إِلاَّ عَلى اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لا عَلى القُوَّةِ المادِّيَّةِ ، فَإِنَّ هذِهِ كُلَّها لا تُغْني عَنِ اللهِ تَعالى ، وَالعاقِلُ مَنِ اتَّخَذَ الأَسْبابَ فَدَرَّبَ الجُنْدَ ، وَجَهَّزَ الأَسْلِحَةَ وَغَيْرَها ، وَكانَ فَوْقَ ذلِكَ مُعْتَمِداً مُتَوَكِّلاً

عَلى اللهِ تَعالى ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلى قُوَّتِهِ وَحْدَها فإنَّ نَتيجَتَهُ الفَشلُ وَالخُذْلانُ .

ويُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتعالى عَلى وُجوبِ التَّوكُّلِ عَلَيْهِ فَيَقولُ :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى ـ أيُّها المُؤْمِنونَ ـ إنْ يُرِدْ أنْ يَنْصُرَكُمْ كما نَصَرَكُمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، فَلَنْ يَقْهَرَكُمْ ، وَلَنْ يَهْزِمَكُمْ أحَدٌ ، وَمَنْ كانَ اللهُ مَعَهُ فَلَنْ يَغْلِبَهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالى .

وَإنَّهُ سُبْحانَهُ إنْ يُرِدْ أنْ يَخْذلَكُمْ بِأنْ يَمْنَعَكُمْ عَوْنَهُ وَنَصْرَهُ ، كَما حَدَثَ لَكُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، فلَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ مَهْما كانَتْ قُوَّتُهُ أَنْ يَجْلِبَ لَكُمْ النَّصْرَ . وَالاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ (فَمَنْ) إنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَي لا أَحَدَ يَسْتَطيعُ نَصْرَكُمْ إنْ أَرادَ اللهُ تعالى خِذْلانَكُمْ .

وَتُخْتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أيْ عَلى اللهِ وَحْدَهُ لا عَلى أَحَدٍ سِواهُ ، وَلِذا فَقَدْ قَدَّمَ اللهُ تَعالى الجارَّ وَالمَجْرورَ لِيُفيدَ الاخْتِصاصَ ؛ أيْ : أَنْ نَخُصَّ اللهَ وَحْدَهُ بِالتَّوَكُّلِ وَ لاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، لأَنَّ مَنْ اعْتَمَدَ عَلى قُوَّةٍ سِوى قُوَّةِ اللهِ تَعالى، فَلَنْ يَصِلَ إلى النَّتيجَةِ وَالعاقِبَةِ الطَّيِّبَةِ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُنَزِّهَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الغُلولِ ، وَتُنَزِّهَ الأَنْبِياءَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ كَذَلِكَ ، إذْ لا يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أُولَئِكَ الَّذينَ يَغُلُّونَ ، وَالغُلولُ : هُوَ الأَخْذُ مِنَ الغَنيمَةِ الَّتي يَغْنَمُها المُسْلِمونَ مِنَ المَعْرَكَةِ خِفْيَةً ، قَبْلَ تَقْسيمِها بَيْنَ الجنودِ .

إنَّ مَنْ يَغُلُّ مِنَ الغَنيمَةِ ، يَأْتِ بِما غَلَّ حامِلاً لَهُ عَلى ظَهْرِهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، مُعَذَّباً بِحِمْلِهِ وَثِقْلِهِ وَمُوبَّخاً بِإِظْهارِ خِيانَتِهِ أَمامَ الخَلائِقِ كُلِّها ، وَلا شَكَّ أَنَّ في هَذا فَضيحَةً وَخِزْياً لَهُ .

ثُمَّ تُعْطى كُلُّ نَفْسٍ جَزاءَ مَا عَمِلَتْ وافِياً غَيْرَ مَنْقوصٍ ، وَهُمْ لا يُظْلَمونَ ؛ أَيْ : لا يُنْقَصُ مِنْ أُجورِهِمْ أَوْ يُزادُ في عِقابِهِمْ ، بَلْ يَأْخُذُ كُلُّ واحِدٍ جَزاءَ عَمَلِهِ كامِلاً دونَ نَقْصٍ أَوْ زِيادَةٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ الحَكيمُ هُوَ الَّذي يَكونُ رَحيماً رَفيقاً لَيِّناً مَعَ أَصْحابِهِ ، وَلا يَكونُ فَظّاً قاسِياً مَعَهُمْ .

٢ـ القائِدُ الحَكيمُ هُوَ الَّذي يَسْتَشيرُ أَصْحابَهُ في جَميعِ أُمورِهِمْ وَقَضاياهُمْ .

٣ـ وُجوبُ التَوَكُّلِ والاعْتِمادِ عَلى اللهِ تَعالى لا عَلى قُوَّةٍ أُخْرى غَيْرِهِ سُبْحانَهُ .

٤ـ عَدَمُ خِيانَةِ الأَمانَةِ ، وَيَدْخُلُ فيها الغَنيمَةُ ، إِذْ لا يَحِلُّ غُلولُها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّالِيَةِ :

لِنْتَ ، فَظّاً ، غَليظَ القَلْبِ ، انْفَضُّوا ، غَلَّ .

٢ـ ما الصِّفاتُ الَّتي أَكْرَمَ اللهُ بِها النَّبِيَّ ﷺ ؟

٣ـ ما أَثَرُ الغِلْظَةِ وَسوءِ الخُلُقِ عَلى الأَتْباعِ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِدَليلٍ .

٤ـ لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ تجاهَ أَصْحابِهِ بِأُمورٍ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً .

٥ـ ما الواجِبُ عَلى القائِدِ إِذا اسْتَشارَ أَصْحابَهُ وَاسْتَقَرُّوا عَلى رَأْيٍ مُعَيَّنٍ ؟

٦ـ قارِنْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلى اللهِ تَعالى ، وَمَنْ يَعْتَمِدُ عَلى قُوَّتِهِ وَحْدَها .

٧ـ ما المَقْصودُ بِالغُلولِ الَّذي نَهَتْ عَنْهُ الآياتُ ؟

٨ـ ما الجَزاءُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِمَنْ يَغُلُّ الغَنيمَةَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفترِكَ آخرَ آيَتَيْنِ مِنْ سورةِ التَّوْبَةِ ، وَبَيِّنْ صِفاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةً تَدُلُّ عَلى الإِعْدادِ وَالتَّجْهيزِ لِقِتالِ المُشْرِكينَ .

٣ـ فَرِّقْ بَيْنَ التَوَكُّلِ وَالتَّواكُلِ ، واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .



عنْ أبي هُرَيرَةَ قالَ : قامَ فينا رَسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوْم ، فذكرَ الغُلولَ فعظَّمَهُ وعظَّمَ أمْرَهُ ، ثُمَّ قالَ : لا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يجيءُ يوْمَ القيامةِ على رَقبَتِهِ بعيرٌ لهُ رُغاءٌ يقولُ : يا رَسولَ اللهِ أغثْني ، فأقولُ : لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئا ، قدْ أبْلغْتُكَ ، ولا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يجيءُ يوْمَ القيامةِ على فرَسٍ لَهُ حَمْحَمَةٌ فيَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أغثْني ، فأقولُ : لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئاً قدْ أبْلغْتُك ، لا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يَجيءُ يوْمَ القيامَةِ على رَقبَتِهِ شاةٌ لها ثُغاءٌ يقولُ : يا رَسولَ اللهِ أغثْني ، فأقولُ : لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئاً قدْ أبْلغْتُكَ ، لا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يجيءُ يوْمَ القيامَةِ على رَقبَتِهِ نَفْسٌ لَها صياحٌ ، فيَقولُ يا رَسولَ اللهِ أغثْني ، فأقولُ : لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئاً قدْ أبْلغْتُك ، لا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يَجيءُ يوْمَ القيامةِ على رَقبتِهِ رقاعٌ تَخْفقُ أيْ: ثِيابٌ فيَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أغثْني فأقولُ: لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئا قدْ أبْلغْتُكَ ، لا ألْفيَنَّ أحدَكُمْ يجيءُ يوْمَ القيامَةِ على رقبتِهِ صامتٌ أيْ ذهَبٌ وفِضَّةٌ - فيَقولُ يا رَسولَ اللهِ أغثْني ، فأقولُ : لا أمْلكُ لكَ منَ اللهِ شيْئاً قدْ أبْلغْتُك »[١] .

* * *

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ، باب : غلظ تحريم الغلول ، حديث رقم ١٨٣١ .

الدَّرْسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السَّادِسُ وَالثَّلاثونَ

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

باءَ بسَخَطٍ : رَجَعَ مُتَلَبِّساً بِغَضَبٍ شَديدٍ .

مَأْواهُ : مَكانُهُ الَّذي يَأْوي إِلَيْهِ .

يُزَكِّيهِمْ : يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الأَدْناسِ .

أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ : هِيَ مَقْتَلُ سَبْعينَ مِنَ المُسْلِمينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ .

أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها : في غَزْوَةِ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ سَبعينَ وَأَسَرْتُمْ سَبعينَ ، وَقَتَلْتُمْ سَبعينَ أَيْضاً في أُحُدٍ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ اللهَ تَعالى هُوَ العَدْلُ الحَكَمُ ، فَلَيْسَ في أَفْعالِهِ ظُلْمٌ وَلا جَوْرٌ على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا تُؤَكِّدُ هَذا العَدْلَ ، وَتَنْفي الظُّلْمَ عَنِ اللهِ سُبْحانَهُ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

أَيُمكِنُ أَنْ يكونَ مَنْ واظبَ عَلى فِعْلِ ما يُرْضي اللهَ تَعالى والْتَزَمَ بِطاعَتِهِ ، وَتَرَكَ كُلَّ مَا نَهى اللهُ

تَعالى عَنْهُ مِنْ غُلولٍ وَغَيْرِهِ ، أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِثْلَ مَنْ رَجَعَ بِغَضَبٍ عَظيمٍ مِنَ اللهِ تَعالى بِسَبَبِ عَدَمِ امْتِثالِهِ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وبِسَبَبِ غُلولِهِ وَخيانَتِهِ .

والاسْتِفهام في قَوْلِهِ ﴿أَفَمَنِ﴾ إنْكاريٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَيْ لا يَسْتوي مَنِ اتَّبَعَ رُضوانَ اللهِ مَعَ مَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ تَعالى .

إنَّ أَيَّ عاقِلٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُساوي بَيْنَ المُحْسِنِ والمُسيءِ ، إنَّ هَذا المُسيءَ الَّذي رَجَعَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ تَعالى وَغَضَبٍ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِ أَوْ فُسوقِهِ أَوْ خِيانَتِهِ ، مَأْواهُ وَمَصيرُهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ هَذا المَصيرُ الَّذي يَنْتَهي إِلَيْهِ هَذا الإِنْسانُ .

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

إنَّ عَدَمَ تَساوي المُحْسِنِ وَالمُسيءِ ، يَسْتَلْزِمُ مِنْهُ أَنْ يَكونوا مُتَفاوِتينَ في الثَّوابِ وَالعِقابِ عَلى حَسَبِ أَعْمالِهِمْ ، كَما تَتَفاوَتُ دَرَجاتُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ ، فالَّذينَ اتَّبعوا رِضوانَ اللهِ تَعالى يَتَفاوَتونَ في الثَّوابِ الَّذي يُثيبُهُمْ إِيّاهُ رَبُّهُمْ سُبْحانَهُ وَتعالى ، كُلٌّ حَسَبَ قُوَّةِ إيمانِهِ وَعَمَلِهِ الصّالِحِ ، وَكَذَلِكَ الَّذينَ باءُوا بِغَضَبٍ وَسَخَطٍ مِنَ اللهِ ، يَتَفاوَتونَ في العِقابِ الَّذي يُنْزِلُهُ اللهُ تَعالى بِهِمْ ، حَسَبَ ما اكْتَسَبوهُ مِنْ آثامٍ وَشُرورٍ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ عَلى أَعْمالِ العِبادِ ، صَغيرِها وَكَبيرِها ، ظاهِرِها وَخَفِيِّها ، لا يَغيبُ عَنْهُ شَيءٌ ، وَسَيُجازي كُلَّ إِنْسانٍ بِما يَسْتَحِقُّهُ حَسَبَ عَمَلِهِ .

وَقَدِ اسْتُعْمِلَتْ كَلِمَةُ الدَّرَجاتِ هُنا لِلفَريقَيْنِ لِلتَّغْليبِ ، مَعَ أَنَّ الدَّرجاتِ تَأْتي في القُرْآنِ غالِباً لِلْجَنَّةِ ، والدَّرَكاتِ لِلنّارِ ، وَلِذا قيلَ دَرَجاتُ الجَنَّةِ وَدَرَكاتُ النّارِ .

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وَرَحْمَتِهِ عَلى عِبادِهِ ، حَيْثُ بَعَثَ لَهُمْ رَسولاً مِنْهُمْ ، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ يَمُنُّ اللهُ بِها عَلى عِبادِهِ ، أَنْ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً عَظيمَ القَدْرِ ، مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَعْرِفونَ حَسَبَهُ وَنَسَبَهُ وَشَرَفَهُ وَعِفَّتَهُ وَأَمانَتَهُ ، فَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى وَهَبَهُ الرِّسالَةَ ، لِيُخْرِجَ النّاسَ جَميعاً عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ مِنْ ظُلماتِ الشِّرْكِ إِلى نورِ الإيمانِ .

وَقَدْ خَصَّ اللهُ تَعالى هَذِهِ المِنَّةَ وَالنِّعْمَةَ بِالمُؤْمِنينَ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الّذينَ انْتَفَعوا بِنِعْمَةِ الإِسْلامِ ، فَآمَنوا بِهِ ، وَالْتَزَموا بِأَحْكامِهِ ، وابْتَعَدوا عَنْ نَواهيهِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ هَذِهِ المِنَّةِ وَالفَضْلِ بِبِعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ، أَنَّ هَذا الرَّسولَ الكَريمَ :

١ـ يَتلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ : وَالتِّلاوَةُ هِيَ القِراءَةُ ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الآياتِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِ لِهِدايَةِ النّاسِ .

٢ـ وَيُزَكِّيهِمْ : أيْ يُطَهِّرُهُمْ مِن الْكُفْرِ وَالذُّنوب ، وَذلكَ بِدَعْوَتِهِمْ إلى التَّمسُّك بالْعَقيدة الصَّحيحةِ ، وَالتَّحَلِّي بالأخْلاقِ الحَسنة وتَرْك الرَّذائل السَّيِّئة .

٣ـ وَيُعلِّمُهُمْ الكتاب : أيْ يُبيِّنُ لَهُمْ الأُمورَ الأَساسيّة الّتي نزَل القُرآنُ لأجْلِها ، فَيُبيِّنُ لَهُمْ أحْكام القُرْآنِ ، وَيُفسِّرُ لَهُمْ ما خفِيَ عَنْهُمْ مِنَ الألْفاظ .

٤ـ وَيُعلِّمُهُمْ الحِكْمَة : وَالحِكْمةُ هِيَ السُّنَّةُ ـ كما يَقولُ الْعُلماءُ ـ والسُّنَّةُ تَشْتَمِلُ على بيانٍ وَتَفْسير لِلقُرْآنِ الكَريم وتَعْليم النَّاس أُمور دينهمْ ، وتَشْتَمِلُ على تشريعاتٍ وأَحْكام ، مِنْ تحْليل وَتحْريم ، فَهُو علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَنْطِقُ عنِ الهوى إنْ هُو إلا وحْيٌ يُوحى .

هذِهِ هِيَ حالُ النَّاسِ بعْد مبْعث الرّسول ﷺ ، وَلَكِنْ : كَيْفَ كانَ حالُهُمْ قَبْلَ مَبْعثِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ تُجيبُ الآياتُ القرْآنيَّةُ عنْ ذلك بقوْلِهِ تعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لَقَدْ كانوا قبْل بعْثته عَليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في ضَلالٍ واضِح ، لا يخْفى على مَنْ عِنْدهُ عقْلٌ سَليمٌ ، فقَدْ كانوا يُشْرِكون معَ اللهِ آلِهَة أُخرى ، يصْنعونها بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الحِجارَة أَوْ التَّمْرِ ، وَيَعْبُدونَها وَهذا هُو ضَلالٌ في نَفْسِهِ ، فَالصَّانِعُ أَكْرمُ مِنَ المَصنوعِ ، وَمعَ ذلكَ يَقومون بِعِبادَتِها .

لَقَدْ كانَ مِنْ رحْمَةِ اللهِ تعالى بالنَّاس أنْ أَرْسلَ فيهِمْ مُحمّداً ﷺ ، حَتَّى يُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّور .

وَلا زالَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ غزْوة أُحُدٍ وَآثارها ، فَها هُو سُبْحانَهُ وَتعالى يُذكِّرُ عِبادَهُ المُسْلِمينَ بما حَصَل فيقولُ :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ نَتائِجِ غَزْوَةِ أُحُدٍ أَنَّها كَشَفَتْ عنْ صاحِبِ الإيمانِ القَوِيِّ ، وَصاحِبِ الإيمانِ الضَّعيف ، فَميَّزَتْ بَيْنَ الخَبيثِ وَالطَّيِّبِ ، وَذلكَ أنَّ كثيراً مِنَ المُنافِقين دَخلوا في الإسْلام طَمعاً في الغنائِم ، بعْدَ أَنْ وجَدوا أنَّ المُسْلِمينَ قدِ انْتَصروا في معْرَكَةِ بَدْر ، وَلكنَّ عدمَ انْتِصارِ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُد ، أَظْهر هؤُلاءِ المُنافقين على حقيقَتِهِمْ ، وَعَرَّفَ المُسْلمين بِهِمْ .

وَالاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ : ﴿أَوَلمّا﴾ إنْكاريٌّ تَعَجُّبيٌّ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوبِّخُهُمْ عَلى ما كانَ مِنْهُمْ ، فَهُمْ قَتلوا مِنَ المُشْرِكين في بَدْر سَبْعين رَجُلاً ، وَأَسروا سَبْعينَ رَجُلاً ، وَقَدْ كانَ لَهُمْ النَّصْرُ في بِدايَةِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، فَقتلوا مِنَ المُشْرِكينَ حوالي عِشْرينَ رَجُلاً ، وَلكِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ خالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ وَأَغْرَتْهُمْ الغنائِمْ فتَركوا أَماكِنَهُمْ عَلى الجَبلِ ، فَقتلَ مِنْهُمُ المُشْرِكونَ سَبْعينَ رَجُلاً .

وَبَعْدَ أَنْ أَصابَهُمَ ما أَصابَهُمْ قالوا : ﴿أَنّى هَـٰذا﴾ أي : كَيْفَ حَصَلَ لَنا هَذا القَتْلُ ، والخِذْلانُ ،

وَنحنُ نُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ ؟ فيقولُ لَهُمْ سُبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ فَهُوَ سُبحانهُ يُوَبِّخُهُمْ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يُحْسِنوا التَّصَرُّفَ في المَعْرَكَةِ ، فَهذا هُوَ السَّبَبُ الحقيقيُّ لِهَزيمَةِ المُسلمين ؛ إنكُمْ أَنتُمْ سَبَبُ هذِهِ الهَزيمَةِ ، حَيثُ أشارَ عليكُمْ الرَسولُ ﷺ قبلَ المعْرَكَةِ بالبَقاءِ في المَدينةِ ، ولكِنَّكُمْ أَبَيْتُمْ إلاّ لِخُروجِ خارجَ المدينةِ ، وقدْ أَمَرَكُمْ الرسولُ ﷺ بالمُكوث في أماكِنِكُمْ على الجبلِ ، ولكِنَّكُم خالَفْتُمْ أَمْرَهُ وَنزَلْتُمْ عَنِ الجَبلِ فكانَ ما كان .

وَخَتمَ اللهُ سُبحانَهُ الآيَةَ الكَريمةَ بقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبحانَهُ القَديرُ على نصرِكُمْ وَخِذْلانِكُمْ ، وَقُدْرَتُهُ تَعالى لَيسَ فَوْقها شيءٌ ، وقدْ مَنَعَكُمْ النَّصرَ سُبحانَهُ وَتعالى حتّى تَتّعِظوا وتَعْتَبِروا .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرة ، منْها :

١ـ المُحْسِنُ الَّذي اتَّبعَ رُضوانَ اللهِ تَعالى ، لا يُمكِنُ أنْ يَتَساوى مع المُسيءِ الَّذي يرْجِعُ بِغَضَبٍ وَسَخَطٍ مِنَ اللهِ تعالى بِسَبَبِ كُفْرِهِ وفِسْقِهِ .

٢ـ المُؤْمِنونَ وَالكافِرون ، مُتَفاوِتون في درجاتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تعالى مِنْ حَيْثُ الثَّوابُ والعِقابُ ، فَالجَنَّةُ دَرَجاتٌ مُتفاوِتَةٌ ، وَالنَّارُ كَذلِكَ دَرَكاتٌ مُتفاوِتَةٌ

٣ـ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى الخَلْقِ بَعْثَةُ الرَّسولِ ﷺ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمْ آياتِ اللهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتابَ والحِكْمَةَ .

٤ـ الأَيّامُ سِجالٌ بَيْنَ النَّاسِ ؛ يومٌ لَهُمْ ويومٌ عليْهِمْ ، يومٌ نَصْرٍ ، وَيومٌ هَزيمةٍ ، وَلَكِنَّ العاقِبَةَ لِلمُتَّقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئِلةِ التّالِيةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿أَفَمَنِ﴾ ؟

٢ـ قَارِنْ بَيْنَ المُحْسِنِ وَالمُسيءِ مِنْ حيثُ أَعْمالِهِمْ وَمِنْ حَيْثُ جَزاؤُهُمْ في الآخِرَةِ .

٣ـ لِماذا اسْتُعْمِلَتْ كَلِمَةُ (الدَّرَجاتِ) لِفَريقي الجَنَّةِ وَالنّارِ في الآيَةِ (١٦٣) ؟

٤ـ لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ على المُؤْمِنينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ ، ذَكَرَتْها الآياتُ ، ما هِيَ ؟

٥ـ ما صِفاتُ الرَّسولِ ﷺ الَّتي ذَكَرَتْها الآياتُ ؟

٦ـ كَيْفَ كانَ حالُ النَّاسِ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ؟

٧ـ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ بَعْضِ نَتائِجِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، ما هِيَ ؟

٨ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَوَلَمَّا﴾ وما الَّذي أَنْكَرَهُ سُبْحانَهُ عَلى المُؤْمِنينَ هُنا ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ السَّجْدَةِ الَّتي تَدُلُّ عَلى المَعْنى الوارِدِ في الآيَةِ (١٦٢) .

٢ـ هاتِ مِثالاً تُبَيِّنُ فيهِ تَفْسيرَ الرَّسولِ ﷺ لِكَلِماتٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ بَيِّنْ ضَلالَ المُشْرِكينَ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنَ النَّواحي الأَخْلاقِيَّةِ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ السّابعُ والثّلاثونَ

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الجَمْعانِ : جَمْعُ المُؤْمِنينَ وَجَمْعُ الكافِرينَ .

ادْرَأُوا : ادْفَعوا .

يَسْتَبْشِرونَ : يَفْرَحونَ .

التَّفسيرُ :

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَما أَصابَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمِنينَ :

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ .

إِنَّ ما أَصابَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ قَتْلٍ وَجِراحٍ يَوْمَ الْتَقى جَمْعُكُمْ بِجَمْعِ الكافِرينَ إِنَّما بِإِذْنِ اللهِ

تعالى، أيْ : بإرادَتِهِ وَعِلْمِهِ ، لأنَّ كُلَّ ما يَحْدُثُ في هَذا الكَوْنِ إنَّما هُوَ بِإرادَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ ، وَلِذا عَلى المُسْلِمِ أنْ يَرْضى بِما يَكونُ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَيُسَلِّمُ أمْرَهُ للهِ ، فَما حَدَثَ كانَ بِإرادَةِ اللهِ لِيَعْلَمَ المُؤْمِنينَ ، أيْ : يَتَميَّزُ المُؤْمِنُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ فَيُعَرِّفُهُمْ لِلْمُؤْمِنينَ مَعْرِفَةً تامَّةً .

وَقَدْ قُلْنا مِنْ قَبْلُ ، إنَّ نَصْرَ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، جَعَلَ الكَثيرينَ يَتَظاهَرونَ بِاعْتِناقِ الإسْلامِ وَلَكِنَّ عَدَمَ نَصْرِ المُسْلِمينَ في أُحُدٍ ، كَشَفَ عَنْ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ ، وَأظْهَرَهُمْ عَلى حَقيقَتِهِمْ .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ قَدْ قالَ لَهُمُ المُسْلِمونَ تَعالَوْا قاتِلوا مَعَنا في سَبيلِ اللهِ ، وَعَلى الأقَلِّ انْضَمُّوا إلى صُفوفِ المُقاتِلينَ لِتُكْثِروا مِنْ عَدَدِهِمْ فَيَخافُهُمْ عَدُوُّهُمْ ، وَإنْ لَمْ تُقاتِلوا طَلَباً لِمَرْضاةِ اللهِ تَعالى ، فَقاتِلوا دِفاعاً عَنْ أنْفُسِكُمْ وَوَطَنِكُمْ ، وَلَكِنْ بِماذا أجابَ هَؤُلاءِ المُنافِقونَ ؟ لَقَدْ قالوا لِلْمُسْلِمينَ : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ﴾ أيْ : لَوْ نَعْلَمُ أنَّكُمْ تُقاتِلونَ حَقّاً ، لَذَهَبْنا مَعَكُمْ ، وَاتَّبَعْناكُمْ ، وَلَكِنَّنا لَمْ نَفْعَلْ ، وَذَلِكَ لأنَّ خُروجَكُمْ راجِعٌ إلى خَطَأٍ في رَأْيِكُمْ ، فَقَدْ كانَ رَأْيُ المُنافِقينَ أنْ يَظَلّوا في المَدينَةِ ، وَلا يَخْرُجوا خَوْفاً مِنَ القِتالِ .

قالَ ابْنُ جَريرٍ : خَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى أُحُدٍ في ألْفِ رَجُلٍ مِنْ أصْحابِهِ ، حَتَّى إذا كانوا بِالشَّوْطِ بَيْنَ أُحُدٍ وَالمَدينَةِ ، انْخَذَلَ عَنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بنُ سَلولٍ بِثُلُثِ النَّاسِ ، وَقالَ : أطاعَهُمْ ، أيْ : الرَّسولُ ﷺ فَخَرَجَ وَعَصاني ، وَاللهِ ما نَدْري عَلامَ نَقْتُلُ أنْفُسَنا هاهُنا أيُّها النَّاسُ ، فَرَجَعَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَوْمِهِ أهْلِ النِّفاقِ وَالرَّيْبِ ، فاتَّبَعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرامٍ ـ أخو بَني سَلَمَةَ ـ يَقولُ لَهُمْ : يا قَوْمُ أُذَكِّرُكُمُ اللهَ أنْ لا تَخْذُلوا نَبِيَّكُمْ وَقَوْمَكُمْ ، فَقالوا : لَوْ نَعْلَمُ أنَّكُمْ تُقاتِلونَ ما أسْلَمْناكُمْ ، وَلَكِنَّنا لا نَرى أنْ يَكونَ قِتالٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ ، وَأبَوْا إلاَّ الانْصِرافَ عَنِ المُؤْمِنينَ ، قالَ لَهُمْ أبْعَدَكُمُ اللهُ يا أعْداءَ اللهِ ، فَسَيُغْني اللهُ رَسولَهُ عَنْكُمْ ، ثُمَّ مَضى مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ .

وَلِمَوْقِفِ المُنافِقينَ هَذا يَقولُ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ فَهُمْ بَعْدَ أنْ قالوا ما قالوا فَهُمْ أقْرَبُ لأهْلِ الكُفْرِ مِنْهُمْ لأهْلِ الإيمانِ ، لأنَّهُمْ يَقولونَ بِألْسِنَتِهِمْ قَوْلاً يُخالِفُ ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلوبُهُمْ مِنْ كُفْرٍ ، وَقَدْ ذَكَرَ الأفْواهَ مَعَ القُلوبِ تَصْويراً لِنِفاقِهِمْ ، فَإيمانُهُمْ مَوْجودٌ في أفْواهِهِمْ مَعْدومٌ مِنْ قُلوبِهِمْ ، بِخِلافِ صِفَةِ المُؤْمِنينَ في مُوافَقَةِ ما في قُلوبِهِمْ لِما يَقولونَ وَيَنْطِقونَ ، أمَّا المُنافِقونَ فَإنَّ ما يُضْمِرونَ وَما يُظْهِرونَ مِنْ كُفْرٍ ، وَمِنْ كَراهِيَةٍ لِدينِ اللهِ تَعالى فَهُوَ يَعْلَمُ ما يُخْفونَهُ وَما يُظْهِرونَهُ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَذْكُرَ لَنا لَوْناً آخَرَ مِنْ أكاذيبِ المُنافقينَ .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ ، يَقولونَ لإخْوانِهِمْ الَّذينَ هُمْ مِثْلُهُمْ في النِّفاقِ ، وَقَدْ قَعَدوا عَنِ القِتالِ : لَوْ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اسْتَشْهَدوا في مَعْرَكَةِ أُحُدِ أَطاعونا وَ ظَلُّوا في المَدينَةِ ، وَلَمْ يَخْرُجوا لِلْقِتالِ ، مَا أَصابَهُمُ القَتْلُ ، وَلَكِنَّهُمْ خالَفونا فَكانَ مَصيرُهُمُ القَتْلَ ، هَذا القَوْلُ يَدُلُّ على خُبْثِهِمْ وجَهْلِهِمْ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَإِرادَتِهِ ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ ـ مُوَبِّخاً لَهُمْ ـ إِذا كُنْتُمْ ـ كَما تَدَّعونَ ـ قَدْ دَفَعْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ القَتْلَ بِقُعودِكُمْ في بُيوتِكُمْ وَعَدَمِ خُروجِكُمْ لِلْقِتالِ ، فَادْفَعوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ الَّذي كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكُمْ أَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في أُحُدٍ لَوْ أَطاعوكُمْ ما قُتِلوا وما ماتوا ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوتَ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ هَؤُلاءِ الشُّهَداءِ ، الَّذينَ اسْتَشْهَدوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَما أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ مِنْ نَعيمٍ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أَيْ لا تَظُنَّ أَيُّها الرَّسولُ ، وَأَيُّها المُؤْمِنونَ أَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ تعالى ، وَمِنْ أَجْلِ إِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى لا تَظُنَّهُمْ أَمْواتاً ، وَلَكِنَّهُمْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ وَيَتَنَعَّمونَ بِأَلْوانِ النِّعَمِ ، وَذَلِكَ لِما كانَ مِنْهُمْ مِنْ بَذْلِ أَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَمَعْنى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : خَصَّهُمْ اللهُ بِالمَنازِلِ الرَّفيعَةِ وَالدَّرَجاتِ العالِيَةِ .

أَخْرَجَ أَبو دَاوُدَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : لَمَّا أُصيبَ إِخْوانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْواحَهُمْ في أَجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهارَ الجَنَّةِ تَأْكُلُ ثِمارَها ، وَتَأْوي إِلى قَناديلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ في ظِلِّ العَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقيلِهِمْ قالوا : مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوانَنا عَنَّا أَنَّنا أَحْياءٌ في الجَنَّةِ نُرْزَقُ ، لِئَلاَّ يَزْهَدوا في الجِهادِ ، وَلا يُنَكِّلوا عِنْدَ الحَرْبِ ، فَقالَ اللهُ تَعالى : أَنا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، قالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآياتِ .

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ .

إِنَّ لِلْشُّهَداءِ مِزْيَةً تَجْعَلُهُمْ يَخْتَلِفونَ عَنْ بَقِيَّةِ المَوْتى ، فَهُمْ في نَعيمٍ وَحَياةٍ وَرِزْقٍ حَسَنٍ عِنْدَ

رَبِّهِمْ ، وَلَكِنْ كَيْفَ هِيَ هَذِهِ الحَياةُ ؟ هَذا ما لا يُمكِنُنا إدْراكُهُ ، لأَنَّها مِنْ شُؤونِ الغَيْبِ ، وَبَيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ ماهُمْ فيهِ مِنْ مَسَرَّةٍ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فَهُمْ فَرِحونَ فَرَحاً عَظيماً بِما أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى بَعْدَ انْتِقالِهِمْ مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا إلى الآخِرَةِ ؛ إنَّهُمْ في الحَياةِ الآخِرَةِ يَفْرَحونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ شَرَفِ الشَّهادَةِ ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ وَيُسَرُّونَ بِإخْوانِهِمْ وَرُفَقائِهِمُ الَّذينَ تَرَكوهُمْ خَلْفَهُمْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ يَنْتَظِرونَ الشَّهادَةَ ، إذْ هُمْ عِنْدَما يَموتونَ أَيْضاً شُهَداءُ مِثْلُهُمْ ، سَوْفَ يَنالُهُمْ رِضا اللهِ وَكَرامَتُهُ ، إنَّهُمْ يُسَرّونَ بِما تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حالِ الَّذينَ تَرَكوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ في الدُّنْيا مِنْ رُفَقائِهِمُ المُجاهِدينَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ في مُسْتَقْبَلِهِمْ ، وَهُمْ لا يَحْزَنونَ عَلى ما تَرَكوهُ في الدنْيا ، فَهُمْ سَيَكونونَ آمِنينَ مُطْمَئِنّينَ .

﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ .

وَكَما أَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرونَ وَيُسَرّونَ بِحالِ إخْوانِهِمُ الَّذينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ ، فَهُمْ كَذَلِكَ يَسْتَبْشِرونَ بِسَبَبِ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ عَظيمَةٍ ، وَمِنْ مَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ ؛ إنَّهُمْ يَهْتَمّونَ بِأَحْوالِ إخْوانِهِمْ كَما يَهْتَمّونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُحِبّونَ الخَيْرَ لإخْوانِهِمْ كَما يُحِبّونَهُ لأَنْفُسِهِمْ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يُكْرِمَنا بِالشَّهادَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

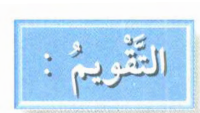
تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُنافِقونَ فِئَةٌ مُنْبَثَّةٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ؛ لِذا فَقَدْ بَيَّنَ القُرْآنُ الكَريمُ لَنا صِفاتِهِمْ ، لِنَحْذَرَهُمْ .

٢ـ طاعَةُ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ في كُلِّ أَمْرٍ أَساسُ الإيمانِ .

٣ـ لا تَصْلُحُ حَياةُ الأُمَمِ إلاّ بِقِتالِ المُعْتَدينَ الضّالّينَ وَجِهادِهِمْ ، لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ تَعالى هِيَ العُلْيا .

٤ـ الشَّهيدُ لَهُ مَكانَتُهُ العَظيمَةُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ يَحْيا حَياةً دائِمَةً لا يُدْرِكُ كُنْهَها إلاّ اللهُ تَعالى .



التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ ؟

٢ـ إلامَ دَعا المُسْلِمونَ المُنافِقينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟

٣ـ بِماذا أَجابَ المُنافِقونَ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ عَبْدِ اللهِ بنْ أُبيِّ بن سَلولٍ وَأَصْحابِهِ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟

٥ـ هَلِ المُنافِقونَ مُؤْمِنونَ أَمْ كافِرونَ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٦ـ ما الَّذي قالَهُ المُنافِقونَ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ في حَقِّ المُسْلِمينَ ؟ وَبِمَ رَدَّ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ ؟

٧ـ ما مَصيرُ الشُّهداءِ الّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ ؟ وَما الحَياةُ الَّتي يَحْيَوْنَها عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةً تَدُلُّ عَلى أَنَّ المَوْتَ يَأْتي الإِنْسانَ أَيْنَما كانَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يُعامَلُ الشَّهيدُ مِنَ المُسْلِمينَ قَبْلَ دَفْنِهِ .

٣ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ عَلى حَثِّ المُسْلِمينَ عَلى تَمَنِّي الشَّهادَةِ .

٤ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً عَنِ المُنافِقينَ وَصِفاتِهِمْ كَما ذُكِرَ في القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَاقْرَأْ المَوْضوعَ عَلى الطَّلَبَةِ في طابورِ الصَّباحِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثامِنُ والثَّلاثونَ

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

القَرْحُ	الجراحُ الشَّديدَةُ الَّتي أَصابَتِ المُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ .
قالَ لَهُمُ النّاسُ	المُنافِقونَ .
إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ	كُفّارُ مَكَّةَ .
حَسْبُنا اللهُ	كافينا هُوَ اللهُ تَعالى .
يُسارِعونَ في الكُفْرِ	يَدْخُلونَ في الكُفْرِ بِرَغْبَةٍ .

التَّفْسيرُ :

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ .

إِنَّ المُؤْمِنينَ هُمُ الَّذينَ يُطيعونَ اللهَ وَرَسولَهُ في كُلِّ ما يُؤْمَرونَ بِهِ ، وها هُمُ الصَّحابَةُ رُضوانُ اللهِ

عَلَيْهِمْ بَعْدَ ما كانَ لَهُمْ في مَعرَكَةِ أُحُدٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَصابَتْهُمُ الجِراحُ الشَّديدَةُ يَدْعوهُمُ الرَّسولُ لِلْخُروجِ مَرَّةً أُخْرى لِلْجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَلا تَمْنَعُهُمُ الجِراحُ والآلامُ مِنَ الاسْتِجابَةِ لِلرَّسولِ ﷺ .

سَبَبُ النُّزولِ :

رُوِيَ أَنَّ أَبا سُفْيانَ وَأَصْحابَهُ بَعْدَ أَنِ انْصَرَفوا مِنْ أُحُدٍ وَبَلَغوا الرَّوْحاءَ ، نَدِموا وَقالوا : إِنّا قَتَلْنا أَكْثَرَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلاَّ القَليلُ فَلِمَ تَرَكْناهُمْ ؟ بَلِ الواجِبُ أَنْ نَرْجِعَ وَنَسْتَأْصِلَهُمْ ، فَهَمّوا بِالرُّجوعِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسولَ اللهِ ﷺ فَأَرادَ أَنْ يُرْهِبَ الكُفّارَ وَيُرِيَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ أَصْحابِهِ قُوَّةً ، فَنَدَبَ أَصْحابَهُ إِلى الخُروجِ في طَلَبِ أَبي سُفْيانَ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : إِنَّ الَّذينَ أَجابوا داعِيَ اللهِ تَعالى وَأَطاعوا رَسولَهُ فَخَرَجوا لِلْجِهادِ في سَبيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، دونَ ضَعْفٍ أَوْ تَخاذُلٍ مَعَ ما أَصابَهُمْ مِنْ جِراحٍ وَآلامٍ شَديدَةٍ ، إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَحْسَنوا بِأَنْ أَدَّوا كُلَّ ما أَمَرَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ واتَّقوا اللهَ تَعالى في كُلِّ أَحْوالِهِمْ ، فَصانوا أَنْفُسَهُمْ عَمّا نَهاهُمُ اللهُ عَنْهُ ، لَهُمْ أَجْرٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

وَبَعْدَ أَنْ مَدَحَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى حُسْنِ اسْتِجابَتِهِمْ للهِ وَلِرَسولِهِ ﷺ امْتَدَحَهُمْ عَلى ثَباتِهِمْ وَشَجاعَتِهِمْ .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

يَذْكُرُ المُفَسِّرونَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الصُّغْرى ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبا سُفْيانَ لَمّا عَزَمَ عَلى الانْصِرافِ إِلى مَكَّةَ بَعْدَ أُحُدٍ ، نادى : يا مُحَمَّدُ ، مَوْعِدُنا مَوْسِمُ بَدْرٍ الصُّغْرى ، فَنَقْتَتِلُ بِها إِنْ شِئْتَ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ لِعُمَرَ : قُلْ لَهُ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ ذَلِكَ إِنْ شاءَ اللهُ .

فَلَمّا حَضَرَ الأَجَلُ خَرَجَ أَبو سُفْيانَ مَعَ قَوْمِهِ حَتّى نَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرانِ فَأَلْقى اللهُ الرُّعْبَ في قَلْبِهِ ، فَبَدا لَهُ أَنْ يَرْجِعَ ، فَلَقِيَ نُعَيْمَ بنَ مَسْعودٍ وَقَدْ كانَ مُعْتَمِراً ، فَقالَ لَهُ : يا نُعَيْمُ : إِنّي وَعَدْتُ مُحَمَّداً أَنْ نَلْتَقِيَ بِمَوْسِمِ بَدْرٍ ، وَإِنَّ هَذا عامُ جَدْبٍ وَلا يَصْلُحُنا إِلاَّ عامٌ نَرْعى فيهِ الشَّجَرَ ، وَنَشْرَبُ فيهِ اللَّبَنَ ، وَقَدْ بَدا لي أَنْ أَرْجِعَ ، وَلَكِنْ إِنْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَلَمْ أَخْرُجْ زادَ بِذَلِكَ جُرْأَةً عَلَيْنا ، فَاذْهَبْ إِلى المَدينَةِ فَثَبِّطْهُمْ وَلَكَ عِنْدي عَشَرَةٌ مِنَ الإِبِلِ .

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ إِلى المَدينَةِ فَوَجَدَ المُسْلِمينَ يَتَجَهَّزونَ ، فَقالَ لَهُمْ : ما هَذا بِالرَّأْيِ ، أَتَوْكُمْ في دِيارِكُمْ وَقَتَلوا أَكْثَرَكُمْ ، فَإِنْ ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَمْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، فَوَقَعَ هَذا الكَلامُ في قُلوبِ قَوْمٍ مِنْهُمْ ، فَلَمّا رَأى النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ قالَ : وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ إِلَيْهِمْ وَلَوْ وَحْدي .

ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ في جَمْعٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، وَذَهَبوا إِلى أَنْ وَصَلوا إِلى بَدْرٍ الصُّغْرى ، وَهِيَ ماءٌ

لِبَني كِنانَة ، وكانتْ مَوْضِعَ سوقٍ لَهُمْ يَجْتَمِعون فيها كُلَّ عامٍ ثَمانِيَةَ أَيّامٍ وَلَمْ يَلْقَ رَسولُ اللهِ وَأَصْحابُهُ أَحداً مِنَ المُشْرِكينَ . وَوَقَفوا في السُّوقِ وَ كانَتْ مَعَهُمْ نَفَقاتٌ تِجاراتٍ فَباعوا وَ اشْتَرَوْا أَدَماً وَزَبيباً ، وَرَبِحوا وَأَصابوا بِالدِّرْهَمِ دِرْهَمَيْنِ وَانْصَرَفوا إِلى المَدينَةِ سالِمينَ ، أَمّا أَبُو سُفيانَ وَمَنْ مَعَهُ فَقَدْ عادوا إِلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ بَعْدَ أَنْ وَصلوا إِلى مَرِّ الظَّهْرانِ .

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ لَمْ تَمْنَعْهُمْ جِراحُهُمْ مِنَ الخُروجِ لِلْقِتالِ ، وَلَمْ يُرْهِبْهُمْ قَوْلُ مَنْ قالَ مُخَوِّفاً مُثَبِّطاً بِأَنْ قُرَيْشاً قَدْ جَمَعَتْ لَهُمُ الجُيوشَ لِتَسْتَأْصِلَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، وَلاَ تَخْرُجوا لِقِتالِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ لِإيمانِهِمْ الشَّديدِ وَصِدْقِ اعْتِمادِهِمْ عَلى اللهِ تَعالى ، لَمْ يَلْتَفِتوا إِلى هَذا القَوْلِ ، ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ فَقَدْ زادَهُمْ هَذا القَوْلُ إيماناً وَثَباتاً ، فَقالوا لِلْمُثَبِّطينَ : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ هُوَ يَكْفينا أَمْرَ أَعْدائِنا ، قَدْ تَوَكَّلْنا عَلَيْهِ ، وَهُوَ نِعْمَ النَّصيرُ .

عَنْ ابنِ عَبّاسٍ قالَ : « (حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ) قالَها إِبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ حينَ أُلْقِيَ بِهِ في النّارِ ، وَقالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ . إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ »[1] .

وَلَقَدْ كافَأَ اللهُ المُؤْمِنينَ بِالعاقِبَةِ الحَسَنَةِ . ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

لَقَدْ عادَ المُسْلِمونَ إِلى المَدينَةِ ـ بَعْدَ أَنْ وَجَدوا جُموعَ قُرَيْشٍ قَدْ فَرَّتْ ـ رَجَعَ المُسْلِمونَ مَصْحوبينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ مِنَ اللهِ تَعالى ، حَيْثُ سَلَّمَهُمْ مِنْ شَرٍّ ، فَلَمْ يُصِبْهُمْ أَذىً أَوْ مَكْروهٌ ، وَرَجَعوا كَذَلِكَ مَصْحوبينَ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تَعالى حَيْثُ أَكْرَمَهُمْ بِالرِّبْحِ الوَفيرِ في تِجارَتِهِمْ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالأَجْرِ الجَزيلِ ، وَقَدْ اتَّبَعوا ما يُرْضي اللهَ تَعالى ، وَيُوصِلُهُمْ إِلى ثَوابِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَذَلِكَ بِاسْتِجابَتِهِمْ لِلرَّسولِ ﷺ .

وَيَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أَنْ يَكونَ خَوْفُهُمْ مِنْهُ وَحْدَهُ ، وَأَنْ لا يَخافوا الشَّيْطانَ، يَقولُ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

وَذَلِكَ أَنَّ الَّذينَ ثَبَّطوا المُسْلِمينَ وَخَوَّفوهُمْ مِنْ لِقاءِ العَدوِّ هُمْ أَتْباعُ الشَّيْطانِ ، إِضافَةً إِلى ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّيْطانَ دائِمُ الوَسْوَسَةِ في قُلوبِ المُؤْمِنينَ بِالشَّرِّ ، وَالخَوْفِ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ لا تَخافوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ، بَلْ اجْعَلوا خَوْفَكُمْ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ حَقّاً .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة آل عمران .

إنَّ الَّذي يَجْعَلُ خَوْفَهُ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطانُ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : ٦٥] وَلا شَكَّ أَنَّ الخَوْفَ مِنَ اللهِ تَعالى إِنَّما يَكونُ بِتَقوى اللهِ ، أَيْ امْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهِيهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

لا يَحْزُنْكَ يا مُحَمَّدُ وَلا تَتحسَّرْ لِحالِ أُولَئِكَ القَوْمِ الَّذينَ يَقَعونَ سَريعاً في الكُفْرِ ، وَيَرْغَبونَ فيهِ أَشَدَّ الرَّغْبَةِ ، فَإِنَّهُمْ تَمادَوْا في كُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ وَإِضْلالِ غَيْرِهِمْ ، فَلَنْ يَضُرّوا دينَ اللهِ تَعالى أَو أَوْلِياءَهُ بِشَيْءٍ حَتَّى لَوْ كانَ ضَرَراً يَسيراً . إِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُريدُ أَنْ يُزيلَ مِنْ نَفْسِ حَبيبِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هذا الحُزْنَ ، وَيُطَمْئِنَهُ إِلى أَنَّ العاقِبَةَ لَنْ تَكونَ إِلاَّ لَهُ وَلأَتْباعِهِ المُؤْمِنينَ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُريدُ أَنْ لا يَجْعَلَ لِهَؤُلاءِ الكافِرينَ نَصيباً مِنَ الخَيْرِ في الآخِرَةِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ اخْتِيارِهِمُ الكُفْرَ بِإِرادَتِهِمْ ، وَلَهُمْ كَذَلِكَ عَذابٌ عَظيمٌ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يُؤْمِنُ الإِنْسانُ حَتَّى يَكونَ اللهُ وَرَسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما .

٢ـ إِذا وَقَعَ الإِنْسانُ في أَمْرٍ عَظيمٍ يَقولُ : حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ .

٣ـ الباطِلُ لا يَتْرُكُ أَيَّ فُرْصَةٍ تَسْنَحُ لَهُ إِلاّ وَ يُحاوِلُ أَنْ يَنالَ مِنَ الحَقِّ ، فَالصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ دائِمٌ إِلى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَما عَلَيْها ، وَالعاقِبَةُ لِلحَقِّ إِنْ شاءَ اللهُ .

٤ـ عَلى الإِنْسانِ أَنْ يُحاوِلَ دائِماً التَّغَلُّبَ عَلى وَساوِسِ الشَّيْطانِ وَأَتْباعِهِ ، وَذَلِكَ باتِّباعِ أَمْرِ اللهِ وَاجْتِنابِ نَهْيِهِ ، وَالشُّعورِ بِرَقابَةِ اللهِ عَلَيْهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّالِيةِ :

١ـ ما سَبَبُ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

٢ـ لِمَنْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى الأَجْرَ العَظيمَ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

١ـ لِماذا امْتَدَحَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَلى ثَباتِهِمْ وَشَجاعَتِهِمْ ؟

٢ـ مَنْ نَعيمُ بنُ مَسْعودٍ ؟ وَماذا كانَ دَوْرُهُ يَوْمَ بَدْرِ الصُّغْرى ؟

٣ـ أـ لَقَدْ قيلَ لِلْمُؤْمِنينَ ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ ، فَماذا كانَ مَوْقِفُهُمْ مِمَّا قيلَ لَهُمْ ؟

ب ـ مَنِ المَقْصودُ بِالنَّاسِ الأُولى والنَّاسِ الثَّانِيَةِ الَّتي وَرَدَتْ في الآيَةِ (١٧٣) ؟

٤ـ لَقَدْ رَجَعَ المُجاهِدونَ إِلى المَدينَةِ مَصْحوبينَ بِأُمورٍ ، ما هِيَ ؟

٥ـ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلى وَساوِسِ الشَّيْطانِ ؟

٦ـ جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المَكانَ الَّذي ذَهَبَ إِلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ التَّوْبَةِ الدَّالَّةَ عَلى خَشْيَةِ اللهِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والثّلاثون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **اشْتَرَوا** : اسْتَبْدَلوا ، وَيَأتي بِمَعْنى باعوا .
- **نُمْلي** : نُمْهِلُ .
- **يَميزَ** : يُحَدِّدَ وَيُبَيِّنَ ، وَيَأْتي بِمَعْنى يُفَصِّلَ .
- **الخَبيثَ** : المُنافِقَ وَمَنْ عَلى شاكِلَتِهِ مِنْ ضِعافِ الإِيمانِ .
- **الطَّيِّبِ** : المُؤْمِنِ الصّادِقِ .
- **يَجْتَبي** : يَخْتارُ وَيَصْطَفي .

التَّفْسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ الكافِرينَ مُنْغَمِسونَ في كُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ ، وَلِذا فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً عَظيماً ، وَتُؤَكِّدُ آياتُ الدَّرْسِ هَذِهِ العاقِبَةَ لِلكافِرينَ ، فَيَقولُ اللهُ تَعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾ .

وفي الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ ، حَيْثُ شَبَّهَ اللهُ تَعالى الَّذين يَتْرُكونَ الحَقَّ الواضِحَ الَّذي قامَتِ الأَدِلَّةُ

عَلى صِحَّتِهِ ، وَيَخْتارونَ الضَّلالَ الَّذي قامَتِ الأَدِلَّةُ على بُطْلانِهِ بِمَنْ يَكونُ في يَدِهِ سِلْعَةٌ ثَمينَةٌ فَيَتْرُكُها وَيَأْخُذُ مُقابِلَها سِلْعَةً فاسِدَةً رَديئَةً .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اسْتَبْدَلوا الباطِلَ بِالحَقِّ لَنْ يَضُرُّوا دينَ اللهِ تَعالى وَلا رَسولَهُ وَلا أَوْلِياءَهُ بِشَيءٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِذا سَتَكونُ نَتيجَتُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، وَهِيَ العَذابُ المُؤْلِمُ الشَّديدُ بِسَبَبِ إيثارِهِمُ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ، وَهَذا هُوَ حالُهُمْ فَعَلى المُسْلِمِ أَنْ لا يَغْتَرَّ بِحالِهِمْ في هَذِهِ الدُّنيا ، لِما يَراهُ مِنْ تَمَتُّعِ أُولَئِكَ الكافِرينَ بِمُتَعِ الدُّنْيا وَتَقَلُّبِهِمْ في نَعيمِها ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى يُمْهِلُهُمْ بِتَطويلِ أَعْمارِهِمْ وَإِعْطائِهِمْ الكَثيرَ مِنْ وَسائِلِ العَيْشِ الرَّغيدِ ، فَلا يَحْسَبَنَّ أُولَئِكَ الكافِرونَ أَنَّ تَنَعُّمَهُمْ في الدُّنْيا ، هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ لِلمَزيدِ مِنْ عَذابِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ إِنَّما يُمْهِلُهُمْ لِيَزْدادوا إِثْماً بِكَثْرَةِ ارْتِكابِهِمْ لِلمَعاصي ، وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ مُهينٌ ، لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ بِنِعَمِهِ في الدُّنيا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْكُروا هَذِهِ النِّعَمَ ، وَلِذا فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ سَيُذِلُّهُمْ وَيُهينُهُمْ في الآخِرَةِ . قالَ تَعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] .

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ الحِكَمِ الَّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها غَزْوَةُ أُحُدٍ ، قالَ تَعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَلا سُنَّتِهِ أَنْ يَتْرُكَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَقَدِ التَبَسَ عَلَيْكُمْ أَمْرُ المُنافِقينَ ، وَلَكِنَّ سُنَّةَ اللهِ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ بِالمَصائِبِ ، حَتَّى يَتَمَيَّزَ المُؤْمِنُ مِنَ المُنافِقِ ، وَيَظْهَرَ وَلِيُّ اللهِ تَعالى ، وَيَفْضَحَ بِها عَدُوَّهُ ، وَقَدِ امْتَحَنَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَظَهَرَ إيمانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ وَثَباتُهُمْ وَطاعَتُهُمْ للهِ وَرَسولِهِ ، وَظَهَرَتْ مُخالَفَةُ المُنافِقينَ وَنُكوصُهُمْ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وَخِيانَتُهُمْ للهِ وَلِرَسولِهِ ﷺ ، وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ لِلمُؤْمِنينَ بِأَنَّهُ ما كانَ لِيُطْلِعَ أَحَداً مِنْهُمْ عَلى الغَيْبِ الَّذي تَعْرِفونَ بِهِ المُؤْمِنَ مِنَ المُنافِقِ ، فَإِنَّ عِلْمَ ذَلِكَ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ يَصْطَفي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ لِيُطْلِعَهُ عَلى بَعْضِ الغَيْبِيّاتِ ، وَهَذا ما كانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذي اخْتارَهُ اللهُ وَاصْطَفاهُ ، وَأَطْلَعَهُ عَلى بَعْضِ الغَيْبِيّاتِ . قالَ تَعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ

﴿بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] . إذا عَلِمْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ بِأَنَّ اللهَ تَعالى لا يُطْلِعُ أَحداً على الغَيْبِ إلاَّ مَنِ اخْتارَهُ وَاجْتَباهُ لِلرِّسالَةِ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنوا بِاللهِ وَبِرَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَجَميعِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ آمَنْتُمْ وَسَلَّمْتُمْ أَمْرَكُمْ للهِ تَعالى ، واتَّقَيْتُمُ اللهَ تَعالى بِامْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ ، فَلَكُمْ مُقابِلَ ذَلِكَ أَجْرٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الَّذينَ يَتْرُكونَ الحَقَّ وَيَتَّبِعونَ الباطِلَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

٢ـ تَنَعُّمُ الكافِرينَ وَأَهْلِ الضَّلالِ في الدُّنْيا ، لَيْسَ لِكَرامَتِهِمْ وَعِظَمِ مَنْزِلَتِهِمْ .

٣ـ لَمْ يُطْلِعِ اللهُ تَعالى أَحَداً عَلى الغَيْبِ إلاَّ الرَّسولَ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ اسْتِعارَةٌ ، وَضِّحْ هَذِهِ الاسْتِعارَةَ .

٢ـ هَلْ يُمْكِنُ لِلكافِرينَ أَنْ يَضُرُّوا اللهَ وَرَسولَهُ ؟ وَمَنِ الَّذينَ يَتَضَرَّرونَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ؟

٣ـ ما النَّتيجَةُ الَّتي أَعَدَّها اللهُ لِلكافِرينَ ؟

٤ـ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّعِظَ المُؤْمِنونَ مِمَّا عَرَفوهُ مِنْ جَزاءٍ لِلكافِرينَ ؟

٥ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ بَعْضِ حِكَمِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، بَيِّنْ هَذِهِ الحِكَمَ .

٦ـ هَلْ يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَطَّلِعَ عَلى الغَيْبِ ؟ وَمَنِ الَّذي يَخْتَصُّهُ اللهُ بِعِلْمِ بَعْضِ الغَيْبِ ؟

نَشاطٌ :

ـ هاتِ مِثالَيْنِ مِمَّا أَطْلَعَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الأُمورِ الغَيْبيَّةِ سَواءٌ ما كانَ مِنَ اليَهودِ أَمْ كانَ مِنَ المُنافِقينَ أَمْ غَيْرِهِمْ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الأَرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الأَرْبَعونَ

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَبْخلونَ : مِنَ البُخْلِ ، وَهُوَ : ضِدُّ الكَرَم .

سَيُطَوَّقون : مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّوْقِ ، وَهُوَ : ما يُلْبَسُ حولَ الرَّقَبَةِ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَلى بَذْلِ الأَرْواحِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَحُثَّ عَلى بَذْلِ المالِ كَذلِكَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : وَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ الَّذينَ يَبْخَلونَ بِما أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ وأَمْوالٍ ، أَنَّ بُخْلَهُمْ خيرٌ لَهُمْ ، وَحِفْظٌ لِمالِهِمْ ، بلْ إِنَّ بُخْلَهُمْ هَذا فيهِ شَرٌّ عَظيمٌ لَهُمْ ، إِنَّهُمْ قَدْ بَخِلوا بِما لَيْسَ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ وَجودِهِ مَنَحَهُمْ إِيّاهُ ، وَكانَ الأَوْلى أَنْ يَشْكُروا اللهَ تَعالى عَلى ما أَعْطاهُمْ ، وَذَلِكَ بِبَذْلِ مالِهِمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

عَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (اتَّقوا الظُّلْمَ ، فإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَاتَّقوا الشُّحَ فإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلى أَنْ سَفَكوا دِماءَهُمْ ، وَاسْتَحلُّوا مَحارِمَهُمْ)[1] .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وَتَعالى المَصيرَ المُؤْلِمَ لأُولَئِكَ الَّذينَ بَخِلوا بِمالِهِمْ ، حَيْثُ سَتُجْعَلُ أَمْوالُهُمْ أَطْواقاً حَوْلَ رِقابِهِم ، وأَغْلالاً حَوْلَ أَجْسادِهِمْ .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قالَ : مَنْ أَتاهُ اللهُ مالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ ، مَثَلَ لهُ يومَ القِيامَةِ شُجاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبيبتانِ يُطَوِّقُهُ يومَ القيامَة ثُمَّ يَأْخُذُ بلِهْزِمَتَيْهِ ـ أَيْ شِدْقَيْهِ ـ ثُمَّ يَقولُ : أَنا مالُكَ أَنا كَنْزُكَ ، ثمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2] .

وهَذا الحَديثُ يُبيِّنُ أَنَّ العُقوبَةَ حَقيقيَّةٌ هي تَطويقُ أَعْناقِ الَّذينَ بَخِلوا بالمالِ .

الآياتُ القُرْآنيَّةُ تَدعو المُؤْمنينَ إلى تَرْكِ البُخْلِ وَتَدعو إلى الجودِ بالمالِ ، لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وتُحَذِّرُهُمْ مِنَ البُخْلِ وَتَتوعَّدُهُمْ عَلَيْهِ بالعَذابِ الأَليمِ ، وَتُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مالِكَ الكَوْنِ كُلِّهِ هُوَ اللهُ تَعالى ، فَكُلُّ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ ، مِمَّا يَتوارَثُهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، إِنَّما هُوَ مُلْكٌ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ المُعْطي وَالمانِعُ ، فَلِماذا يَبْخَلونَ عَلى اللهِ تَعالى بِما يَمْلِكُهُ سُبْحانَهُ ، وَلِماذا لا يُنْفِقونَهُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ عَلى ما يَكونُ مِنْكُمْ مِنْ جُودٍ وَكَرَمٍ أَوْ بُخْلٍ ، وَسَيُجازي كُلَّ إِنْسانٍ عَلى عَمَلِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ المُنافِقينَ وَفَضَحَتْهُمْ ، انْتَقَلَتْ لِلحَديثِ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وَبَعْضِ رذائِلِهِمْ ، لِيَحْذَرَ المُؤْمِنونَ مِنْهُمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : دَخَلَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَيْتَ المدراسِ فَوَجَدَ مِنْ يَهودَ ناساً كَثيرَةً قَدِ اجْتَمَعوا عَلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ : فِنْحاصُ ، وكانَ مِنْ عُلَمائِهِمْ ، وَمَعَهُ حَبْرٌ يُقالُ لَهُ « أَشْيَعُ » فَقالَ لَهُ أَبو بَكْرٍ : وَيْحَكَ يا فِنْحاصُ ، اتَّقِ اللهَ وأَسْلِمْ ، فواللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، قَدْ جاءَكُمْ بالحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ ، تَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَكُمْ في التَّوْراةِ والإِنْجيلِ ، فَقالَ فِنْحاصُ : واللهِ يا أَبا بَكْرٍ ما بِنا إلى اللهِ مِنْ حاجَةٍ مِنْ فَقْرٍ ، وإِنَّهُ إِلَيْنا لَفَقيرٌ ، ما نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ إلاَّ كَما يَتَضَرَّعُ إِلَيْنا وإِنَّا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ، حديث رقم ٢٥٧٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤٢٨٩ .

لأَغْنِياءُ ، وَلَوْ كانَ عنَّا غَنِيّاً ما اسْتَقْرَضَ منَّا كَما يَزْعُمُ صاحِبُكُمْ ، يَنْهاكُمْ عَنِ الرِّبا وَيُعْطِينا ، وَلَوْ كانَ غَنِيّاً ما أَعْطانا الرِّبَ .

فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحاصَ ضَرْباً شَدِيداً ، وَقالَ : وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لولا الَّذي بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مِنَ العَهْدِ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يا عدوّ اللهِ ، فَذَهَبَ فِنْحاصُ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ : يا مُحَمَّدُ ، أَبْصِرْ ما صَنَعَ بي صاحِبُكَ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَا حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ يا أَبا بَكْرٍ ؟ فَقالَ أَبو بَكْرٍ : يا رَسولَ الله ، إِنَّ عدوَّ اللهِ قالَ قولاً عَظيماً ، يَزعمُ أَنَّ اللهَ فَقيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنياءُ ، فَلمَّا قالَ ذَلِكَ غضبتُ للهِ مِمَّا قالَ فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ ، فَجَحَدَ فِنْحاصُ ذَلِكَ وَقالَ : مَا قُلْتُ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فيما قالَ فنحاصُ : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1] .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ هَؤُلاءِ الكافِرينَ الَّذينَ قالوا هَذِهِ المَقالَةَ ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ قالَ : ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ وَالكِتابَةُ عَلى حَقيقَتِها ، فَإِنَّ الأَعْمالَ والأَقوالَ تُكْتَبُ في صُحُفِهِمْ ثُمَّ يُعاقِبُهُمْ عَلَيْها سُبْحانَهُ وَتَعالى عِقاباً شَديداً .

وَلَيْسَ هَذا ما سَيُسَجِّلُهُ في صَحائِفِ أَعْمالِهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بَلْ سَيَكْتُبُ عَلَيْهِمْ قَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَدْ نَسَبَ اللهُ تَعالى إِلَيْهِم هَذا الفِعْلَ ، مَعَ أَنَّ الَّذي قَتَلَ الأَنْبياءَ هُمْ أَسْلافُهُمْ مِنْ قبلُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَضوا مَا فَعَلَهُ أَسْلافُهُمْ ، كانوا كَأَنَّهُمْ قَدْ فَعَلوا هَذِهِ الفِعْلَةَ .

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

إِنَّ هَؤُلاءِ سَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَه ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أَيْ : سَنَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَسَنُذيقُهُمُ العَذابَ ، كَما أَذاقوا المُسْلِمينَ وأَتْباعَ الأَنْبياءِ أَلواناً مِنَ العَذابِ ، وآذَوْهُمْ أَشَدَّ الإِيذاءِ وهَذا العَذابُ المُحْرِقُ الَّذي يَذوقونَ حَرارَتَهُ بِسَبَبِ أَعْمالِهِمُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنْيا ، مِنْ وَصْفِ اللهِ تَعالى بِالفَقْرِ ، وَقَتْلِ للأَنْبياءِ ، وَما كانَ مِنْهُمْ مِنْ ضُروبِ الكُفْرِ ، وإِنَّ هَذا العَذابَ أَصابَهُمْ بِسَبَبِ عَمَلِهِمْ ، وَبِسَبَبِ كَوْنِ اللهِ تَعالى عادِلاً في حُكْمِهِ وأَفْعالِهِ ، فَهُوَ لا يَجورُ وَلا يَظْلِمُ ، وَلا يُعاقِبُ غَيْرَ المُسْتَحِقِّ لِلْعقابِ ، ولاَ يَجعلُ المُجْرِمينَ كالمُتَّقينَ .

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٤/ ١٩٤ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَثُّ عَلى الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فالبُخْلُ شَرٌّ عَظيمٌ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ فيهِ أَيُّ خَيْرٍ .

٢ـ كُلُّ ما يُعْطاهُ الإِنْسانُ مِنْ مالٍ وَجاهٍ وَقُوَّةٍ وَعِلْمٍ عَرَضٌ زائِلٌ .

٣ـ إنَّ اللهَ تَعالى لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنْ أَعْمالِ البَشَرِ ، فَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلى الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا كانَ الشَّرُّ العَظيمُ في البُخْلِ ؟

٢ـ ما المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذينَ يَبْخَلونَ بِأَمْوالِهِمْ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ في قَوْلِهِ : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ﴾ ؟ وَهَلْ هَذا حَقيقَةٌ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ رَذيلَةً مِنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ في حَقِّ اللهِ تَعالى ، ما هِيَ ؟

٥ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ أَنْبيائِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ؟

٦ـ ما المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِهَؤُلاءِ اليَهودِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اشْرَحْ مُفْرَداتِ الحديثِ : شُجاعاً أقرعَ ، زَبيبتانِ ، واكتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والأربعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الحادي والأَرْبَعونَ

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **عَهِدَ إِلَيْنا** : أَوْصانا .
- **قُرْبانٍ** : ما يُتَقرَّبَ بِهِ إِلى اللهِ تَعالى مِنْ ذَبائِحَ وَأَمْوالٍ .
- **البيِّناتِ** : المُعْجزاتِ الواضِحاتِ .
- **الزُّبُرِ** : واحِدها زَبُورٌ وَهُوَ الكِتابُ المَقْصورُ عَلى الحِكَمِ .
- **تُوَفَّوْنَ** : تَأْخُذونَها كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ .
- **زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ** : نُجِّيَ وَأُبْعِدَ عَنْها .



التَّفْسيرُ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

ما تَزالُ الآياتُ تَتَحدَّثُ عَنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ اليَهودِ . عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، أَنَّ

جَماعَةً مِنَ اليَهودِ أتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ فقالوا : يا مُحَمَّدُ تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ ، وَأَنَّهُ تَعالى أَوْحى إِلَيْكَ كِتاباً ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْنا في التَّوْراةِ أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسولِ اللهِ حَتَّى يَأْتِينا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، ويَكونَ لِلنّارِ دَوِيٌّ خَفيفٌ ، حينَ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ، فَإِنْ جِئْتَنا بِهذا صَدَّقْناكَ ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

إِنَّ ادِّعاءَهُمْ هَذا مِنْ مُفْتَرَياتِهِمْ وأَباطيلِهِمْ ، الَّتي قَصَدوا مِنْها عَدَمَ الإيمانِ بِالرَّسولِ ﷺ ، وَإِذا كانَتْ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ لِرَسولٍ مِنَ الرُّسُلِ السَّابِقينَ ، وَهِيَ أَنْ تَأْتِيَ نارٌ مِنَ السَّماءِ فَتَأْكُلَ ما يَتَقرَّبونَ بِهِ إلى اللهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ كَذَلِكَ مُعْجِزَةً لِلرَّسولِ ﷺ ، وَلِذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِما يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ، أَي قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ مُوَبِّخاً وَمُكَذِّباً ، قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ كَثيرونَ مِنْ قَبْلي كَزَكَرِيّا وَيَحيى وَغَيْرِهِما بِالمُعْجِزاتِ الدَّالَّةِ عَلى صِدْقِ نُبُوَّتِهِمْ ، وَبِما كُنْتُمْ تَقْتَرِحونَ وَتَطْلُبونَ ، وَأَتوا بِالقُرْبانِ الَّذي تَأْكُلُهُ النَّارُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ لَمْ تُؤْمِنوا بِهِمْ ، بَل تَجَرأْتُمْ عَلى اللهِ تَعالى ، وَقُمْتُمْ بِقَتْلِ أَنْبِيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

إِنَّ هَؤُلاءِ اليَهودَ كانوا مُتَعَنِّتينَ ، قُلوبُهُمْ قاسِيَةٌ ، لا تَتَأَثَّرُ بِالآياتِ الَّتي تَأْتيها ، وَلِذا فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُوَبِّخُهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فيما تَدَّعونَهُ مِنْ أَنَّكُمْ لا تُؤْمِنونَ إِلاَّ بِمَنْ جاءَكُمْ بِهَذِهِ المُعْجِزَةِ الَّتي طَلَبْتُمْ ، فَقَدْ جاءَ بِها أَنْبِياءٌ مِنْ قَبْلُ ، فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ ؟

وَيُسَلّي اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ ، فَيُبَيِّنُ لَهُ أَنَّكَ لَسْتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ يا مُحَمَّدُ ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ إِنْ كَذَّبوكَ بَعْدَ أَنْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّناتِ وَالبَراهينِ الواضِحَةِ ، وَالكِتابِ المُبينِ ، فَلا تَحْزَنْ لِفَسادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَعَنُّتِهِمْ ، فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في الخَلْقِ ، فَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعالى رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ أَيَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِالمُعْجِزاتِ الباهِرَةِ ، وَالآياتِ البَيِّنَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُذِّبوا وَأُوذوا مِنْ أَقْوامِهِمْ ، فَصَبَروا عَلى ما كُذِّبوا وَأُوذوا .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وَتَعالى زِيادَةً في تَسْلِيَةِ رَسولِهِ ﷺ ، بِأَنَّ ما تَراهُ يا مُحَمَّدُ مِنْ أُولَئِكَ الكافِرينَ ، فَهُوَ مُنْتَهٍ فَلا تَضْجَرْ وَلاَ تَحْزَنْ ، فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَهْما طالَ عُمْرُها لابُدَّ وَأَنْ يُصيبَها المَوْتُ ، قالَ تَعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَي : كُلُّ نَفْسٍ خَلَقَها اللهُ تَعالى ، لا بُدَّ وَأَنْ تَذوقَ طَعْمَ المَوْتِ ، وَتُحِسَّ بِهِ ، وَحينَ تُفارِقُ الجَسَدَ وَتَصْعَدُ إِلى بارِئِها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَلا تَأْخُذُ أَجْرَها كُلَّهُ في الدُّنيا ، تُوَفَّى أَجْرَها وَتُعْطى جَزاءَ عَمَلِها وافِياً يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ « التَوْفِية » أي : أَخْذُ الجَزاءِ كُلِّهِ كامِلاً يَوْمَ القِيامَةِ ، وَفي هَذا إِشارَةٌ إِلى أَنَّ جُزْءاً مِنْ هَذا الجَزاءِ قَدْ يَصِلُ لِلإِنْسانِ في الدُّنْيا ، سَواءٌ أَكانَ خَيْراً أَمْ شَرّاً ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَيْهِ في قَبْرِهِ ، وَلِذَلِكَ قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ »(١) .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ إِنَّ النَّاسَ سَيُحاسَبونَ عَلى أَعْمالِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَمَنْ خَلَصَ مِنَ العَذابِ ، وَأَبْعَدَ نَفْسَهُ عَنْها ، فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنِ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ بِالزَّحْزَحَةِ ، كَأَنَّ الشَّخْصَ كانَ يَقِفُ عَلى حافَّةِ النَّارِ ، وَيوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ فيها لِأَعْمالِهِ السَّيِّئَةِ ، وَلَكِنَّهُ عَمِلَ صالِحاً فَزَحْزَحَتْهُ تِلْكَ الأَعْمالُ عَنِ النَّارِ وَالسُّقوطِ فيها ، وَجَعَلَتْهُ يَنْجو مِنْها بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالى وَعَفْوِهِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ إِنَّ هَذِهِ الحَياةَ الدُّنْيا الَّتي نَعيشُ فيها ، وَنَتَمَتَّعُ بِلَذَّاتِها الحِسِّيَّةِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ أَوِ المَعْنَوِيَّةِ كَالجاهِ وَالسِّيادَةِ ، لَيْسَتْ إِلاَّ مَتاعاً يَسْتَمْتِعُ بِهِ المَغْرورُ ، حَيْثُ لا يُفَكِّرُ إِلاَّ فيها ، فَتَشْغَلُهُ في كُلِّ وَقْتِهِ ، فَلا يُفَكِّرُ إِلاَّ في جَلْبِ لَذَّاتِها وَمَنافِعِها لِنَفْسِهِ ، وَدَفْعِ آلامِها عَنْهُ ، فَهُوَ يُتْعِبُ نَفْسَهُ لِما لا يَسْتَحِقُّ التَّعَبَ ، وَيَشْقى فيما يَتَوَهَّمُهُ سَعادَةً لَهُ .

وَالعاقِلُ هُوَ الَّذي لا تَخْدَعُهُ الدُّنْيا بِزُخْرُفِها وَزينَتِها ، وَيَحْذَرُ مِنَ الإِسْرافِ في الاشْتِغالِ بِمَتاعِها ، وَالعاقِلُ هُوَ الَّذي يَسْعى لِكَسْبِ ما يُفيدُهُ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ ، أَوْ عَمَلٍ صالِحٍ يَنْتَفِعُ بِهِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ طِباعُ البَشَرِ في كُلِّ الأَزْمِنَةِ سَواءٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَقَبَّلُ الحَقَّ وَيُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقاوِمُهُ وَيَبْتَعِدُ عَنْهُ .

٢ـ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ، وَالعاقِلُ الَّذي يَسْتَعِدُّ لِلِقاءِ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

٣ـ العاقِلُ مَنْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَها الجَنَّةَ ، وَذَلِكَ بِالإِيمانِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَالالْتِزامِ بِما أَمَرَ اللهُ بِهِ .

٤ـ الحَياةُ الدُّنْيا ما هِيَ إِلاّ خِداعٌ ، تَخْدَعُ أَصْحابَها ، وَتُشْغِلُهُمْ عَنِ العَمَلِ الصَّالِحِ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٢٤٦٠ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآيَةُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ اليَهودَ أَلاَّ يُؤْمِنوا بِرَسولٍ إِلاَّ إِذا شاهَدوا عَلامَةً مُعَيَّنَةً ، ما تِلْكَ العَلامَةُ ؟

٢ـ هَلْ هُمْ صادِقونَ في ادِّعائِهِمْ هَذا ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

٣ـ بِماذا رَدَّ القُرْآنُ الكَريمُ عَلى هَؤُلاءِ اليَهودِ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ في الخَلْقِ ، ما هِيَ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَ مَوْقِفُ الأَنْبِياءِ السّابِقينَ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ أَقْوامِهِمْ ؟

٦ـ ما مَعنى قَوْلِهِ تَعالى : تُوَفَّى ؟

٧ـ هَلْ يَكونُ الجَزاءُ في الآخِرَةِ فَحَسْبُ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٨ـ وَضِّحْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ عَلى مَنْ أُنْزِلَ الكِتابُ المُسَمَّى الزَّبورَ ، اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً موجَزاً عَنِ افْتِراءاتِ أَهْلِ الكِتابِ ، وَكَيْفَ رَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وَضَعِ المَوْضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الثَّاني والأَرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثَّاني وَالأَرْبَعونَ

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَتُبْلَوُنَّ : لَتُخْتَبَرُنَّ .

تَصْبِروا : تَحْتَمِلوا المَكْروهَ ، وَتَكْظِموا النَّفْسَ عَلَيْهِ .

ميثاقَ : عَهْداً مُؤَكَّداً .

لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ : لَتُظْهِرُنَّ جَميعَ ما فيهِ مِنَ الأَحْكامِ وَالأَخْبارِ .

نَبَذوهُ : طَرَحوهُ .

بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ : بِمَنْجاةٍ مِنْهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .

جاءَ في الآياتِ السَّابِقَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَبَيانُ ما لَقِيَهُ المُسْلِمونَ مِنْ أَذىً مِنَ المُشْرِكينَ ،

وَجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لِلْمُسْلمينَ بِأَنَّهُمْ كما تَعَرَّضوا في السَّابِقِ لِلْمِحَنِ وَالآلام ، فإِنَّهُمْ كَذَلِكَ في المُسْتَقْبَلِ سَيَلْقَوْنَ أذىً كثيراً مِنَ الكافِرينَ في أَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الصَّبْرِ وَتَرْكِ الجزَعِ ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمُ اللهُ بوقوعِ البَلاءِ حَتَّى لا يَشُقَّ عَلَيْهِمْ عِنْدَ نُزولِهِ ، لأَنَّ الشِّدَّةَ المُتَوَقَّعَةَ يَسْهُلُ عَلى المُؤْمِنِ احْتِمالُها ، أَمّا الشِّدَّةُ الَّتي تَقَعُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّعٍ فَإِنَّهُ يَصْعُبُ احْتِمالُها .

وَالابْتِلاءُ في المالِ يَكونُ بِما يُصيبُكُمْ مِنَ الضَّياعِ ، وَبِما يُطالَبونَ بِهِ مِنْ إنفاقٍ في سَبيلِ اللهِ تعالى وَفي وُجوهِ البِرِّ الكَثيرَةِ ، وَالابْتِلاءُ في الأَنْفُسِ يَكونُ بِما يُصيبُها مِنْ جِراحٍ وَآلامٍ ، وَبِبَذْلِها في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى .

وَمِمّا يُبْتَلى بِهِ المُؤْمِنونَ ، أَنَّهُمْ سَيَسْمَعونَ إيذاءً كَثيراً مِنَ اليَهودِ وَالنَّصارى وَالمُشْرِكينَ ، وَالمَقْصودُ هُنا الإِيذاءُ في الدِّينِ .

وَقَدْ رُتِّبَتْ هَذِهِ الابْتِلاءاتُ مِنَ الأَدْنى إلى الأَعْلى وَالأَشَدِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْوَنَ أَنْواعِ الابْتِلاءِ ما يُصيبُ الإِنْسانَ في مالِهِ ، ثُمَّ الأَشَدَّ ما يُصيبُهُ في نَفْسِهِ ، فَهِيَ أَغْلى مِنَ المالِ ، وَأَعْظَمُ الابْتِلاءاتِ هِيَ فِتْنَةُ الإِنْسانِ في دينِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ المَوْتَ يَهونُ عَلَيْهِ ، وَتَهونُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَلَكِنَّ دينَهُ لا يَهونُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَتَحَمَّلُ صُنوفَ الأَذى في سَبيلِ دينِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتعالى لِلْمُؤْمنينَ ما يُعينُهُمْ عَلى التَّغَلُّبِ عَلى الابْتِلاءِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي : إنْ تَصْبِروا عَلى ما سَيَحِلُّ بِكُمْ مِنَ البَلاءِ في أَموالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَعَلى ما تَسْمَعونَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ مِنَ الأَذى ، وَتَتَّقوا اللهَ فيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، فَإِنَّ صَبْرَكُمْ وَتَقواكُمْ مِنَ الأُمورِ الَّتي يَنْبَغي أَنْ يَعْزِمَ عَلَيْها كُلُّ أَحَدٍ .

عَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ ، عَنْ أبيهِ قالَ : قُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قالَ : (الأَنْبياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دينِهِ ، فَإِنْ كانَ دينُهُ صَلْباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كانَ في دينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلى حَسَبِ دينِهِ ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلى الأَرْضِ ما عَلَيْهِ خَطيئَةٌ)[1] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ رَذيلَةٍ مِنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ أي : اذْكُروا حينَ أَخَذَ اللهُ العَهْدَ وَالميثاقَ عَلى الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنَ اليَهودِ وَالنَّصارى بِلِسانِ أَنْبيائِهِمْ ، لِيُبَيِّنَ ما في كِتابِهِمْ لِلنَّاسِ ، وَيُبَيِّنوا ما فيهِ مِنْ أَحْكامٍ وَأَخْبارٍ ،

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في باب ما جاء في الصبر، حديث رقم ٢٣٩٨ .

وَبشاراتٍ بالنَّبيِّ ﷺ ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الكِتابِ نَقَضوا هَذا العَهْدَ ، وَلَمْ يُبالوا بِهِ أَوْ يَهْتَمُّوا بشَأْنِهِ ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ لَقَدْ نَبَذوا ما عاهدَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَهانوا بِهِ ، وَأَخذوا بَدَلاً مِنْهُ شَيْئاً حَقيراً مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا ، وَهُوَ ما كانَ يَسْتَفيدُهُ الرُّؤَساءُ مِنَ المَرْؤوسينَ مِنْ حُطامِ الدُّنيا لِيَتَمَتَّعوا بِمَلَذّاتِها وَشَهواتِها الفانِيَةِ ، وَكانوا يُؤَوِّلونَ الكِتابَ وَيُحَرِّفونَهُ لأَغْراضٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَيَصْرِفونَ نُصوصَهُ إِلى مَعانٍ تُوافِقُ هَوى الحُكّامِ لِيَأْمَنوا شَرَّهُمْ ، أَوْ لإِرْضاءِ العامَّةِ أَوْ الأَغْنياءِ بِموافَقَةِ أَهْوائِهِمْ ، لِلاسْتِفادَةِ مِنْ جاهِهِمْ وَمالِهِمْ .

وما أَقْبَحَ هَذا الثَّمَنَ القَليلَ الحَقيرَ الَّذي يَقْبضونَهُ مُقابِلَ تَحْريفِهِمْ كِتابَهُمْ ، وَتَغْييرِ نُصوصِهِ وأَحْكامِهِ ، لَقَدْ جَعَلوا الثَّمَنَ الفانيَ بَدَلاً مِنَ النَّعيمِ الدّائِمِ .

إِنَّ عَلى العالِمِ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرَهُ ، وَيُبَيِّنَ ما في كِتابِ اللهِ تَعالى ، وَسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، لِيَنالوا جَميعاً رِضى اللهِ تَعالى ، وَلِتَكونَ الأُمَّةُ قَوِيَّةً مُتَماسِكَةً يَهابُ العَدُوُّ جانِبَها ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلَهُ : « لَوْلا ما أَخَذَ اللهُ تَعالى عَلى أَهْلِ الكِتابِ ما حَدَّثْتُكُمْ » وَتَلا هَذِهِ الآيَةَ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ رَذيلَةٍ مِنَ الرَّذائِلِ الَّتي هِيَ عامَّةٌ بَيْنَ اليهودِ وَغَيْرِهِمْ ، وفي بَيانِها تَأْديبٌ لِلْمُسْلِمينَ قالَ تَعالى :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ يَفْرَحونَ بما فَعَلوهُ مِنْ بَيْعِهِمْ دينَهُمْ بِدُنْياهُمْ ، وَاسْتِبْدالِهِمُ الَّذي هُوَ أَدْنى بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ ، وما فَعَلوهُ مِنْ تَحْريفٍ وَتَأْويلٍ لِكِتابِهِمْ ، وَلا تَظُنَّ كَذَلِكَ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بما لَمْ يَفْعَلوا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النّاسُ وَيُثْنوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ حُفّاظٌ لِكِتابِ اللهِ ، مُوفونَ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى مُظْهِرونَ لِلْحَقِّ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلوا شَيْئاً مِنْ هَذا ، بَلْ فَعَلوا نَقيضَهُ ، فَحَوَّلوا كِتابَهُمْ إِلى ما يُوافِقُ أَهْواءَ الحُكّامِ وَأَهْواءَ العامَّةِ .

وَمَعَ كُلِّ ما يَفْعَلُهُ هَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ أَنْصارُ دينِ اللهِ تَعالى ، وَعُلَماءُ كِتابِهِ ، وَهُمْ في الحَقيقَةِ أَبْعَدُ النّاسِ عَنْ عَذابِ اللهِ وَأَقْرَبُهُمْ إِلى رُضْوانِهِ ؛ وَلِذا فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى كَذِبَ هَؤُلاءِ ، وَبَيَّنَ عاقِبَتَهُمْ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : لا تَظُنَّهُمْ يا مُحَمَّدُ ناجينَ مِنَ العَذابِ في الدُّنيا ، وَهَذا العَذابُ قَدْ يَكونُ بانْتِصارِ أَهْلِ الحَقِّ عَلَيْهِمْ وَتَقْتيلِهِمْ وَتَشْريدِهِمْ وَخُذْلانِهِمْ ، وَقَدْ يَكونُ سَخَطاً مِنَ اللهِ يَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ، كَأَنْ يُسَلِّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الزَّلازِلَ والفَيَضاناتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَإِضافَةً إِلى ذَلِكَ العَذابِ في الدُّنْيا فَإِنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليماً شَديداً موجِعاً في الآخِرَةِ بِسَبَبِ ما كانَ مِنْهُمْ .

وَهَذِهِ الآيَةُ ـ كَما قُلْنا ـ لَيْسَتْ خاصَّةً بِاليَهودِ ، وَلَكِنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنْ يَفْرَحُ بِإِظْهارِ الباطِلِ

وبِالمَعاصي وَيَتَباهى بِها ، وَكُلِّ مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِأَمْرٍ لَمْ يَفْعَلْهُ ، فَتَعُمُّ الآيَةُ اليَهودَ والنَّصارى والمُسْلِمينَ كَذلِكَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الابْتِلاءُ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الحَياةِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الحَقِّ لا بُدَّ وأَنْ يَتَعَرَّضوا لِلابْتِلاءِ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى تَحَمُّلِ ذَلِكَ .

٢ـ الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمانِ ، وَهُوَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ، فَعَلى المُؤْمِنِ أَنْ يَتَسَلَّحَ بِهِ لِيَتَحَمَّلَ ما يُبْتَلى بِهِ .

٣ـ عَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَتْلوا كِتابَهُمْ وَيُبَيِّنوهُ لِلنّاسِ ، وَلا يَكْتُموا ما فيهِ ، حَتّى لا يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بِاليَهودِ .

٤ـ الَّذينَ يَتَباهَوْنَ بِالمَعاصي وَيُحِبّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النّاسُ عَلى أُمورٍ لَمْ يَفْعَلوها ، فَإِنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليماً في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسْئِلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ عَمَّ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ الأُولى (١٨٦) مِنْ آياتِ هَذا الدَّرْسِ ؟

٢ـ لِماذا أَخْبَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَنِ البَلاءِ الَّذي سَيَقَعُ في المُسْتَقْبَلِ ؟

٣ـ بِماذ يَبْتَلي اللهُ تَعالى الإِنْسانَ في الدُّنْيا ؟

٤ـ لِماذا رُتِّبَتِ الابْتِلاءاتُ في الآيَةِ هَذا التَّرْتيبَ ؟

٥ـ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُعينَ الإِنْسانَ عَلى التَّغَلُّبِ عَلى الابْتِلاءاتِ ؟

٦ـ ما العَهْدُ الَّذي أَخَذَهُ اللهُ عَلى أَهْلِ الكِتابِ ؟

٧ـ كَيْفَ قابَلَ أَهْلُ الكِتابِ العَهْدَ الَّذي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟

٨ـ ما الواجِبُ عَلى العُلَماءِ تِجاهَ الآخَرينَ ؟

٩ـ كَيْفَ يَفْرَحُ الإِنْسانُ بِما أَتَى ؟ وَما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ ؟

١٠ـ عَمَّنْ تَتَحَدَّثُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ؟

١١ـ بِمَ يُعَذِّبُ اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ المَذْكورينَ في الدُّنْيا ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَدُلُّ عَلى اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ .

٢ـ بَيِّنْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ أَبي هُرَيْرَةَ ، وَاكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الثَّالِثُ والأَرْبَعونَ

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ : تَعاقُبِهِما .

الأَلْبابِ : واحِدُها لُبٌّ وَهُوَ العَقْلُ .

باطِلاً : عَبَثاً لاَ فائِدَةَ فيهِ .

سُبْحانَكَ : تَنْزيهاً لَكَ عَما لا يَليقُ بِكَ .

أَخْزَيْتَهُ : أَهَنْتَهُ .

تَوَفَّنا : أَمِتْنا .

الأَبْرارِ : مُفْرَدُها بارٌّ ، وَهُوَ المُحْسِنُ في العَمَلِ .

المِيعادَ : الوَعْدَ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

تَحدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنْ أُولئِكَ الَّذينَ يَكْتُمونَ الحَقَّ ، وَوَجَّهَتِ المُؤْمِنينَ إلى بَيانِ الحَقِّ وَعَدَمِ كِتْمانِهِ ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ لَهُمْ أَنَّ اللهَ تَعالى سَيَكْفيكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ما أَهَمَّكُمْ وَيُغْنيكُمْ عَمّا نَهاكُمُ اللهُ تَعالى عَنْهُ ، وَذلِكَ أَنَّ للهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ ، فَهُوَ يُعْطي مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، لا يُعْجِزُهُ نَصْرُكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ عَلى مَنْ يُؤْذونَكُمْ بِأَيْديهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تُطيعوا اللهَ تَعالى وَتَحْذَروا غَضَبَهُ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ في نِظامِ السَّماواتِ والأَرْضِ وَبَديعِ تَقْديرِهِما ، وَعَجيبِ صُنْعِهِما ، وَفي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَتَعاقُبِهِما بِنِظامٍ دَقيقٍ طَوالَ العامِ ، وَفي اخْتِلافِهِما طُولاً وَقِصَراً ، في كُلِّ ذلِكَ أَماراتٌ وَأَدِلَّةٌ واضِحَةٌ لأَصْحابِ العُقولِ السَّليمَةِ ، تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وَكَمالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ .

عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : « بِتُّ عِنْدَ خالَتي مَيْمونَةَ ، فَتَحَدَّثَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ ساعَةً ثُمَّ رَقَدَ ، فَلَما كانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلى السَّماءِ فَقالَ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثُمَّ قامَ فَتَوَضَّأَ واسْتَنَّ ، ثُمَّ صَلّى إِحْدى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، ثُمَّ أَذَّنَ بِلالٌ فَصَلّى ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلّى بِالنّاسِ الصُّبْحَ »[1] .

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

وَقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ أُولي الأَلْبابِ بِصِفاتٍ :

١ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ إِنَّ أُولي الأَلْبابِ هُمُ الَّذينَ يَنْظُرونَ وَيَهْتَدونَ ، وَيَسْتَحْضِرونَ عَظَمَةَ اللهِ تَعالى ، وَيَتَذاكَرونَ حِكْمَتَهُ وَفَضْلَهُ ، وَيُكْثِرونَ مِنْ تَسْبيحِهِ وَتَمْجيدِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَيُداوِمونَ عَلى ذلِكَ في جَميعِ أَحْوالِهِمْ ، فَهُمْ يَذْكُرونَهُ قائِمينَ وَقاعِدينَ ، وَيَذْكُرونَهُ وَهُمْ عَلى جُنوبِهِمْ ، فَهُمْ لا يَغْفُلونَ عَنْهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى في عامَّةِ أَوْقاتِهِمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، آل عمران ، حديث رقم ٤٢٩٣ .

٢ـ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يتفكَّرون في هذا الكونِ وما فيهِ مِنْ جمالِ الصَّنْعَةِ ، وبديعِ الخلْقِ ، فيتفكَّرون في خلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ الأسْرارِ الَّتي تَدُلُّ على التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في خلْقِ اللهِ تعالى .

٣ـ يتوجَّهونَ إلى اللهِ تعالى بالدُّعاءِ ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ يقولُ الذَّاكِرونَ والمُتفكِّرونَ : ربَّنا ما خلَقْتَ هذا باطِلاً وعَبثاً ، سُبْحانكَ ربَّنا ، تنزَّهْتَ عنِ الباطِلِ والعبَثِ ، فكلُّ خلْقِكَ قدِ اشْتملَ على الحِكَمِ العظيمةِ ، ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ لقدْ سألوا اللهَ أنْ يقيَهُمْ عذابَ النَّارِ ، ويُدْخِلَهُمُ الجنَّةَ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

٤ـ وهُمْ في توجُّههِمْ إلى اللهِ تعالى ، يتضرَّعونَ إليْهِ أنْ يُبْعِدَهُمْ عنْ عذابِ النَّارِ ، لأنَّ مَنْ يكونُ مصيرُهُ نارَ جهنَّمَ فقدْ أخْزاهُ اللهُ تعالى وأذلَّهُ وفضحَهُ على رُؤوسِ الأشْهادِ ، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ والظَّالِمُ هُوَ الَّذي تركَ الحقَّ ، واتَّبعَ الباطِلَ ، فهُوَ قدِ اسْتحقَّ نارَ جهنَّمَ لِظُلْمِهِ وجَوْرِهِ ، ولا يجِدُ مَنْ ينْصُرُهُ أوْ يُبْعِدُ عنْهُ هذا العذابَ .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ .

٥ـ وهُمْ يتوجَّهونَ إلى اللهِ تعالى قائلينَ : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ إنَّهُمْ بعْدَ أنْ عرفوا ربَّهُمْ حقَّ المعْرفةِ ، تحدَّثوا عنْ رسولِهِ ﷺ ، ووُصولِ دعْوتِهِ إليْهِمْ ، واسْتجابتِهِمْ لها ، والمُنادي هُوَ الرَّسولُ ﷺ ، وصفَهُ بالمُنادي ليَدُلَّ على كمالِ اعْتنائِهِ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بدعْوتِهِ وحِرْصِهِ على تبْليغِها للنَّاسِ جميعاً ، وقدْ أمرَهُمُ الرَّسولُ بالإيمانِ فاسْتجابوا لهُ سريعاً وآمنوا بربِّهِمْ سُبْحانهُ وتعالى ، ثُمَّ طلبوا مِنَ اللهِ تعالى عِدَّةَ أشْياءَ ، وفيما يلي بيانُها :

١ـ مغْفِرةُ ذُنوبِهِمْ ، وذلِكَ بأنْ يسْتُرَها ويعْفوَ عنْها سُبْحانهُ وتعالى .

٢ـ تكْفيرُ سيِّئاتِهِمْ ، بحيْثُ يُذْهِبُ أثَرَ هذهِ السَّيِّئاتِ ويمْحوها .

٣ـ توفِّيهِمْ معَ الأبْرارِ ، أي يموتوا على حالةِ البرِّ والطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ ، لِينالوا درجةَ الأبْرارِ في الجنَّةِ .

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ .

٤ـ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ سألوا ربَّهُمْ ما وعدَهُمْ بِهِ مِنْ ثوابٍ وحُسْنِ جزاءٍ في الدُّنْيا والآخِرةِ ، جزاءً على تصْديقِهِمْ رُسُلَهُ عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٥ـ ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي : لاَ تَفْضَحْنا يَوْمَ القيامَةِ بِإِدْخالِنا النّارَ ، نَسْأَلُكَ اللّهُمَّ أَنْ لا تَفْضَحَنا بَيْنَ خَلْقِكَ ولاَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، اللّهُمَّ لاَ تُخْزِنا في الدُّنْيا والآخِرَة .

﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ إنّكَ يا رَبُّ لا تُخْلِفُ ما وَعَدْتَ بِهِ عِبادَكَ الصّالِحينَ الذينَ يَذْكُرونكَ قياماً وقُعوداً وَعلى جُنوبِهِمْ ، وَيَتفكَّرونَ في خَلْقِكَ ، وَيُسبِّحونَكَ وَيَتَّبِعونَ نَبيَّكَ مُحَمَّداً ﷺ ، إِنَّكَ سَميعٌ قَريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ هُوَ الّذي يَلْهَجُ لِسانُهُ دائِماً بِذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وَيَذْكُرُهُ عَلى جَميعِ أَحْوالِهِ .

٢ـ التَّفَكُّرُ في خَلْقِ اللهِ تَعالى وَالتَّدَبُّرُ فيهِ مِنْ دَلالاتِ الإيمانِ الصّادِقِ . وَتَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قيامِ لَيْلَةٍ .

٣ـ اسْتِشعارُ عَظَمَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ وَتَدْبيرِهِ ، وَتَنْزيهِهِ عَنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ .

٤ـ التَّضَرُّعُ إلى اللهِ تَعالى ، ودُعاؤهُ في إِصْلاحِ أُمورِ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ سَيَكْفي اللهُ المُؤْمنينَ ما أَهَمَّهُمْ ؟

٢ـ اذْكُرْ بَعْضَ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ في الكَوْنِ الّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ ، مِما ذَكَرَتْهُ الآيَةُ .

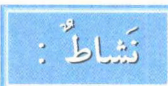
٣ـ وَصَفَتِ الآياتُ أُولي الأَلْبابِ بِصِفاتٍ ، اذْكُرْها .

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ؟

٥ـ ما مَوْقِفُ أُولي الأَلْبابِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ؟

٦ـ ما الّذي طَلَبَهُ المُؤْمِنونَ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٧ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ .



نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَدُلُّ على اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدْعو إلى التَّفَكُّرِ في مَخْلوقاتِ اللهِ .

٣ـ هاتِ آيَةً مِنْ كِتابِ اللهِ تَحدثَتْ عَنْ جَزاءِ الأَبْرارِ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

تَعَلَّمْ :

قَالَ عَطاءٌ : انطَلَقْتُ أَنا وَابنَ عُمَرَ بن عُمَيْرٍ إلى عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، فَدَخَلْنا عَلَيْها وَبَيْننا وَبَيْنَها حِجابٌ ، فَقالَ لَها ابنُ عُمَرَ : أَخْبرينا بِأَعْجَب ما رَأيتِيهِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ فَبَكَتْ وَقالَتْ : كانَ عَجَباً ، أَتاني في لَيْلَتي ، وَقالَ لي : يا عائِشَةُ ذَريني أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، قالَتْ ، فَقُلْتُ : واللهِ إِنّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ ، وَإِنّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ رَبَّكَ ، فَقامَ إِلى القِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يُكْثِرْ صَبَّ الماءِ ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ على جَنْبِهِ فَبَكَى ، حَتَّى إِذا أَتى بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلاةِ الصُّبْحِ قالَ لَهُ : يا رَسولَ اللهِ ، ما يُبْكيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ؟ فَقالَ : وَيْحَكَ يا بِلالُ! وَما يَمْنَعُني أَنْ أَبْكي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ في هَذِهِ اللَّيْلَةِ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . .﴾ الخ الآياتِ ، ثُمَّ قالَ : وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فيها[١] .

* * *

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح برقم ٦٢٠ .

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الرَّابِعُ والأَرْبعونَ

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَغُرَّنَّكَ : يَخْدَعَنَّكَ .

تَقَلُّبُ : تَصَرُّفُهُمْ في التِّجاراتِ والمَكاسِبِ .

مأواهُمْ : مَصيرُهُمْ .

المِهادُ : الفِراشُ والمَضْجَعُ .

التَّفْسيرُ :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

بَعْدَ تِلْكَ الدَّعواتِ الخاشِعَةِ الَّتي تَوَجَّهَ بِها المُؤْمِنونَ إِلى رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بَيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أَنَّ اللهَ اسْتَجابَ لَهُمْ دُعاءَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ما زالوا يَقولونَ رَبَّنا حَتَّى اسْتَجابَ لَهُمْ ، لِصِدْقِهِمْ في

إيمانِهِمْ وَذِكْرِهِمْ وَتَفَكُّرِهِمْ وتَنْزِيهِهِم لِرَبِّهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ لِلرُّسُلِ ، وَقَدْ جاءَتِ الفاءُ ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ لِلدَّلالَةِ على سُرْعَةِ الإجابَةِ .

وَلَقَدْ بَشَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وتعالى بِأَنَّهُ لا يُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، فَالذَّكَرُ وَالأُنْثى مُتَساوِيانِ عِنْدَ اللهِ في الجَزاءِ ، ما داما تَساويا في العَمَلِ ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ فَالذَّكَرُ مِنَ الأُنْثى ، وَالأُنْثى مِنَ الذَّكَرِ .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قالَتْ : يا رَسولَ اللهِ ، لا أَسْمَعُ اللهَ تَعالى ذَكَرَ النِّساءَ في الهِجْرَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[1] . وَالمَقْصودُ بِأَنْزَلَ اللهُ ، أي تلا عَلَيْها النَّبيُّ ﷺ الآيَةَ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ سَبَبَ اسْتِحْقاقِ هَؤُلاءِ الثَّوابَ العَظيمَ مِنَ اللهِ تَعالى :

١ـ ﴿فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُوا۟﴾ أي هاجَروا مِنْ وَطَنِهِمْ إلى أَماكِنَ أُخْرى مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ فَقَدْ أَجْبَرَهُمُ الكافِرونَ عَلى الخُروجِ ، فَخَرَجوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى فِراراً بِدينِهِمْ مِنْ ظُلْمِ الظّالِمينَ ، وَاعْتِداءِ المُعْتَدينَ .

٣ـ ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ فَقَدْ تَحَمَّلوا الأَذى وَالاضْطِهادَ في سَبيلِ الحَقِّ الَّذي آمَنوا بِهِ .

٤ـ ﴿وَقَـٰتَلُوا۟﴾ : أَعْداءَ اللهِ تَعالى .

٥ـ ﴿وَقُتِلُوا۟﴾ وَهُمْ يُجاهِدونَ في سَبيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ فَعَلوا هَذا الَّذي فَعَلوا رَجاءَ المَثوبَةِ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلِذَلِكَ وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بِأُمورٍ ثَلاثَةٍ :

١ـ مَحْوِ السَّيِّئاتِ وَغُفْرانِ الذُّنوبِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ .

٢ـ إِعْطائِهِمُ الثَّوابَ العَظيمَ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ .

٣ـ أَنْ يَكونَ هَذا الثَّوابُ مَقْروناً بِالتَّعْظيمِ وَالإِجْلالِ ﴿ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فَهُوَ ثَوابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُخْتَصٌّ بِهِ سُبْحانَهُ ، لا يَسْتَطيعُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وفي هَذا تَأْكيدٌ لِشَرَفِ ذَلِكَ الثَّوابِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيْءٍ .

وَبَعْدَ أَنْ وَعَدَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بِالثَّوابِ العَظيمِ ، وَقَدْ كانوا في الدُّنْيا في فَقْرٍ وَشِدَّةٍ وَكانَ الكُفّارُ في رَخاءٍ ، ذَكَرَ سُبْحانَهُ ما يُسَلِّي المُؤْمِنينَ وَيُصَبِّرُهُمْ عَلى تِلْكَ الشَّدائِدِ الَّتي هُمْ فيها ، فَقالَ تعالى :

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، حديث رقم ٣٠٢٣ .

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

أي : لا يَخْدَعَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ما تَروْنَهُ مِنْ حالِ الكافِرينَ ، مِنْ تَقَلُّبِهِمْ في البلادِ ، وَتَصرُّفِهِمْ فيها كَيْفَ شاءُوا ، مُسَيْطِرينَ عَلَيْها ، مُسْتَغِلّينَ لِثَرَواتِها وَخَيْراتِها ، فَإِنَّ هَذا لا يَبْقى إلاَّ مُدَّةً قَليلَةً ثُمَّ يَنْتَقِلونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ . وَالخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ﴾ لِلرَّسولِ ﷺ وَلَكِنَّ المُرادَ أُمَّتُهُ .

إِنَّ هَذا التَّقَلُّبَ في البلادِ الَّذي يَتَمَتَّعونَ بِهِ مَتاعٌ قَليلٌ زائِلٌ ، ثُمَّ سَتَكونُ عاقِبَتُهُمْ هَذا المَكانَ الَّذي يَأْوونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَقِرّونَ فيهِ ، وَهُوَ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ هَذا المَكانُ الَّذي اسْتَحَقّوهُ مَكاناً لَهُمْ يُقيمونَ فيهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الذَّكَرَ والأُنْثى مُتَساوِيانِ عِنْدَ اللهِ تَعالى في الجَزاءِ لِتَساويهِما في العَمَلِ وَالتَّكاليفِ .

٢ـ إنَّ التَّشْريعَ القُرْآنِيَّ قَدْ رَفَعَ مَكانَةَ المَرْأَةِ وَأَثْبَتَ لَها الكَرامَةَ .

٣ـ ما يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ المُؤمِنونَ مِنْ مَشاقَّ وَفِتَنٍ ، إِنَّما هِيَ لِتَحْميَهُمْ ، وَتُخَلِّصَهُمْ مِمّا يشوبُ تَدَيُّنَهُمْ مِنْ شَوائِبِ المَعاصي .

٤ـ إِعْطاءُ اللهِ الكافِرينَ وَإِنْعامُهُ عَلَيْهِمْ ، لَيْسَ لِكَرامَتِهِمْ عِنْدَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُمْهِلُهُمْ لِيَزْدادوا إِثْماً ، فَيَزيدُ عَذابَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لَقَدْ تَوَجَّهَ المُؤْمِنونَ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ يَسْأَلونَ بَعْضَ الأُمورِ ، ما تِلْكَ الأُمورُ ؟

٢ـ هَلِ اسْتَجابَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وَبِماذا بَشَّرَهُمْ ؟

٣ـ لِماذا اسْتَحَقَّ المُؤْمِنونَ الثَّوابَ العَظيمَ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ بِماذا وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى مُقابِلَ ما كانَ مِنْهُمْ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ؟

٦ـ ما مَعْنى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ؟

٧ـ كَيفَ يَكونُ تَقلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ ؟ وما العِبْرَةُ الَّتي نَسْتَخْلِصُها مِنْ هَذا التَقلُّبِ لِلكافِرينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ آيَةً مِنْ سورَةِ النَّحْلِ تُبيِّنُ المَعْنى الواردَ في الآيَةِ (١٩٥) .

* * *

الدَّرْسُ الخامسُ والأرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ وَالأَرْبَعونَ

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **نُزُلاً** : النُزُلُ : ما يُهيَّأُ لِلضَّيْفِ .
- **خَاشِعينَ** : خاضِعينَ .
- **اصْبِروا** : احْبِسُوا نُفوسَكُمْ عَنِ الجَزَعِ مِمّا يَنالُها .
- **صابِروا** : اصْبِروا عَلى شَدائِدِ الحَرْبِ .
- **رابِطوا** : أقيموا عَلى الثُّغورِ الإِسْلامِيَّةِ لِحِمايَتِها .
- **تُفْلِحونَ** : تَفوزونَ .

التَّفسيرُ :

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

تَحدَّثَتِ الآيةُ السَّابِقَةُ عَنْ مَصيرِ الكافِرينَ ، وَانْتَقَلَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَصيرِ المُؤْمِنينَ المُتَّقينَ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فَأْتَمَروا بِأَمْرِهِ ، وَتَرَكوا ما نَهاهُمْ عَنْهُ سُبْحانَهُ ، لَهُمْ

جنَّاتُ النَّعيمِ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَقَدْ هُيِّئَتْ هَذِهِ الجنَّاتُ لِتكونَ مَنْزِلاً لَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى عَلى سَبيلِ الإِكْرامِ لَهُمْ وَالتَّشْريفِ لِمَنْزِلَتِهِمْ ، وَما عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ الكَرامَةِ وَالفَضْلِ لِهَؤُلاءِ المُتَّقينَ ، خَيْرٌ لَهُمْ مِما يَتَقلَّبُ فيهِ الكافِرونَ مِنَ المَتاعِ القَليلِ الفاني .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، فَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ نَقَضوا العُهودَ وَآذَوْا الرَّسولَ ﷺ وَأَصْحابَهُ ، أَما هَذِهِ الآيَةُ فَجاءَتْ لِتُقيمَ ميزانَ الحَقِّ ، إِذْ إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَيْسوا سَواءً ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ إِيماناً صادِقاً ، وَيُؤْمِنُ بما أُنْزِلَ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، وَهُوَ القُرْآنُ الكَريمُ ، وَيُؤْمِنونَ كَذَلِكَ بما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا بالقُرْآنِ ، وَكانوا مِنْ قَبْلِهِ مُهْتَدينَ بما عِنْدَهُمْ مِنْ هَدْيِ الأَنْبياءِ .

لَقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ بِعِدَّةِ صِفاتٍ :

الأُولى : الإِيمانُ باللهِ إِيماناً لاَ تَشوبُهُ نَزَعاتُ الشِّرْكِ .

الثَّانيةُ : الإِيمانُ بما أُنْزِلَ إِلى المُسْلِمينَ ، وَهُوَ ما أَوْحاهُ اللهُ إِلى نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

الثَّالِثَةُ : الإِيمانُ بما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ ما أَوْحاهُ اللهُ إِلى أَنْبيائِهِمْ .

الرَّابِعَةُ : الخُشوعُ ؛ وَهُوَ ثَمْرَةُ الإِيمانِ الصَّحيحِ ، لأَنَّ الخُشوعَ هُوَ أَثَرُ خَشْيَةِ اللهِ في القَلْبِ .

الخامِسَةُ : لاَ يَسْتَبْدِلونَ مَتاعَ الدُّنْيا بآياتِ اللهِ تَعالى ، بَلْ يَحْفَظونَ آياتِ اللهِ وَيَعْمَلونَ بها .

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اتَّصَفوا بِهَذِهِ الصِّفاتِ العَظيمَةِ ، لَهُمْ ثَوابٌ عَظيمٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الَّذي رَبَّاهُمْ بِنِعَمِهِ ، وَهَداهُمْ إِلى الحَقِّ وَإِلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُحاسِبُ النَّاسَ جَميعاً في وَقْتٍ قَصيرٍ عَلى ما كَسَبَتْهُ أَيْديهِمْ .

وَتُخْتَمُ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ بِهَذِهِ الوَصيَّةِ الجامِعَةِ لِلْمُؤْمِنينَ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

أَي : اصْبِروا عَلى شَدائِدِ الدُّنْيا وَآلامِها مِنْ مَرَضٍ وَفَقْرٍ وَخَوْفٍ ، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أَي تَحَمَّلوا المَكارِهَ الَّتي تُصيبُكُمْ مِنْ سِواكُمْ . وَالمُصابَرَةُ أَشَدُّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَذُكِرَتْ بَعْدَ الصَّبْرِ عَلى ما يَجِبُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ ، تَخْصيصاً لِشِدَّتِهِ وَصُعوبَتِهِ ، فَالمُصابَرَةُ مُقابَلَةُ صَبْرِ أَعْدائِكُمْ بِصَبْرٍ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَقْوى في كُلِّ مَوْطِنٍ يَسْتَلْزِمُ الصَّبْرَ .

﴿وَرابِطُوا﴾ أَصْلُها مِنْ رَبَطَ الخَيْلَ في الثُّغور ، فَيأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ بِدوام الاسْتِعدادِ لِحِمايَةِ هذا الدِّين ، وَالمَقْصودُ بِهذا الاسْتِعْدادُ لِمُحارَبَةِ العَدُوِّ وَقِتالِهِ دائِماً ، وَالحَذَر مِنَ العَدُوِّ حَتَّى لا يُفاجِئكُمْ .

عَنْ سَهْلِ بنِ سَعَدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « رباطُ يَوْم في سَبيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فيها »[1] . وَعَنْ سَلْمانَ الفارِسِيِّ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (رِباطُ يَوْم وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيام شَهْرٍ وَقِيامِهِ ، وَإِنْ ماتَ جَرى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذي كانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ)[2] .

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ فَلا تُخالِفوا أَمْرَهُ ، وَأَطيعوهُ في كُلِّ ما أَمَرَكُمْ بِهِ ، رَجاءَ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ لَكُمُ الفَوْزَ بِالنَّصْرِ في الدُّنْيا وَالثَّوابَ الحَسَنَ في الآخِرة .

لَقَدْ خُتِمَتْ سورَةُ آلِ عِمْرانَ بِهذِهِ الوَصِيَّةِ الجامِعَةِ ؛ الأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ وَالمُرابَطَةِ ، والتَّقوى ، وَهَذِهِ كُلُّها هِيَ وَسائِلُ الظَّفَرِ عَلى الأَعْداءِ في الدُّنْيا كَما أَنَّها مِنْ أَسْبابِ السَّعادَةِ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لَقَدْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لِلْمُتَّقينَ جَنَّاتٍ عَظيمَةً تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَهذا الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ خَيْرٌ مِما يَتَنَعَّمُ فيهِ الكافِرونَ في الدُّنْيا .

٢ـ الخُشوعُ هُوَ الثَّمَرَةُ لِلإيمانِ الصَّحيح ، وَهُوَ أَثَرُ خَشْيَةِ اللهِ تَعالى في القَلْبِ .

٣ـ لِكَيْ يَنْتَصِرَ المُسْلِمونَ عَلى أَعْدائِهِم لا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ وَالمُرابَطَةِ وَتَقوى اللهِ تَعالى .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْها عَلى النِّسْيانِ وَالخَطَأ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُحَمِّلْها ما حَمَّلَ الأُمَمَ غَيْرَها مِنَ الآصارِ والأَغلالِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٧٣٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٤١ ، حديث رقم ٢٣٨٧٦ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنينَ الَّذينَ ائتَمَروا بِأَمْرِهِ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَيْسوا سَواءً ، بِماذا وَصَفَتْهُمْ هَذهِ الآياتُ ؟

٣ـ بِماذا وَعَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ؟

٤ـ ما الصِّفاتُ الَّتي ذَكَرَتْها سورَةُ آلِ عِمْرانَ في خاتِمَتِها لِلْمُؤْمِنينَ ؟

٥ـ فَرِّقْ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ .

٦ـ ما مَعْنى ﴿رابِطُوا﴾ ؟

٧ـ ما حِكْمَةُ خَتْمِ سورَةِ آلِ عِمْرانَ بِالصِّفاتِ الّتي تضمَّنَتْها الآيَةُ (٢٠٠) ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ آيَةً مِنْ كِتابِ اللهِ تَحُثُّ عَلى الاسْتِعْدادِ لِلْقِتالِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اشْرَحْ مَعنى : الفَتّانِ ، الوارِدَةِ في الحديثِ الشَّريفِ ، واكتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

❊ ❊ ❊